أحلام واحةٍ
في منتصف العمر

رواية

دار الوطن
للصحافة والطباعة والنشر

خالد أخازي

أحلام واحةٍ في منتصف العمر

رواية

دار الوطن
للصحافة والطباعة والنشر

الكتاب : أحلام واحة في منتصف العمر
الكاتب : خالد أخازي
الصنف : روايـة
الإيداع القانوني : 2021MO2767
الترقيم الدولي : 978-9954-648-85-8
الطبعة : الأولى 2021
الناشر : دار الوطن للصحافة والطباعة والنشر
دارالوطن
للصحافة و الطباعة و النشر
7 ، زنقة الكوفة رقم 1 الرباط 10000 المغرب
تلفونات : 212537702120 + جوال : 212673420256+
البريد الإلكتروني: daralwatan2018@gmail.com
صفحتنا على فيس بوك : https://www.facebook.com/daralwatan2020
التصميم الداخلي : هند السـاعدي
لوحة الغلاف : سعيد حاجي
السحب : مطبعة لامبريمور
حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار الوطن
مدير النشر : عبد النبي الشراط

إهداء خاص

منذ ما يزيد عن أربعين سنة، كتب أستاذ اللغة العربية على ورقة إنجاز لطفل « أتمنى أن تكون أديب القسم....»

تلك الجملة البهية غيرتني منذئذ، ورمت بي مباشرة في سن مبكرة في عالم الكتاب، أقايض كتابا بخدمة، أجالس عامل مكتبة بلا ضجر مقابل حصة قراءة ممتعة، وكنت أشد التعلق بصداقة أبناء الكتبيين...

لا أعرف هل غدوت الأديب الذي توقع...؟

كل ما أعرف أني مدين لذاك الأستاذ الذي مازال يسكنني جمالا وبهاء، بهذا الدفق الجمالي الذي جعلني أرى العالم من زاوية أوسع، اسمها الرواية.

فإلى أستاذي «سنة أولى إعدادي» الأستاذ الكبير الحسين مفراح، مع امتناني له وحبي

فقد كنت مدرسا سابقا لزمنه، لأنك أدركتَ أن اللغة كما تحيي تميت، وكما تلغي المتاريس تنوب عن المسافات وتصنع المعجزات...

المدرسون قد يصنعون الفارق بجرة قلم...

«حتَّى الأحْلام يجبُ عليها أن تُقاوم للبقاء على قيْد الحياة!».

دوستويفسكي

«إذا سمعتَ صوتًا بداخلك يقول: «إنك لا تستطيع الرسم» فهذا يعني ارسم ...! سيصمت ذلك الصوت بداخلك للأبد».

فان كوخ

«إذا تفوَّهت بتلميحات ذكيَّة فأنت رئيس وزراء، وإن دوَّنتها فأنت شكسبير».

جورج برنارد شو

(1)

سؤال حارق مؤلم لحوح ما زال يحفرُ عميقًا في كبريائه، لو يهتدي عقلُه إلى الجواب الشافي لِأَرَقِه ومِحْنَتِه، لوجد جفناه سبيلًا إلى النوم: «لِمَ أحالوه في هذه السن المبكرة على المعاش، وسيرته ليس فيها غير الفتوحات والخدمات المتميِّزة للجهاز...؟! ما السر وراء إنهاء خدماته في الجهاز وهو الضابط المطيع الذي يخلو ملفه من أدنى مؤاخذة أو عقوبة إدارية...؟!».

وحدَه الليل قادر على هدم العتبات والحواجز والمتاريس الزمنية والنفسية، وحدَه الليل يجيد لعبة قلب الزمن والحفر في الروح حتى النزيف، يفضح الصمت، يعريه، ثم يثملُ على ركام انهيار الحكمة، صمت الليل غواية للخيبات المتوارية وراء جدار النسيان الهش.

السؤال «المفترس» حول سبب تخلِّيهم عنه لا يهدأ ولا يفتر ليلًا، يزداد شراسة وضراوة مع الصمت حين يهجع الجميع، ويُعربِد بكل فظاظة ليلًا في دروب عقله، هو حاضنة دافئة لأرَقٍ عنيدٍ طائشٍ لا يرحم، لا تُخطِئ سهامُه الحادَّة هدفَها ولو في العتمة، أرَقٌ عِربيدٌ يعبث بخيال صلاح حيران ويمنع عنه أن يتنفَّس هواءَ الحياةِ العادية، أرَقٌ كغابةٍ متشابكةِ الأحراج، متعانقة الأشجار، لا تغفو طرفةَ عينٍ، موغلة في الوحشة والرهبة والضجيج، مطيرة لا ينقطع وابل سُحبها المنتعش من كبد الشفق، عن الهطول هوسًا وهمًّا وكمدًا، زوبعة الشك والتوجُّس تبعثر مضاربَ السكينة في صحراء أيامه الرتيبة، تداهمه رغمًا عنه صورٌ قاتمة من ماضٍ خالَ نفسَه تخلَّص منه، يلعنها علَّها تتلاشَى، يهرب منها بخيالٍ آخر، فتزداد بشاعةً وحضورًا مؤلمًا، وتفترس الفراغ بسخرية سوداء.

أحدهم ممن خضعوا للتحقيق يومًا ما تحت سلطته، تسللت ملامح صورته عَنوة إلى نفسه المضطربة على عتبة الأرق، لا يعرف لِمَ هو بالضبط، لكنه صار الآن وجودًا يزداد تجليًا، بقوة الاسترجاع القهري، وتسافر معه تفاصيل مؤلمة ومتعبة، ويذكر اسمَه «عثمان بنجيران»، وسِحنته الشاحبة، وجسدَه النحيف الهزيل، ورعشةَ شفتيه الزرقاوين، وثنايا فمه الصفراء المتراكبة، وشعرَه الأشعث المجعَّد، ولحيتَه المغبرَّة في فوضى دون تشذيب ولا تهذيب، كان يرتدي ملابس متنافرة بلا ذوق ولا قياس مضبوط، سروالًا دجينًا أزرق متسخًا، وقميصًا فقدَ لونَه، فضاع بين أحمر فاتح أصلي، ووردي باهت مكتسَب، تفوح منه رائحة التبغ الرخيص، الصورة راسخة في عقله، سافرت من الماضي القريب، وانتعشت باستحضار نبرة صوت هذا الشاب الفائض الحماس، الواثقة ملامح وجهه الجاد، التي لا تخلو من سخرية متعمَّدة واستصغار مدروسَيْن وتحدٍّ لمُخاطِبه لهجةً وإيقاعًا، يذكر أنه سأله باستنكار: «لِمَ تُشكك في الماضي وفي تاريخنا وهو تراثنا الذي يلحمنا ويجمعنا...؟! ماذا نحن بدون هذا التاريخ الذي نُدرِّسه لأطفالنا في المدارس...؟! لِمَ تشكك في الدين وهو المقدَّس عند المغاربة ودين الدولة الذي يجمع ما لا يقبل الجمع إلا به وعبره...؟! ألا تعلم أن إمارة المؤمنين هي ضمان وحدة الأمة، وحولها تلتف كل الأعراق والأطياف...؟!».

وكان رد عثمان بنجيران هذا حالمًا لكن بجرعة عالية من الوثوق: «الماضي ماكر، لا بد أن يجد طريقَه يومًا ما إلى الحاضر، حين يفقد الحاضر مناعتَه وقوَّتَه، ينتهز الماضي الضعفَ واليأس ويأتي في جبهة الأمل، قد يقدم حلولًا مؤقتة، لكنها مجرد جرعات تخدر قضايا الراهن المر، ليس في الماضي حلول كثيرة، فيه فقط عِبَر وعزاء مزيف... تاريخ المقررات الدراسية هو تاريخ بلا هوية، هو تاريخ لا يصنع الأوطان الحرة، ولا الشعوب الكريمة، هو تاريخ مفتون بالغنيمة والعطايا، مسكون بالخوف والخرف، لأنه ليس تاريخ الشعوب».

لم يُعطِ أجوبة شاملة عن القضايا الأخرى ولزم الصمت، أو ربما في حديثه عن الماضي والتاريخ كانت كل الأجوبة الأخرى بين السطور.

استحضر مع صورته عزيمتَه وإصرارَه على موقفه وتباثه الغريب، جيء به بعدما أسهب وتطرَّف كثيرًا في كل لقاءاته الخاصَّة والعامَّة في التشكيك في الدين وإمارة المؤمنين، كان بنجيران هذا لا يتورَّع ولا يجد حرجًا، غير متردِّد في تحميل الدولة مسؤولية الفقر والجهل، وتحميل الدين مسؤولية التخلُّف، يؤمن بثورة يتحالف فيها العمال والفلاحون والمثقفون، لبناء مجتمع اشتراكي، وكان على صلاح حيران أن يعرفه حدوده، وخرائط القول المباح.

في قرارة نفسه أعجب صلاح حيران به، كشخص صلب مشاكس، لكنه عدَّه أحمق غِرًّا ضحيةً لأفكار مسمومة، مسلوبَ الإرادة، تحت تأثير غسيل دماغي عميق، وكرهه حينما اطلع على التقرير المرافق مع الملف، علم أن هذا المناضل الذي يعدُّه غبيًّا كان يُدبِّج تقارير سياسيَّةً واقتصاديةً واجتماعيةً عن المغرب، بحجة البحث الأكاديمي يرسلها إلى موسكو تحت غطاء مركز للدراسات والأبحاث، ربما هو نفسه لا يعرف خطورة فعله، ولكنه كان يتقاضَى تعويضات بالعملة الصعبة عن كل تقرير، وكشفت أبحاث المخابرات المغربية عن صلةٍ بين المركز المذكور وجهاز المخابرات السوفياتي «الكا جي بي».

لم ير صلاح حيران عثمان بنجيران بعد ذلك، ولم يعرف مصيرَه بعدما وقَّع المحضر، لكن حين أحاطه بكل المعطيات، ذُهِل الشاب المتحمِّس المناضل وخصوصًا حين تُلِي عليه التقرير الآخر، فأحسَّ أنه في ورطة، وحين أنهى صلاح حيران تحقيقَه، أخذته جهة أمنية أخرى إلى مكان مجهول، وهو مستعدٌّ كما رجح صلاح حيران أن يعقد صفقة، إلى أن شاهده صدفةً ذات مساء على شاشة التلفزة، يلقي خطابًا قويًّا تحت قبة البرلمان كونه برلمانيًّا، منتقدًا فيه الحكومة، مستشهدًا بالكتاب والسنة، وقد أطلق لحيةً خفيفةً، وكان ينظر مبتسمًا إلى وزير الداخلية بعدما أثنى

وأشاد وأطرَى عليه، والكل يصفق، معارضةً وأغلبيةً، رآه يعدد مناقب الوزير ومجهوداته دون باقي الوزراء الذين دعا الله لهم أن يتعلموا منه ومن حِكمته وخبرته.

على كل حال صلاح حيران، ليس في ماضيه البعيد ما يفخر به قبل أن يلج الجهاز، كل ماضيه التليد وأمجاده صنعَها في الخدمة، لهذا كل الصور العابرة من طفولته وصباه نحو الحاضر مؤلمة أو محرجة، ما العمل والفراغ يحتاج إلى امتلاء، والجاهز بلا عناء هو الماضي...؟! لقد أمضى زمنًا طويلًا في المكتب الخاص بالمنظمات السياسيَّة والنقابيَّة والمنظمات السريَّة، ويعرف الكثير من التفاصيل، واطلع على خبايا كثيرة، واستمع لزعماء وساسة، ومناضلين وقادة، وتنصت على الكثيرين منهم، ويدرك ضعفَهم وتفاصيل شهواتهم، وتجليات نزقهم، هو لا يثق في السياسيين ولا الزعماء ولا في المناضلين والدعاة والخطباء، ولا ينفك يردِّد أن أكثرهم انتهازيون تُغيِّرهم المناصب والمواقع ويتحاسدون على المنافع والمغانم والمصالح، وله أسرار عن بعضهم تكشف مدى زيفهم، ينعمون في خيرات البلاد، ويخاطبون الشعب خطابًا مدلسًا، ويعتقد أن البلد في حاجة إلى نظام قوي مركزي، لا إلى أحزاب، وأن كثيرًا من الحرية يؤدي إلى الفوضى، والمغاربة في حاجة إلى الخبز لا إلى السياسة والكلام الفارغ...!

(2)

يتقلَّب على جمر فراش غدًا كتنُّورٍ ينفث اللهب، لا حلَّ له سوى أن يسحب نفسه كالعادة من السرير بهدوء حتى لا يوقظ زوجته رقية، ويرمي بنفسه في غرفة المكتب الباردة.

تمضي الساعات والساعات الآبقة كفرسٍ جامحة تحفر الجراح العميقة بحوافرها على جلد روحه، يخفف عبور الزمن الثقيل العابث بألمه بالتدخين النَّهِم، فاضت من جديد المرمدة حتى انتشر الرماد على المكتب، وغطت رائحتُه على كل الروائح، طال انتظاره ولم يخبُ إصراره، مرَّت سنة وبضعة أشهر، ولم يتصلوا به بعدُ، لكنه لم يفقد يقينه في كونه ظُلِم ظلمًا كبيرًا، وجار عليه «الجهاز» الذي يحسبه عائلتَه وقبيلتَه وسرَّ وجودِه، وظُلْم ذوي القربى أمرٌّ، وإن جاروا عليه فهم أهله ورهطه وعشيرته، هو مقطوع من شجرة، وعالم عمله كان كل دنياه، كان فرحه وأمله وفخره ومجده، فلا نسبَ له يفخر به غير زيِّه الرسمي الذي يرتديه في المناسبات الرسمية، ولا حسبَ له يعتدُّ به غير انتمائه لأسرة الجهاز الأمني، فحين أحالوه على المعاش مبكرًا جدًّا، شعر باليُتم من جديد، وصار بلا حسبٍ ولا نسبٍ، وتبعثرت حياته التي تمحورت كلها حول وظيفته، وبانتهائها ضاع كل شيء، وغدا كقارب صيد وسط عاصفة بحرية هوجاء تكسر أضلعَه الأمواجُ العاتية في لُجَّة عاتمة، بلا بوصلة ولا رؤية واضحة، ولا خرائط يهتدي بها إلى شطِّ الأمان.

ضائع هو في تِيه زمن الانتظار، والألم الجديد في دوامة الفراغ الذي يستدعي الآلام القديمة والأوجاع المتوارية في الروح، هناك لحظات

وأحداث في حياته لا تُنسى، تحضره وتعصره ألمًا ووجعًا، حينما كان منهمكًا في عمله الذي أخذ كلَّ طاقتِه وحيويتِه وزمنِه، لم يكن يفكر في ماضيه ولا في طفولته وصباه، فقد وجد نفسه فجأة شابًّا يافعًا، لكن الفراغَ قاتلٌ، يفتح بوابة الجحيم، ويستدعي الغابرَ والقديمَ.

بدأت المشاهد الغابرة التي خال أن النسيان طالها وعفا عليها الزمن والأحداث القديمة المتربِّصة بانفلاتٍ في اللاوعي حلمًا أو يقظةً تتناسل في عقله مختزِلةً الزمن في لحظات كلمح البصر رغم كثافتها، كذاك اليوم البعيد في طفولته، الذي ما زال طريًّا حارقًا في ذاكرته، حين أيقظوه عند الفجر بالميتم، وهو صبي لم يتجاوز العاشرة، سحبوه من سريره على حين غِرة، خطا متهالكًا بذُعرٍ في بهو مظلم موحش، لا يدري ماذا يقع، اختلط في عقلِه الصغيرِ الواقعُ بالخيالِ، خالَ نفسَه يحلم، حتى سمع صوتًا قاسيًا خشنًا يركله بغضب واستياء: «تحرك...! يا صعلوك...! أريد العودة للنوم، لن أنتظر طويلًا حتى تستفيق. أف...! سأدق رقبتك... آه...! يا رب...! أي ذنب اقترفتُ لأقضيَ عمري في هذا المكان العَفِن، بين هؤلاء الشياطين أبناء العاهرات؟!».

حينها أدرك أن الأمر جدِّي، وأن الذي سحبه من الفراش هو «الحلوف» كما يسميه أطفال الميتم سرًّا بينهم، لرائحته الكريهة، وقامته القصيرة مع سِمنة طافحة، وكرشه المتدلِّي ولعينيه الضيقتين الغائرتين وأنفه الضخم، ولزحيره الذي يشبه قُبَاعَ الخنزير، واسمه في الحقيقة بوشعيب العُوَّاي.

لم يكلفوا أنفسهم الضغط على الزر لإنارة الفضاء، فقد كان الأطفال يخافون ليلًا، ولا يجرؤون على الخروج أو فتح النوافذ على قِلَّتها، الميتم كئيب بارد. بناية قديمة متهالكة، كانت مقرًّا لهيئة الغابات والمياه في عهد الحماية الفرنسيَّة، تحيط به أشجار القيقب الحمراء التي نمت قُرب بِرَك مائية تكاد تغدو مستنقعاتٍ، والحشائش البرية والأحراج الممتدة، حيث ترتع الهوامُّ، والغربان والثعابين والأفاعي.

يعيد عقل صلاح حيران -بحيرةٍ وقلقٍ ومرغمًا بجاذبية ملء الفراغ- تشكيلَ مشهد ذاك الفجر الجريح، والألم الطري، يستدعي الآلام الغابرة، كوابل رصاص حام يتقاطر دويًّا وألمًا على جسده المنهك وروحه الجريحة، فيتذكر العتمة المخيفة، ويصيخ السمع لهنين الأطفال وصرير الجنادب ونقيق الضفادع وهفيف الريح، ودفات نوافذ متهالكة تتلاطم، يذكر أنه مشى متثاقلًا من رغبة ملحة غالبة في النوم ما فَتِئت تسري كسلًا في جسده، فَرَك عينيه، حدَّق وراءه، كأنه يودِّع رفاق الميتم، عشرات الأطفال الموزعين على أسِرَّة حديدية صدئة متهالكة، عمودية ثلاثية المراقد في مهجع مستطيل ذي نوافذ عالية أقرب إلى السقف بحواجز من قضبان صدئة.

تستعيد حاسة الشم لديه رائحة البول القوية، ويسمع كوابيس أقرانه، وهذيانهم ليلًا، ويستحضر نظرات بعضهم المتردِّدة وشعور بعضهم بالخزي والعار كلَّ صباح وقد بلَّلوا فراشهم بولًا.

لم يكن يدري ما يقع وأين يأخذونه، حين عمدوا إلى جَرِّه من فراشه، ثم أخذوه إلى قاعة الطعام، قدَّم له « الحلوف» لبنًا ساخنًا وكسرة خبز وبيضةً مسلوقةً، ووقف عند رأسه واجمًا يأمره بالأكل، ثم جاءت تلك المرأة السمينة القصيرة الستينية ذات الأنف المفلطح، الآنسة نعيمة التي يناديها الأطفال بـ«أمي نعيمة» بلباسها الأسود من قطعة واحدة كعباءة نسائية، تغطي شعرها بوشاح بني، ربتت على كتفه، وافتعلت ابتسامةً أو ربما ابتسمت دون زيف، وقالت له بحُنوّ: «يا صلاح...! يا بني...! لقد كبرت... أي نعم...! والله...! فعلا...! أنا نفسي لم أشعر بمرور السنين، حصلت على الشهادة الابتدائية، وأنا وكل الميتم فخورون بك، حان الوقت لتغادر الميتم إلى مكان آخر يليق بسنك وطموحك... أتفهمني...؟ لست سعيدة برحيلك... لكنها التعليمات والقوانين، ستعيش من اليوم في «دار الخيرية»... لا تحزن...! ليست بعيدة عنا... إنها أيضًا في مدينة الدار البيضاء، ستكون بين أترابك وأقرانك وتتابع دراستك، كن كما عهدتك مطيعًا... مسالمًا...

طيبًا، أريد أن أسمع عنك ما يفرحني، نعم... كل الخير. فأنا ربيتك منذ كنتَ رضيعًا...!».

يستحضر وجه «أمي نعيمة» العبوس -كان اسمها بين الأطفال سرًّا «الجنية»-حين ذرفت دمعًا ساخنًا، حتى سال مخاط أنفها، فمسحته بمنديلها الذي كان يهتز بين أصابعها المرتجفة، سوَّت نظارتيها، وظلَّت تُحملِق فيه. ربما أحبَّتْه رغم قساوتها، أحيانًا تضللنا التأويلات المسكونة بالهوس والتجليات المزيفة، فنصدر أحكامًا على مشاعر وأحاسيس غير مرئية، كم من علاقات جميلة واعدة أنهتها بجفاء قطعي تأويلاتٌ طائشةٌ، ربما كانت الآنسة نعيمة ذات ملامح واجمة، فهي عبوس بالطبع لا بالتكلُّف، قاسية الملامح، وقبيحة الجثة، كثيفة الحاجبين، كثيرة البثور المنتشرة على الوجه، لكنها قد تكون رقيقة المشاعر، رحيمة طيبة عطوفًا شفوقًا، مَن يدري...؟! فأفهام الأطفال تدرك الظاهر لا المجرد، قبل أن تنضج عواطفهم، فيميزون الخبيث من الطيب من الفعل والسلوك لا المظهر والتجلي الخارجي.

ما زال الميتم يسكن لاوعيَه، أحيانًا يشم رائحته في جلده، كلما لاذ بغرفة المكتب هربًا من سرير الأرق، تحضر أيام الميتم الحزينة والباردة فتزيد وجعَه، ظلت البرودة عالقةً بجلده والرطوبة النافذة ساكنة أنفاسه، كلما استرجع المهجع العَفِن والأسِرَّة النتنة والنوافذ الكئيبة ووجه الطباخة «طامو» المنتفخ كالعجين المختمر، الحزينة دومًا كأنها في حِدادٍ أبدي، والكلاب الشرسة التي تهر بلا سبب كلما دنا منها أحد، رغم ضمورها والتي لا تأكل حتى الشبع.

القُرُّ يُوتِّره، وحفيفُ الأشجار يُشعِل نارَ الرهبة في صدره فتسري رعشة في جسده، وما احتمل يومًا هزيز الريح ولا زفيفها وهي تهب بوتيرة منتظمة غير منقطعة، ينهض لعبورها عالم الخيالات المزعجة عبر أصوات الصرير والأزيز والصفق والعصف والقصف، وتداهمه تلك الصور القاتمة التي تجري في دمه كنارٍ تَأزُّها وتُؤجِّجها ذكريات الطفولة البعيدة الحارقة، ربما

لأن الشتاء كان أصعب من باقي الفصول في بناية باردة موحشة، تعبث فيها بين شقوق أبوابها وشروخ حيطانها التيارات الباردة، وتهب الرياح محدثة أصواتًا مخيفة بلا حاجز عابرة النوافذ المتهالكة والسقوف المهترئة.

كان للمهجع باب حديدي كبير ثقيل، حين يفتح يصدر صريرًا قويًّا... ما زال هذا الصرير يسمعه أحيانًا في أحلامه العابرة ويرى وجه الحلوف وابتسامة «الجنية» المزيفة، وتذمُّر «طامو» الطباخة التي كانت تردد دائمًا وهي توزع الطعام الذي لا يكفي أبدًا: «بطون لا تشبع، أف...!!! منكم...!».

نشأ صلاح حيران في ميتم كئيب بلا هوية ولا عاطفة إنسانية، تفوح في أجوائه رائحة البول والعفونة والخوف والجلافة، وتتجوَّل في فضاءاته وأرجائه ليلًا ظلال كوابيس الصغار، ويغدو ليله زمنًا خاصًّا بأشباح من نسج خيال وخوف الأطفال، وحكايات الحارس الحلوف الذي يُبدِع في ترويجها، ليهنأ بالنوم ليلًا، ويُجهِضَ كلَّ تفكير في محاولة للهرب ليلًا، وقد سكتت عن الأمر الآنسة نعيمة، فأشباح الليل حليفةٌ مجانية لها لضبط الميتم والتهديد بأشد عقاب يخافه الصغار وهو المبيت في غرفة معزولة قرب بوابة الميتم الحديدية الكبيرة التي تخترقها الريح فيختلط الصفير بالأزيز، والغرفة العقابية عند نهاية الممر المؤدي للخارج مجاورة لدورات المياه التي تنبعث منها الروائح القذرة وأصوات قطرات الصنابير المعطلة المخيفة والمثيرة للأعصاب، أصوات حادَّة متنوعة من تهالك القنوات وعبث الجرذان ليلًا بكل حرية، وحين ينقص الخبز، تزعم طامو الطباخة أن أهل الليل أخذوا منه ليلًا، ولا حيلةَ لها في الأمر، وعليها أن تترك لهم في المطبخ شيئًا من الطعام بدون ملح حتى تتقي شرَّهم وأذاهم، ولم يكن يعرج على مطبخها ليلًا غير الحارس الحلوف فيأكل ما يجد خفية، ولا يترك أثرًا.

وظل للميتم ذكراه الأليمة وحفرياته الصامدة ضد رياح الزمن على الجدران والحيطان المتسخة، مُخَرْبشات وآثار حَفر ونفش عميقة صامدة عكست أحزانًا وآلامًا كثيرةً خلدها خيال الصغار رسومًا فطريَّة وعبارات

متنافرةَ الحروفِ مبعثرةً كأرواحهم، بعض العابرين الصغار تركوا بصماتهم على خشب الأبواب والنوافذ والطاولات، كتابات ركيكة بحروف متنافرة، لكنها حالمة تهفو لمجرد عناقٍ دافئ، وقد خلَّفوا رسومات محفورةً بالألم تُفرج عن أحلام بسيطة، رسومات بيوتٍ بأبهَى الألوان الزاهية، والسماء صافية زرقاء، وأشجار سعيدة تراقص الطيور والفراشات، وفي الداخل أُسَر سعيدة... أب وأم وإخوة وحياة...

إلى «دار الخيرية» أخذوه ذاك الفجر المشهود، تركوه بدون وداعٍ بين يدي رجال أشداء، أدبر الحلوف عائدًا بصمت، دون أن يُودِّعه، كم تمنَّى أن يقول له شيئًا ما؟! كم تاقَ أن يلوح له من بعيد مودِّعًا؟! كم تمنَّى أن يضمَّه؟! لكنه لم يفعل، خطا بعيدًا، كأنه تخلَّص منه، أو كأنه سلَّم بضاعة وانتهى الأمر، وهو يحملق في وجهَيِ الرجلين اللذَيْن تكلَّفا بتسلُّمه، وهما يتعقبان الرجل القليل الكلام الذي أتى به مشيًا على الأقدام مسافة ساعة، وسلمهما أوراقَه دون أن ينبس بأدنى كلمة، وهما نفساهما لم يسألاه عن شيء، تحياتٌ عابرة على مَضَض، وانتهى الأمر، نقلة موجِعة ومؤلمة ومفصليَّة في حياة طفل، قطيعةٌ مع أُلفة فضاءٍ وأترابٍ وأجواء طفولة تمَّت بأقسى طريقة، كفطام الرضيع الذي ماتت أمه، وكان عليه أن يكبر بسرعة، أن يقفز على المراحل، أن ينضج قبل الوقت، ألا ينعم ويرتع في خيالات الصبا، لأنه مضطرٌّ أن يصير رجلًا ليعيش، لهذا لم يَبكِ ولم يصرخ، استسلم وتابع حياته.

تبناه الجهاز بعد حصوله على الباكالوريا بامتياز، تتبعوا عن كثب هذا الطفل القادر على التحمل والصمت والمنظم جدًّا كساعة دقيقة، لاحظوا قدرتَه على التكيف مع كل الظروف، لاحظوا قدرته على التحمل، لم يَشِ أبدًا بإخوته في دار الخيرية، رغم ولائه ووفائه لمديرها الذي وضع نفسَه في خدمته وخدمة أسرته، لم يكن واشيًا، ولم يكن أحد قادرًا على تجنيده ليكون عينًا له على حياة إخوته، لكنه كان مطيعًا لدرجة أن كل المسؤولين في دار الخيرية أحبوه وقدموه على غيره، ومع الطاعة كانت له مناقب

متعددة، لا يتكلم كثيرًا، ولا يخون زملاءه، ويجيد الصمت الطويل، لهذا قَلَّ خصومه، فالكلام الكثير يصنع العداوات، إلا مِن ضغينة في قلوبٍ قليلة تحسده على نعمة السَّبْق والتميُّز.

اختاروه ضمن مجموعة من أربعة أفراد، تفرَّقت بالآخرين السبُلُ، وهو التحق بمدرسة الشرطة، حينها بدأ مسارَه المهنيَّ وعُمرُه لم يتجاوز التاسعة عشرة، وصنع منه ما هو الآن، فهو لا يُعلم له أب ولا أم، الجهاز هو كل ما لديه، هو الأبوان والإخوة وكل الأُسْرة، وهو بَرٌّ به، لا يردُّ أمرًا، ولا يناقش تكليفًا بمهمة مهما كانت، شعاره الطاعة والانضباط، لهذا حافظ على ولائه وقَسَمه وشرفِه، فوظيفته التي عشقها حدَّ الجنون هي التي كانت تعطي لحياته طعمها وأسباب الاستمرار، خارج مقرات الجهاز لم يكن يجيد شيئًا آخر...

لهذا حين استغنوا عنه أعدموه، أصدروا في حقه حكمًا بالموت البطيء، أخرجوه من الدنيا نحو عالم لا يعرف العيش فيه، عالم كان يُقدِّره ويحترمه لصِفَته، وبدون صفة أمنية، ستنهار كل العلاقات، فهو الآن الحي الميت... ولا يعرف ما يفعل بأيامه الباقية؟!!

يعلو صوت أذان الفجر في الأجواء، متناغمًا مع زقزقة الطيور وهديل الحمام، وصياح الديوك في تناوب عجيب كأنهم على اتفاق، تصحو زوجته رقية، تتوجه متثاقلة بكسل وهي تتمطَّط نحو المطبخ، يصله صوتها مختلطًا بالتثاؤب :

— «صباح الخير... سأعدُّ لك فنجان قهوة...».

لا يردُّ عليها وينتظر ما تبقى من خطابها المعهود كل فجر:

— «هل نمتَ هذه الليلة...؟ يبدو أنك لم تنم... الشقة تختنق بالدخان... لستَ في حاجة إلى فنجان قهوة... سنفطر معًا أولًا...».

(3)

هذا حال صلاح حيران، تنهشه جوارح الأرق بمخالب تغرسها في الكبد والضلوع فتشعل نارَ الوجع ليلًا، وحين تخبو في لعبة قدره تُفسح الطريق لراحةٍ مزيفة تمنحه أملًا واهنًا فاترًا يَعبُر بين ركام دواخله المحطمة، روحه المتشظية وعقله الذي اختلت بوصلته يقاومان عبثًا إعصارَ سهادٍ جارفٍ لا يتعب ولا ييأس، يعبث بهما منتشيًا بعبثه ساخرًا من كل محاولة للصمود، ما أن يهدأ مؤقتًا عند الفجر، حتى يلقي بهما بين فكَّيْ طاحونة الأسئلة الشرسة التي تدور وتدور طوال النهار، فتطحن سلامَه الداخلي وتهشِّم كل طوقِ نجاةٍ ولو كان احتمالًا ممكنًا، وتحيل غبارًا كلَّ نزوعٍ نفسي نحو حبور ولو عابر.

رغم ذلك لم يستسلم بعدُ، ما زال يعصر سحابة الرجاء علَّها تمطر فتُحيِي فيه أرضَ التفاؤل والآمال المنتعشة بوميض يكاد يضيع في مساحات الانتظار المترامية الأطراف، وتثمر أشجار الوجود فاكهةَ الصمودِ والمقاومة، يُجدد أملَه كل فجر في العودة إلى مكتبه وملفاته العالقة بكل الفرضيات العقليَّة والواهمة، لا يُصدق أنهم تخلَّوْا عنه، أحيانًا يُمنِّي النفس بفرضيات غريبة، ويجول في خاطره ما يخفف وزر ألمه، ربما هو تحت المراقبة والتجريب لمهمة أكبر، وصبره وحيطته وتحفظه والحفاظ على مساحة بينه وبين المجتمع، وعدم الاختلاط بهم، ولا الجلوس في المقاهي، ولا استعمال وسائل النقل العمومية، كلها معايير ستُؤخذ بعين الاعتبار إن كانوا يراقبونه من بعيد من أجل مهمة أسمى وأكبر، نقطة قوته أنه لا يسكر، إلا حين تتطلب المهمة ولوج العلب الليلية والحانات

والخمارات والاختلاط مع السكارى، لمراقبة شخص معين، وإعداد تقرير حول نزواته ومحيطه وعاشقاته وأوكاره، وخليلاته وأدق التفاصيل عن شهواته وما يبوح به وهو ثمل، لكنه، ارتكب خطأً قاتلًا يوم أخبروه بنهاية الخدمة حين عرج على حانة وسَكِر حتى صار كالكلب... قد تُحسَب هذه الهفوة له لا ضدَّه، قد يُقدِّرونها إيجابًا، وتعلو علامة حبه وولائه للجهاز.

ربما أبعد عن وظيفته خطأ، هذا ما يعتقده على الأقل ويصر عليه، إن لم يكن يخضع لفترة إعادة تقويم لتأهيل جديد لمهمة كبيرة، لذلك ظل ينتظر بلهفة وأمل لا يفتران أن يرن الهاتف يومًا ما، ويتلقى أمرًا صارمًا بالالتحاق دون تأخر، سيعيدون له سلاحه وأصفاده وملفاته ومكتبه وشارته، سيصقلها ويلمعها ولو بلعابه كالعادة، وهو يمتع نظره برقمه الأمني البراق والشعار الذي يثمله التحديق فيه، جزمته السوداء بالسيور لم يفرط فيها رغم مرور أكثر من سنة، من حين لآخر يخرجها من رف الأحذية ويلمعها حتى يلمع بريقها، معطفه الطويل المهلهل وقبعته الواسعة، كلما فتح دولاب الملابس، خال نفسه يسمح شكواهما من الإهمال والجحود، كأنه يشعر بوحدتهم وحزنهم، يلمسهم بحنو بأصابع مرتعشة، وقلبه يعتصر، ويعدهم بجنون وغرابة هامسا أنهم قريبا سيخرجون إلى النور، وسيعود الزمن الجميل القريب، ليؤدوا وظيفتهم الراقية، على جسد ضابط أمني استخباراتي معروف بقدراته على حل الملفات الصعبة، وإيجاد مخارج ذكية لما يحرج الجهاز في قضايا خاصة جدا، ويؤدي لهما التحية بفخر واعتداد.

يردد في خاطره بنشوة عابرة «نعم... سيتصلون». لم يفقد الأمل حتى الآن... هذا ما يبدو عليه لحد الآن وهو يعد أيامه الرتيبة الثقيلة، يملأ أجواء شقته سحابات من دخان سجائر لا تكاد تغادر شفتيه، تفيض المرمدة بالأعقاب التي يدعسها دعسًا حتى تنبعج بين أصابعه، وأحيانا شارد الدهن يقمع عقبًا على سطح المكتب، فلا يفطن إلى الأمر رغم انبعاث رائحة احتراق خليط الصمغ والتبغ.

رقية زوجته تعلم أنه متعلق بوهم من ضباب يتلاشى يومًا عن يوم، لكنها تقول في نفسها حين يربو هوسه ويفيض منسوب التفاؤل في لغته: «العيش على الأمل خير من العيش فريسة لليأس، صناعة أمل أجدى للبقاء في ضوضاء الحياة، من الخروج من الحياة قبل الأوان» فتتفادى أي نقاش معه حول الموضوع، وإن كانت في قرارة نفسها تتمنى أن يضع حدًّا لهذا الانتظار، ويغير حياته ويقلب الصفحة، مقبلًا على الدنيا بعمل جديد، وحياة أخرى.

«سيتصلون يا رقية...! صدقيني...! لابد أن يكتشفوا أنهم أرسلوا الرجل الخطأ، أو ربما هم يراقبونني من بعيد، يدونون ردود فعل، يقيسون مدى ولائي وأنا خارج الخدمة، من يدري...؟ فربما يتناوبون على الحراسة في مكان ما قريب من العمارة، لكني رجل أمني استعلاماتي، لا بد أن أكتشفهم يومًا ما، لن يفعلوا بي، كم كونت من الشباب البليد في مكتبي، وعلمتهم أبجديات المراقبة اللصيقة دون أن تكشف. لن يكونوا على كل حال غير تلاميذي وطرقهم أعرفهم».

هذا ما تعودت سماعه منه، كلما غلبه التوتر وغدا يطقطق أصابعه، ويوقع بساقه إيقاع حركات رتيبة متتابعة، ويدخن بشراهة، وهو يذرع المكان ذهابًا وإيابًا في محاولة منه لقمع صوت آخر، يكاد يقول له في أعماقه: «انتهى كل شيء... لقد نسوك... انتهى الأمر يا صلاح حيران...! مزق المعطف الطويل...! أحرق القبعة...! تخلص من الجزمة اللامعة ذات رائحة شمع الصقل القوية، واخرج للدنيا...!».

كانت رقية تعلم أنه يخاطب نفسه من خلالها، لهذا كانت تظل صامتة، حتى يهدأ أو يرتمي في حضنها منتحبًا، وقلما كان يفعل ذلك في لحظة ضعف جارفة يعود ليشد لجامها، حين يفطن عقله إلى انهياره الذي لا يطيقه، ينتفض كالمذعور الذي شعر بحرقة كي حارق، مبتعدًا عنها وهو يجفف دموعه مُهَمْهِمًا يكاد لا يبين وقد اختلط دمعه بمخاطه: «لم أبك... نعم لم أبك... ولن أبكي مهما وقع... لست ضعيفًا... نعم... نعم... فقط

أنا حزين... حزين جدًّا... ما زلت قويًّا... قويًّا... فقط غلبني الشعور القاتل بالغبن، آه...! يا رقية...! الإحساس بالغبن مؤلم جدًّا... لا أدري ما أقول...! أحيانًا حتى الأقوياء يبكون... ألست على حق يا رقية...؟! ما العيب لو غلبت الدموع الجامحة الرجال الأشداء...؟! نعم... فأنا في نهاية المطاف إنسان من لحم وعظم... لست صخرة...».

تدنو منه رقية وقد لمع في عينيه بريق الشفقة والرحمة، تشبك أصابعها وأصابع يده عله يشعر بالأمان والسكينة وتقول بهدوء أقرب إلى الهمس:

« يا حبيبي...! البكاء عزاء وانتماء... عيون لا تدمع تخيف... والإنسانية ضعف وقوة، بكاء وضحك، ترح وفرح، انشراح وجراح، ضيق وشدة ثم فرج ونعمة، الإنسان هو كل هذه المفارقات العجيبة والجميلة التي تُؤَمِّن له طريق العبور السليم بين دروب حياة متغيرة دومًا وتتطلب عواطف مختلفة تليق بمواقف متعددة... العواطف صمامات أمان للروح ضد التشظي، تمتص الضربات القوية، البكاء ليس ضعفًا، البكاء بهاء وانتماء بهي ومشرف لبشريتك... من لا تدمع عيناه كائن مضطرب أو مريض، فحتى الجلادون والقتلة وعتاة المجرمين يبكون...نعم يبكون ولو في سرهم... العظماء يبكون ... قد يختفون أو يعتزلون الناس للبكاء ولكنهم يبكون، ابكِ...! علك تغسل روحك مما علق بها من جراح وندم... ابك... لست ضعيفًا... بل أنت الإنسان فحسب».

يداهمه الارتباك فيضطرب بجلاء حتى ترتعش شفتاه، ويهتز جفن عينه اليسرى توترًا، يحملق في وجه رقية ثم يمعن النظر فيها لحظة وهو يعذب سيجارة بين شفتيه ويمتص روحها امتصاصا تتوهج له هامتها توهجًا، وخاطره مشغول بحديث نفسي مؤلم: «هل سقطت في نظرها؟ ... ألم أعد فارسها القوي الذي لا تهده العواصف ويصمد في وجه كل الشدائد؟ ... أتغير رأيها في...؟! آه... لو كان بإمكاني أن أشد عنان انهياري، وأتحكم في ينابيع دمعي.... لكني فعلت ما يفعله حتى أشد الرجال بأسًا وقوة وعزمًا... لقد رأيت الملوك يبكون على قبور أحبتهم... ورأيت الأباطرة ينهارون وتغلبهم

الدموع من وجع الخيانة والخذلان... وأنا... أنا... رجل تمت خيانته ليلًا... أنا رجل يتجرع كأس مرارة الخذلان كل يوم ... فكيف لي ألا أبكي... الخيانة والخذلان تبكيان حتى الصخر».

لا تقولي لأحد: إني بكيت...! إن علموا ببكائي تضاءل كل أمل... لا يسمح لنا بالبكاء إلا ضمن خطة نحتاج فيها البكاء كجزء من العملية، لا يسمح لنا بالضعف إلا لإظهاره لنصب مصيدة عاطفية... لا تخبري حتى نفسك بالأمر، فقد غلبني البكاء خارج أي خطة».

في الأيام الأولى أخفى خبر توقفه عن العمل عن زوجته، رغم أنها كالنسمة حقًّا، وتستطيع أن تحمل عنه شيئًا مما يؤرقه ويفترس كبرياءه، فقد كانت تمنحه السكينة ببسمة صادقة وتدلك كتفيه حتى يسترخي، وتهدأ روحه، لم تشك في الأمر حين عاد باكرًا في ذاك اليوم الحزين، وتذرع بأن الإدارة منحته إجازة يومين، وبعد يومين لم يخرج من الشقة، وحين ألحت عليه في السؤال، بدأ يخرج صباحًا كمن يذهب إلى عمله، ويعود متعبًا، مدة شهر تقريبًا وهو يلعب الدور بإتقان وحرفية، دون كلل ولا تعب، حتى رأته يومًا صدفة جالسًا في حديقة عمومية، لم تقل له شيئًا، عادت للشقة وانتظرته، ما إن دخل حتى وجدها تنتظره على غير عادتها في الظلمة، وضع قبعته على المشجب، ساعدته على نزع معطفه، وحل سيور جزمته، وطفقت تسأله: «كيف كان اليوم يا صلاح حيران...؟». تردد في الرد لحظة ولم يعهد منها مثل هذه الأسئلة، أبعد نظراته عن نظراتها بعدما انتصبت واقفة تنتظر منه الجواب، فقال: «يوم صعب وشاق يا رقية...! كثرة الملفات والقضايا... البلد في خطر... الكل يحسدنا ويريد خرابنا، والحمقى في الداخل لا يعرفون حجم المؤامرة التي تهدد هذا البلد، الحمقى يوظفهم الأعداء والخصوم لإثارة الفوضى والفتن وزعزعة استقرار البلاد، يا رقية...! لولانا وحنكة الجهاز لضاعت منا البلد في مؤامرة يونيو/حزيران 1981، كادت الفوضى أن تعم البلاد، كادت أن تأتي على الأخضر واليابس من أجل قضية تافهة، الزيادة في ثمن رغيف

الخبز، كاد العاطلون والقرويون القادمون من البوادي أن يخربوا بلدًا تم بناؤه بالصبر والتضحيات والعرق والدم، لقد حرقوا السيارات والمقاهي وواجهات الأبناك والحافلات...الحمقى يحرقون ممتلكاتهم، الأوغاد...! شنقوا عنصرًا مسكينًا لا حول له ولا قوة من القوات المساعدة لا حول ولا قوة له... يسكن بينهم في غرفة على السطوح، لقد كانوا كالطوفان الأخرق يتجهون نحو الأحياء الراقية للتخريب والحرق، تحركهم مشاعر الحقد...ومن يدري... لو تركناهم لقتلوا الأثرياء والميسورين وأحرقوا كل مقرات الأبناك والإدارات...؟ إنها الفوضى... فقط الفوضى المخربة... وكان لا بد من ردع الفوضى بالقوة باستهداف المخربين... العنف لا يرد إلا بالعنف، على الأقل نحن الدولة، وعنفنا مشروع وله مبررات حفظ النظام العام وتأمين الناس في أنفسهم وممتلكاتهم، دورنا أن نضمن للناس الأمان... يا رقية...! السياسيون الذين يطمحون للكراسي يجعلون الشعوب حطبًا لصراعاتهم ثم يتنكرون لهم، سليني أنا... أعرفهم جيدًا... الساسة عابرون... والملكية هي الأصل والباقية... ماذا نحن بدون ملكية...؟! بلد تتوزعه السياسة والزعامات والأعراق والأهواء... والشعب عليه أن يحمي نفسه من هوس الحكم لدى بعض الساسة الانقلابيين، ويلتف حول الشرعية التاريخية والدينية في شخص الملك... الملك هو ضامن الوحدة والاستقرار... هم عابرون... منهم من له جنسية أجنبية، ما إن تشتد الأمور في الداخل حتى يحزم حقائبه ويطير نحو بلد آخر، والملكية باقية، لا وطن لها ثان غير المغرب... لا هوية لها غير بلدها، وعلينا أن نشد عليها بالنواجذ والأظافر، وهذا لن يكون إلا باستئصال المخربين والخونة... أفهمت...؟».

صمتت رقية يومذاك برهة مقطبة رأسها كأنها مترددة في القول، أخذت نفسًا عميقًا كأنها تستجمع قواها وترمم جرأة افتقدها زمنًا طويلًا، وقالت وهي تنظر بعيدًا في الأفق: «نعم... لكن...! الأمر ليس كما ترى، فقد كانت انتفاضة ضد الجوع والفقر والبطالة والقمع وليس ضد النظام، لقد

قهرت الناس سنوات الجفاف، وتردي الخدمات الاجتماعية، والتضييق على الحريات قمعًا وقهرًا، خرجوا بكل عفوية وقد ضاقوا ذرعًا بشظف الحياة وضيق ذات اليد، مات الكثيرون ذاك اليوم الأسود، بل سقط حتى الأطفال الأبرياء... لمجرد أنهم كانوا يلعبون في الأزقة، لم يجيشهم لا ساسة ولا زعماء، غضب الفقراء والعاطلون عندما صحوا على زيادة في الأسعار في ظرف حساس جدًّا... جفاف أرهق الفلاحين واستنزف ما ادخروه، بطالة عميقة هزت أركان البيوت المغربية، برنامج إعادة الهيكلة الاقتصادية وتقليص ميزانيات الصحة والتعليم ومناصب الشغل والدعم الاجتماعي، تنفيذًا لإملاءات صندوق النقد الدولي... كلها عوامل أدت إلى انتفاضة يونيو/حزيران.. لا... يا صلاح حيران...! كانت انتفاضة الجوع والبطالة والكرامة... ما من مؤامرة ولا تدخل أجنبي ولا... ولا أي شيء من هذه المبررات الواهية، إنه الجوع والفقر... والتضييق على الحريات...».

تسمر في مكانه كأن على رأسه الطير من ذهول وعجب مما سمع، رشح جسده عرقًا من وقع ما قالت رقية، تغيرت ملامح وجهه وهو يلوي شفتيه غيظًا، وجنح تفكيره نحو أسئلة حارقة : «أهي رقية زوجته من يتحدث أم مناضلة سبق له استجوابها في دهاليز الجهاز...؟ إنها تتكلم مثلهم، بل المصيبة تفكر كما يفكرون، آه...! إنها العدوى الاشتراكية، وصلت لبيته في غفلة منه... « أحس باختناق يطوق رقبته، فك ربطة عنقه، امتقع لونه، تجعدت جبهته صرخ في وجهها منتفضًا مزمجرًا حتى أزبدت زوايا فمه: «ماذا تقولين يا حمقاء...؟! كأنني في المكتب أستنطق إحدى عاهراتهم، اللغة نفسها، والنبرة نفسها... هل جننت...؟! أتكونين منتمية للمعارضة ولا أدري...؟! أي جوع هذا ومزابلنا مليئة بالطعام، والخبز نجده على قارعة الطريق، بل إنها الشبعة التي فتحت عيونهم على أشياء أخرى، لو كانوا جوعى ما كانت لهم القوة للتخريب... لو كانوا جوعى لتلهوا بصرير بطونهم... أقول لك : إنهم خربوا وأشعلوا النار في المقرات الحكومية، وتقولين لي: الجوع، هل الجائع يحرق مطبخه، ويقتل بقرته الوحيدة؟!».

ضج المكان بقهقهتها وهي تقول بسخرية استفزته لم يعهدها فيها ولا منها: «وهل من حقك أن تمنعني من خياراتي السياسيَّة كونك في الأمن...؟ ارتحْ...! يا صلاح حيران...! أنا فقط أفكر معك بصوت مسموع، وبالمناسبة... هكذا تفكر الأغلبية، لم تكن الانتفاضة سياسيَّة... كانت اجتماعية مطلبها الخبز والعمل والكرامة... وليس هناك من مؤامرة...».

جاش صدره غيظًا، تهالك غضبًا وذهولًا على الأريكة، وضع رأسه بين يديه، وجال في خاطره هاجس مؤلم: «أتكون هي سبب إنهاء خدمتي...؟ أعلموا كيف تفكر وكيف ترى الأمور خلافًا لرؤيتي...؟ هذا احتمال وارد... أأجروا بحثًا سريًّا عنها...؟ لا...لا أظن.... فهي قليلة الكلام... من يدري ما تقوله في المدرسة حيث تشتغل...؟ فالنساء تحب الثرثرة، ومنهن جمعت معلومات قيمية عن نشاط أزواجهن، لقد أحببتها لخصلتين؛ قليلة الكلام وكتومة، بل لخصلة أخرى، لا تهتم بالتفاصيل، والحقيقة أنني لأول مرة أسمع منها رأيها سياسيًّا... لا مصلحة لها في الكذب علي... أتكون صادقة...؟!».

انتصب واقفًا يزحر غيظًا، يعَض شفته السفلى قمعًا لغضب طافح، ذرع المكان بتوتر جيئة وذهابًا، وقد يعقد يديه وراء ظهره، ونظراته تتطاير شررًا، فجأة صاح مزمجرًا جاحظ العينين: «لا أريد أن أسمع منك هذا الكلام... أعلم أنك لا تفكرين هكذا... نعم... اعلمي أن هذا كلام جرائد المعارضة، حذار من كلامهم، إنهم يكذبون، يزيفون الحقائق، لم يسقط ذاك العدد الذي روجوه، كانوا بضعة جرحى، ونحن كنا في حرب للحفاظ على الدولة، ولكل حرب خسائر غير متوقعة، وقد عادت الأمور إلى نصابها، وحمينا البلاد من الضياع، من الفوضويين والمخربين والخونة والمتآمرين الذين يطمحون في قلب النظام والسيطرة على الحكم بالكذب على الشعب وجعله رهينة في صراعاتهم الخسيسة..».

أحست رقية أن كل سجال مع زوجها لن يكون ذا فائدة ولن يغير صلاح حيران رأيه، وبعض الفكر الراسخ يصير عقيدة مقدسة، تعمي

الأبصار وتغيب العقول، ويغدو أمر النقاش فيها شاقًّا ومتعبًا، وقد تكون نتائجه وخيمة، كالعنف والقهر؛ لأن ما يردده زوجها ليس مجرد فكر فحسب، بل صار أقوى من العقيدة تسري في دمه حد الموت من أجلها، ورجال الأمن الاستخباراتيون قلما يغيرون ولاءاتهم، بل لا يغيرون أبدًا ولاءهم، وحز في قلبها أن ينعت المناضلات بذاك الوصف الفاحش، وهي تعرف الكثير منهن ممن ضحين بالغالي والنفيس من أجل قضايا عادلة، كالحرية والمساواة والكرامة وحرية التعبير، وبمكر أرادت رد الصاع صاعين، وضربه في مقتل، فقالت وقد رسمت ابتسامة ساخرة على شفتيها: «على الأقل قل الحقيقة، هناك شيء ما حدث لك، أعلم أنك حين تغادر الشقة، لا تذهب للعمل، تظل تجوب الشوارع حتى المساء، رأيتك اليوم في حديقة «الأمم المتحددة»... ماذا وقع...؟ هل ضبطوك في قضية فساد أو رشوة أو تجاوزات... قل لي...بح لي بالحقيقة...».

لم يرد عليها، اختفى في مكتبه، وفي اليوم الموالي وجد نفسه يحكي لها ما وقع، مطرِق الجبين يأكله العار من الداخل، قدم لها فرضية الخطأ وأنه ينتظر أن يفطنوا للأمر، وقدم احتمالًا آخر كونه تحت المراقبة وهو تحت الضغط، ويريدون قياس مدى ولائه وتحفظه، ربما لمهمة أسمى وأكبر. لهذا لم يفقد الأمل... وسيظل ينتظر.

ولأنه زوجها وحبيبها، لم تجهر بعمق تفكيرها، حتى لا تحبطه، بل ابتسمت في وجهه وضمته مرددة: «لا عليك يا حبيبي...! سنتجاوز المحنة معًا، سأنتظر معك، فإن لم يكن شيء مما تفكر، فعلينا أن نجد حلًّا، فما زلتَ في أوج قوتك وعطائك، ستحتفل في الصيف القادم بعيد ميلادك الثالث والأربعين، وعلينا معًا أن نتخذ قرارات حاسمة... لا تنسَ أنك نسيت عيد ميلادي منذ أسبوع، لقد بلغت الأربعين يا صلاح حيران...!».

شعر بالخجل، رسم على جبهتها قبلة اعتذار، تفهمته وهمست في أذنه: «لا تفقد الأمل...! معهم أو مع غيرهم... الحياة متعددة الأبواب والمخارج

والطرق والدروب، لا ترهن نفسك على باب أغلقه صاحبه في وجهك...! توجه إلى صاحب الباب الكبير...! الذي بيده كل المفاتيح والحلول والأقدار... ربك...!».

(4)

ربما هو لا يعلم أن الأمل المزيف يقتل بسمومه البطيئة مع الزمن نشوة الحياة... لكنه يصر بغرابة على أن يخفف عن نفسه وزر الفراغ بما يصنعه في خاطره من مبررات «سيطلبونه في مهمة خاصة... هم يعرفون من هو... يعرفون... قدراته وفطنته وذكاءه».

وتتوالى الأيام تلو الأيام، وشجرة التفاؤل طفقت تحركها بقوة ريح الشك، فتتساقط أوراقها تباعًا، طفق التوجس والشك يعبثان بظل أمله، هو لا ينام، أو قد يغفو ساعة أو أقل، لكنه مصر على قشة الأمل، من يدري قد يطلبونه ليلًا ولا يفطن لرنين الهاتف، ربما تخلوا عنه، فهم لم يتصلوا منذ سنة، لم يستوعب بعد أنهم فعلًا أحالوه على التقاعد مطلع عام 1982، لهذا ما زال يعتقد أنهم سيصححون الوضع، سيكتشفون الثغرة، سيعلمون أنه رقمٌ مهم لا غنى عنه في المصلحة.

بعد أشهر من مغادرته المصلحة بتلك الطريقة المذلة والباردة، شعر بالجحود والنكران، والحقيقة أنه يعلم أن الجهاز لا قلب له، الجهاز آلة كبيرة تطحن ويتكلف أمثاله بالتخلص من الباقي، هذه الآلة الوحشية الضارية، وإن لا شكل لها ولا أثر، نفسها قد تطحن رجالها ونساءها، إن دعت الضرورة من أجل المصلحة العليا، وتقديمهم أكباش فداء ليستمر الجهاز، فالجهاز لا يخطئ ولكن الأفراد متحمسون أكثر من النظام، وقد يقترفون البشاعات، ويُستغنى عنهم، لأخطاء يتحملونها ويتبرأ الجهاز منهم...

بدأ يتآكل من الداخل، فحين تغادر زوجته رقية الجميلة في تنورتها الواسعة الشقة، متجهة لعملها، يخنقه الفراغ والوحدة، يستعين

بالتلفزيون الذي لا يقدم له الكثير من المتعة، يميل أكثر إلى المذياع، ويبحر بين مختلف الإذاعات الدولية الإخبارية شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، ينسى نفسه أحيانًا فينخرط في تدوين المعطيات والمعلومات كلما جاء ذكر المغرب في قصاصة إخبارية، ثم يجلس إلى مكتبه في غرفة النوم، ويحرر تقريرًا مركبًا عن كل المعلومات الإعلامية والخبرية، لا يهم نوعها ولا مضمونها، المهم أن يملأ الخطاطة بدقة، وهي مكونة من خانات موزعة على جدول يضم خانة التاريخ، وخانة الزمن، وخانة خاصة بجهة الخبر، وخانة لملخص الخبر، وخانة لمكان الخبر، خانة خاصة بأطراف الخبر، ثم خانة واسعة بالتقدير الأمني للخبر، وتحت الجدول عبارة عن معلومات إضافية مفتوحة على اجتهاد المقرر.

ويوقع التقرير، مذيلًا بعبارة «للاختصاص»، وحين يضعه في ظرف ويحكم إغلاقه بالشمع الأحمر، يلوح به بفرح كأنه صبي فرح بنتيجة امتحان، يظل يلوح به، ثم يرقص رقصة دائرية، كأنه في ثمالة مدندنًا، وحين يتوقف، يوزع النظر يمنة ويسارًا، ويمعن النظر في السقف، يجد نفسه في ورطة غريبة، الظرف بين يديه، لكنه لم يعد بإمكانه وضعه في رف المصلحة الخاصَّة بجمع المعلومات الإعلامية، فيصحو من لعبته الحالمة، وتشده جاذبية الحقيقة المرة إلى أرض الواقع حيث لا مصلحة ولا جهاز ولا أسرار ولا معلومات، بل فقط هو في شقته الفارغة، في هذا الخريف الموحش الحزين، يصله صوت رذاذ المطر وهو يغسل زجاج النافذة المطلة على الساحل، تهب ريح خفيفة لكن تحمل معها رائحة التراب المبلل، ونسائم البحر، يضع رأسه بين يديه وهو جالس على حافة السرير، يغالب شعورًا بالغثيان، يرغب في البكاء، يصب جام غضب صامت على المسؤولين الذين يأخذون البلد إلى الهاوية، فالبلد محتاجة لرجل مثله بمكره وذكائه وولائه، وكلما تخلوا عن أمثاله فتحوا جبهة للأعداء من يساريين وشيوعيين وإسلاميين، الكل متربص بالحكم، هو وحده وأمثاله يعرفون كيف

يجهضون مخططاتهم، بل يعرفون كيف يحولون أحلامهم إلى كوابيس، على يده تاب الكثير منهم وصاروا مواطنين صالحين، أنشؤوا أسرًا وتناسلوا وصمتوا..

يتحول هفيف الريح إلى هزيم قوي فجأة، فتضطرب السماء وتنتشر فيها غيوم رمادية ثقيلة، بروق متتابعة تجلد الأجواء بالرهبة والوحشة، تعاضدها قعقعة مخيفة للرعود المتوالية، يشعر صلاح حيران بخوف لم يخبره قبل، يمد يده إلى الظرف الذي تلاعبت به الريح التي اقتحمت الغرفة، يتطاير هنا وهناك، وهو يتعقبه بنظرات مرتعشة خوفًا أن يحمله الريح بعيدًا خارج الشقة، تهدأ الأجواء المضطربة، على هطول قوي لوابل المطر، يحط الظرف قرب المدفأة، يمد يده إليه، نَفَس أخير من هبوبٍ عابرٍ تحمله بين الجمر، يقبع صلاح حيران الغفير في مكانه، وقد داهمه إعياء وشعر بنَفَسه يتقطع، يتابع مشهد تحول الظرف إلى رماد، فشعر براحة غريبة، وهو يتخلص من الظرف الذي لا أحد يطلبه، فضحك بطريقة هستيرية اختلطت بالدموع، تمدَّد على السرير ودلَّى ساقيه على حافته، أخذ نفسًا عميقًا، وغاص في ذكرياته القديمة، يحفر في مناجمها طريقًا نحو خيال يسعده، فحضرت كل الصور القديمة، فقط جثث كالظلال تنهض من حيث لا يدري، وتظل تحدق فيه بعيون حزينة، ينتفض خوفًا، يهرع إلى الحمام، يغلبه القيء، يلتفت وراءه كأنه يخشى أن تتعقبه تلك الجثث الحزينة، يقاوم ذعرَه، يستلقي على قفاه تكاد أنفاسه تنقطع، يغفو من وهن نفسي حين تنسحب أشباحه مؤقتًا.

في المساء فتحت رقية معه الموضوع من جديد، أرادت أن تضع حدًّا لهذا الوضع المؤلم لهما معًا، تحاصره بالأسئلة الحارقة والمحرجة وتقول له بحنو: «يا صلاح... انتهى الأمر...!».

يكرر الخطابَ نفسه وبغرور ونرجسية وثقة غامرة أنهم وقعوا في خطأ ما حتمًا، واختلطت الملفات على مكتبٍ ما، ربما لم ينتبه موظف مصلحة التوجيه، ربما تشابه في الأسماء، خلل في دراسة الملفات.

تصر وتؤكد والدموع تغلبها: «يا صلاح...! أنت أدرى بهم، إنهم لا يُخطئون... انسَ الأمرَ ودعنا نفكِّر في الغد... دعنا نبني مستقبلًا بعيدًا عنهم... لقد انتهى كل شيء... وأبواب الله عديدة...!».

مرتبكا باضطراب وحرج واضحَيْن، تهتزُّ شفتاه، يضع كفَّه على شفتيها، يمازحها مواريًا حَرَجَه وجُرحَه: «يا رقية...! أملَلْتِ من وجودي بالبيت...؟!».

فتبتسم في وجهه وتقول وهي تضع رأسها على صدره: «يا صلاح...! أنت زوجي وحبيبي وكل حياتي... كيف أملُّ منك اليوم وقد كنتَ كثير السفر أنتظرُكَ بشوقٍ، وأحسب كل خطو على السلالم خطوك!».

يعبث بشعرها الفاحم الحريري، ويقول بحزن لم يقدر على إخفائه وهو ينظر في الأفق:

«وهل لمثلي بصمة خطو...؟ أنا لا صوت ولا أثر لخطواتي... كالقط البري».

هي تعرف أن لا صوت لخطواته ولا أثر لعبوره، ولكنه لا يعرف أنه حين يرتقي السلم عائدًا من سفر، تشعر به بقلبها وروحها قبل أن يلج الشقة.

في دواخله العميقة يشعر أنهم خانوه، يشعر أنهم مصُّوا دمه، وأكلوا لحمه ورموا عظامه للكلاب، فقد كان ينتظر ترقيةً... اعترافًا له بما قام به في قمع انتفاضة الدار البيضاء يونيو/حزيران 1981، لقد أشرف بنفسه على دفن القتلى الذين سقطوا تحت وابل الرصاص في الشوارع بتكنة «الوقاية المدنية» بالصخور السوداء، وحرق الوثائق والأرشيف، وبدَّد الأدلة، ومحا كل ما يمكن أن يؤدي إلى هوية الضحايا، محاهم من الوجود، كأنهم لم يكونوا، فجاءه قرار الإحالة على المعاش المبكر، هكذا جازوه، بأحقر طريقةٍ، فإحالة ضابط أمن على المعاش المبكر عقابٌ مريرٌ لا تكريم، فماذا فعل ليتخلَّصوا منه بهذه الطريقة المذلة، مدَّعين أنهم قدموا له خدمة العمر..؟!

الأمني حين يُحال على التقاعد، يموت في اليوم الثاني، هكذا كان يُردِّد زملاؤه الضباط، لهذا كانوا يطلبون التمديد لهم بعد بلوغهم سن المعاش،

يخافون من الفراغ، ومن الحياة العادية، ومن الفضاءات العامَّة، فهم يعلمون أنهم سيفقدون كثيرًا من الأصدقاء في اليوم الأول من انتهاء الخدمة، ستتغير علاقتهم بالنادل والجار والزبال وسائقي سيارات الأجرة والبقال والخضار والجزار، سيغدون أقلَّ شأنًا، سيفقدون هيبة الجهاز التي تجعلهم محترمين جدًّا، مُهابِي الجانب، مُقدَّمين على الكل، يُكرَمون أينما حلُّوا، وترفع لهم الأنخاب، لكن بانتهاء الخدمة، تتغير حياتهم رأسًا على عقب، يتفرَّق الصحب من حولهم، فيقتلهم الضجر والوحدة والجحود، يكتشفون فجأة ألا صحبة لهم حقيقية، أنهم عاشوا حياةً مزيَّفة العواطف والمشاعر والعلاقات، فمن صاحبوهم صاحبوا الأمني وليس الإنسان، يجلسون وحدهم في المقاهي بعدما كانوا محاطين بكل توقير واحترام من صاحب المقهى إلى الزبائن، الكل يتسابق ليؤدِّي عنهم، في الحانات والمقاهي والمطاعم، وهو ما زال يَعقِد الأمل على أن ينتبهوا لحالته الخاصَّة، فلقد كتب خطابات متعدِّدة طالبًا استئناف عمله، مذكِّرًا بالخطأ الذي يظن أن الجهاز وقع فيه، فحتمًا ليس هو المعني بالقرار، وفي كل خطاب يُعدِّد مهامَّه ومناقبَه وخدماتِه، ولأنه مُلزَم بواجب التحفظ وحفظ السر المهني، فإنه كان لا يخوض في التفاصيل، لكن لا جواب وصلَه، ورغم ذلك ظل حريصًا على تفقُّد الهاتف، ظنًّا منه أن اتصالًا قريبًا سيحصل يومًا، فيتفقَّد حرارة الهاتف أكثر من مرة في اليوم، ويغير الخيوط والأسلاك وإن لم يكن بها عيب، يعيد تركيب القوابس، يرفع السماعة ويضعها أكثر من مرة، يتفحصها بدقةٍ وهوسٍ مرارًا وتكرارًا..

توالت نوبات الذعْر تطلب زمنها بإلحاح، فبينما كان يتفقد خطوط الهاتف والكابس على عادته، انتابه دوار أوشك أن يُسقطه أرضًا، يضيق الهواء في صدره، ويرتعش قلبه كعصفور بري وُضع توًّا في قفص ضيق محاط بصِبيَة يروعونه ضحكًا وضجيجًا، ينبض الروع نبضات سريعة قوية، يشعر أن صدره يهتز اهتزازًا كطبل يقرع بشدة دون رحمة، يكاد يظن

أن مَنْ حوله يسمع دقات قلبه العالية، تخور قواه، وساقاه غدتا رخوتين، ينهار متهالكًا بضعف على أريكة قرب الشرفة، يتصبب عرقًا طافحًا باردًا، يمتقع لون وجهه، يحاول التحكم في هذا الذعر الذي يداهمه كموجة عاصفة بحرية مباغتة، فتغدو عقله كمركب تتقاذفه الأمواج العاتية في لجة صاخبة، تتمزق أشرعته وتنهار سواريه، تجن بوصلة العقل، لا شمال واضح، ولا جنوب محدد، تختلط الخرائط وتتشابه الأشياء والظلال، يصير الكون كتلة واحدة من الضباب والعتمة، يعلم أن نوبة ذعر مزيف عابر عربيد طائش في إغارة غادرة على شوارع عقله ووجدانه، يعلم أن الأمر لا يعدو كونه حالة نفسية أو عصبية خارج التحكم، وعليه ألا يخاف، وألا يقلق، يعلم أنه ذعر ماكر، يسافر من حيث لا يعلم من حينٍ لآخر ليبعثر عالمه، ليخلط الأوراق، يعلم أنه غير قاتل وإن كان يحمل معها رعشة الموت... ورغم ذلك وفي مفارقة قاتلة، يشعر أن الموت محدق به، وأن روحه قد تتسرب من أنفاسه الضيقة في أي لحظة.

يعلم أن ما يشعر به شبه خاطر أو طائف عدتهما الهوس جبانين ومزيفين يستعيران وجه الموت، وعليه أن يهدأ... فقط أن يهدأ حتى يتلاشى هذا الذعر مع الوقت، لكن المعرفة والوعي بهذه الحالة الخانقة للحياة والسكينة والمربكة للوجود غير كافيين، هيهات...فعقله الذي يعي حالته المرضية، هو نفسه الذي يتخلى عنه، في العقل الداء، وفي الوعي الدواء... ولا سبيل للوعي للدواء، فيتمدد ظلام في عز النهار بظلاله المخيفة يسكن أفق الرؤية والمدى، شمس الضحى تمد أصابعها لتعزف على الستائر الناعمة نشيدًا خريفيًّا دافئًا، لكن ظلمة النفس والأنفاس والأجواء تجهض عرسها اليومي.

هو الساعة بلا ريب، يدرك أن الكآبة العنيدة المزمنة التي أصابته عقب إنهاء خدماته، أعلنت زمنها من جديد، كآبة يسبقها الذعر الغادر، المتربص به، كآبة عميقة تحفر في الروح والجسد، لم تروضها لا وصفات الأطباء ولا جلسات الاستشفاء النفسي، يرغب في الصراخ والبكاء، وهل

مثله يبكي...؟! يقاوم ما لا يقاوم، ويتجلد ليطيق ما لا يطاق... الجسد كقصبة في مهب الريح، يعب الماء عبًّا حتى يندلق على نحره، تضيف منافذ التنفس في صدره فغلبه سعال من اختناق شديد، يفكر في هواء البحر الذي يخترق الشقة من الشرفة، يخطو نحوها، ثم يتوقف متوجسًا، وقد جال في خاطره ما يمنعه حتى كاد يغمى عليه: «ماذا لو رآني أولئك الأوغاد على الشرفة ضعيفًا أتلمس جرعة هواء...؟ ماذا لو رأوا كل هذا الضعف في نظراتي وأنفاسي وعرقي وانهياري...؟ لا... لا... لن أمنحهم فرصة العمر، حتمًا هم متربصون، ينتظرون مثل هذه اللحظة، أعرفهم جميعًا، يفرحهم الضعف البشري، يسعدهم السقوط المدوي... وأنا لن أسقط... تبًّا لكل الشرفات... تبًّا لتلك البيوت المتراصة والمتلاصقة...! تبًّا لكل المصاطب العفنة والعتبات النتنة، حيث تجلس العجائز طول اليوم، يقتلهن الملل، وينشغلن بحياة الآخرين ليبقين حيات...! تبًّا...! لكل الشيوخ المتحلقين على ناصية الطريق، يقلبون عيونهم يمينًا ويسارًا... يكررون أيامهم البئيسة، يتعقبون كل عجيزة وفي أياديهم تتأرجح حبات «السبحات»، منافقون... مزيفون... يتسابقون كالحمقى نحو الجامع عند ارتفاع صوت الأذان... تبًّا لهم...!».

تتلاشى الألوان المختلفة والمتنوعة من حوله، وحده الرمادي يمتد، ويطلق عنان وحوشه المخيفة، تحرضه عتمة الوجدان وديجور المشاعر ليسطو على كل منفذ ضوء، تتربص بالعقل عقبان تحلق في دوائر تتعقب رائحة الموت، ما من شيء يحتضر الآن غير حمائم الأمل، ما من حليف في هذا الجحيم له سوى الكتمان والأنين الكتيم... هل ينادي على زوجه رقية...؟ هل يرفع الراية البيضاء ويعلن الهزيمة ويطلب سند الزوجة...؟ وهل يليق بمثله أن يعلن الهزيمة...؟ مثله يموت في ساحة الحرب وتقتات من جثثه الجوارح ولا يرفع الراية البيضاء، وهو لا يريدها أن ترى ضعفه ولا دموعه، آه...! كل مجده في قوته وصلابته، ماذا سيتبقى منه لو انهار كبرياؤه، وهي تحب فيه القوة والصلابة وعزة النفس...؟! لكن... ما

العمل...؟ الألم لا يطاق، كأن الفضاء يزحف نحوه بجدرانه الصاخبة لتنهشه نهشًا، منذ أيام ونوبات الذعر تتوالى جامحةً بريَّة كفرسٍ يزيد جموحَها كلُّ محاولة ترويض، استقوت عليه بالفراغ والإحساس القاتل بالتفاهة والحيف.

وسط اعتصاره وإعصار نوبات الذعر المتجددة تسلل إلى عقله مشهد آخر يوم في العمل... يستحضر يوم طلبه الرئيس مبتسمًا بزيف مفضوح، الرؤساء لا يبتسمون إلا حين يريدون تسمية الأشياء بغير أسمائها، سلمه ظرفًا به مبلغ مالي من صندوق الدعم الاجتماعي، لم يجرؤ يومًا على الجلوس دون أن يأذن له الرئيس، لكن الأرض دارت تحت قدميه يومذاك، فهوى على الكرسي الجلدي البارد جدًّا، كان المكان عاتمًا، إلا من ضوء مصباح شاحب في ركن رطب، الزمن كان صبحًا، لكنهم لا يفتحون النوافذ أبدًا، لا يفتحون أي شيء، لا يكشفون أي شيء، من سيحرق كل الملفات المتراكمة في الفرن الخاص في الطابق تحت الأرض؟ لم يسبق لأي وثيقة أن تسربت، كل المنافذ مغلقة، لا تيار هواء يبعثر الأوراق، ولا أدنى نسمة تبدد الرماد، كان يتقن العملية بكفاءة عالية، ما زالت ابتسامة رئيسه الصفراء راسخة في عقله...

يزداد اختناقًا وذعرًا اللحظة... لقد قتلوه يوم حرموه من العمل الذي يتقنه... ينتابه الغثيان... مغص عابر في معدته... يلعن الرئيس... وزملاءه الذين أتوا له بقالب حلوى، ورئيس مصلحة الدعم الاجتماعي الذي أدرجه في صدارة اللائحة الخاصَّة بالمرشحين للحج على حساب الصندوق، يذكر أنه وهو في طريق العودة، ركن سيارته، وتاه بين الدروب، حتى وجد ضالته في حانة رخيصة، حدث الساقي طويلًا، بكى فواساه أحدهم، وهو يربت على كتفه، وحين نظر إليه، اكتشف أنه زميل له في العمل، كان يشير إليه بإصبعه على فمه بالصمت... الصمت... جرَّةُ من الحانة، أخذه إلى بهو العمارة حيث يقطن وتركه وهو يهمس في أذنه: «الصمت... فكِّر في غسل عظامك بحجة مباركة...

يودون إرساله للحج من أموال صندوق أسود داخلي لا يعرفه غير الجهاز، كان هو نفسه يمر على الحانات، والعلب الليلية، ومحلات بيع الخمور، والمواخير ليتلقى تلك الأظرف المغلقة، التي تغطي بعض نفقات ومصاريف الجهاز كتعويضات المخبرين والمخبرات.

في قمة الذعر والخوف، يبتسم وفي خاطره، يردد: «هو ضروري للجهاز... لا بد أن يدركوا قيمته، فرئيسه كم ردَّدَ وهو يربت على كتفه كثيرًا ويقول له: يا صلاح حيران...! أنت عنصر لا يعوض... الجهاز في حاجة إليك... ونحن ممتنون لك... لهذا سيتصلون به يومًا ما، وعقله دائمًا معلق بالهاتف... يومًا ما سيرن... وحينها... سيعود إلى عمله في الجهاز. مَنْ منهم يجيد المراقبة اللصيقة دون أن يكشف لأيام أحسن منه وباعترافهم جميعًا...؟ من منهم يورط أعداء النظام في قضايا مشبوهة ويأتي بهم صاغرين أذلاء مستعدين للخدمة...؟ هو فقط كان قادرًا على توظيف دهائه ومكره في أحلك الفترات».

يزداد شعورًا بالاختناق، وحوله تسودُّ الدنيا، وتغدو الظلال القاتمة كائنات مخيفة تزحف نحو روحه، ربما هو يموت... ربما القلب تنهار وظائفه، يشعر أن النبض قد ينخفض بسرعة، لم يعد يسمع دقاته بتلك الوتيرة المألوفة، يحس ببرودة في أطرافه، كأن حرارة جسمه تنخفض رويدًا رويدًا... هل هي لحظة الموت وهو لا يدري...؟

هل هو الموت... هكذا يأتي...؟ وكيف يعرف ولم يسبق له أن جرَّبَ الموت...؟ لكنه رآه مئات المرات في مواقف ومشاهد تمنَّى أن تتبدد من الذاكرة، إنه يعرف الحياة حين تغادر الجسد، حين تغدو الجثة مجرد شيء يجب التخلص منه سريعًا قبل أن تتعفن... إنه يجيد التخلص من أثر الموت قبل أن تصير العفونة شهادةً على موت مريب... تلك مهمة أتقنها لسنوات.

يسترجع أنفاسه، يقاوم فكرة الموت، يستحضر كل نوبات الذعر التي عاشها، وتغلب عليها، سبق له أن زار الطيب تحت إلحاح رقية، تناول

الدواء فترة ثم رماه في رفٍّ ونسي أمر نوبة الذعر، وقرر ألا يتناول أي دواء، أن يتخلص من مضادات الاكتئاب التي تجفف لعابه، وتربك حياته الجنسية، وتزيد وزنه بشكل بشع، كم كره نفسه وهو يرى كرشه تتدلى من أثر مضاد الاكتئاب...! كم كان يُخجله اضطراره لانتظار مدة طويلة على المبولة قبل أن يتخلص من بوله قطرات... قطرات...! بقدر ما منحه الدواء سكينة مزيفة، وأعاد إليه نومه، أحرجه في الفراش، ومسخ جسده، وغير روحه، وبَلَّد تفكيره، لهذا اختار الألم والحياة... بدل العيش في جسد مستعبد لدواء يغيره كيفما شاء.

أخيرًا: ينهار، لم يعد يطيق نوبة الذعر الجارفة القوية كإعصار مدمر أسقط سقف السكينة، وهدَّ كل خطوط دفاعه النفسية الأمامية، بمشقة تمتد يده إلى علبة الدواء على قطعة رخامية تحت المرآة المستطيلة ذات الإطار النحاسي على الجدار، فيسقط المزهرية بحركة طائشة، تتشظى وتتناثر أجزاؤها على الأرضية الرخامية، تهرع رقية مضطربة، ولم تنتعل غير فردة واحدة من خفها الليلي، كانت مستغرقة في النوم، فهي لا تستطيع مقاومة النوم الضحى، تحملق فيه، تدرك أن النوبة عادت، تمده بقرص «زيبام» المضاد للقلق، علها تصحح اختلال كيمياء فرط الذعر والقلق في مدن الدماغ، غالبًا قرص واحد لا يكفي، فتضاعف له الجرعة وهي تقرأ المعوذتين، حتى يحصل على سلام روحي مؤقت، لكن الوهن يفرز سمه من جديد في الجسد المضطرب، فتضيق به الشقة رغم رحابتها.

يراقب دواخله، ويمنح هذا العابر في روحه حق العبور بدون مقاومة، زوجته رقية تَرْبِتُ على صدره بحنو عساه يستشعر السكينة، وتبسمل مرات عديدة، وهي تعلم أنه بعد حين سيداهمه ذاك الطنين المزعج، فيملأ بوقي أذنيه حد الجنون، يؤرج رأسه، يضع يديه على أذنيه، تدرك الزوجة بشفقة أن الطنين القوي، يلعب لعبته القذرة في سمع زوجها المنهار، تشعر بألمه وذعره، وأمام عجزها القاتل عن تخفيف ألمه واضطرابه، ترتبك وهي

تمشي وراءه، يظل هو يذرع المكان متنقلًا من غرفة إلى أخرى، وهي تخطو وراءه بخطو مضطرب، تأتيه بماء، تسقيه مرددة: «باسم الله... أرقيك باسم الله العظيم... ماء زمزم لما شرب له... لابد من نية صادقة.. تضرع لله...! يا صلاح حيران...! تضرع...!».

الوجه الرقيق العظام، القليل اللحم، العريض الجبهة الناتئة، يزداد قبحًا واعتصارًا حين تجحظ عيناه ذعرًا وألمًا، يفرك بحركة من يده طائشة مضطربة مقدمة رأسه الصلعاء، كأنه يخفف حرقة طفت نحو السطح، تظل زوجته قريبة من أنفاسه، ترشه بالماء وتغمره بالدعاء، يبعدها بقوة، وجلافة، ويرمي بقنية الماء بعيدًا، تتناثر الشظايا، مخلفة دويًّا قويًّا يهز المرأة الأربعينية من الداخل، فتنتفض كطائر مبلل الجناح خوفًا وصدمة، تخور قواها، تكاد ساقاها لا تطيقان الجسد المنهار، ورغم ذلك، ترتمي في حضنه، وتضمه بقوة، عله يشعر بالسكينة والأمان، فيهدأ وتهدأ..

ما أصل هذا الألم الذي لا يُطاق؟ من أين تسافر هذه الكآبة بغرور وتختار من بين الملايين أشخاصًا معينين بلا سابق إشعار، لتحول حياتهم إلى جحيم...؟ تلك تساؤلات عبرت مرارًا خاطر رقية، في محاولات متكررة لتفهم ما يقع... لكن لا أحد يملك الجواب... حتى الأطباء يتحدثون عن المعاناة والحزن العميق، كأنه نتاج خلل كيميائي في مصانع الدماغ، وهي لا تصدق، فالألم روحي... وجداني... خلل ما في الدماغ قد يؤدي إلى الجنون، هذا الجنون أهون من جحيم الاكتئاب الملتبس الذي لا أصل له في وظائف الجسد، وإن عللوه باختلال في جرعات كيميائية مفترضة، الحقيقة.... إن الاكتئاب لا أصل له مشترك... إنه الوجع والألم الذاتيَّان جدًّا.

يومًا ما قال لها طبيب نفسي: « يا سيدة رقية، الأمر معقد جدًّا... ربما علينا أن نحفر بعيدًا في حياته منذ طفولته، قد نجد أصل مرضه، ربما هناك شيء ما متوارٍ عنا في لا وعيه، يأكله من الداخل، ويعبر عن نفسه جسديًّا بهذا الطنين القوي، والصداع النصفي، ونوبة الذعر، والاكتئاب... لقد رفض مرارًا الإجابة عن عدة أسئلة... لا أعرف عمله...

قال فقط: محال على المعاش المبكر... وغيَّر الموضوع... ماذا كان عمله... سيدة رقية...؟». قالت له: التحقيق.

فأدرك الطبيب ألا حل لأزمته غير قلب الصفحة، ويخرج من جلد الأمني، لحياة أخرى، ومن ثم فالحل بيده.

يغلب رقية البكاء كالعادة، فتقمعه وهي ترى زوجها صلاح حيران، مقسمًا بين جحيم نفسي وألم جسدي، فتهرع إلى غرفة نومها، وتغلقها، وتنخرط في صلاة بلا نهاية، حتى يخبو أنين وهنين زوجها، وحين يعم الصمت الشقة... فتغفو.

يتحول الطنين إلى صداع حاد نصفي يطيقه على الأقل، يرمي صلاح حيران بجسده المتعب على مقعد محشو بالقطن ومغلف بجلد أزرق لونه، عالٍ بما يكفي ليتابع من الشرفة الحياة وهي تتجلى في الوجوه والحركات والأفراح والأحزان والغضب، الشرفة تطل على شريط من الدور القصيرة المتهالكة، بعضها علا دون مواصفات معمارية، مع الزمن أحاطت السكنيات المخيفة بالعمارة القديمة الكولنيالية الهندسة والروح حيث يقطن، كان يكره هذا حي «الجران» الذي خرج من العدم، وصار مرتعًا للجريمة والفقر والدعارة، كان يكره أن يرى البؤس يمشي على قدمين، والغضب في العيون يكاد يفترسه.. يبدأ مفعول المهدئ، تتقلص الأشياء أمام عينيه، تَتَضَبَّب المشاهد والأشياء والكائنات ثم تتلاشى.

(5)

منذ أكثر من عشرين سنة، اختار صلاح حيران السكن في حي «الشوافين» بالضاحية الساحلية للدار البيضاء، اختار الساحل البحري إرضاء لزوجته رقية التي كانت تفيض رومانسية وينضح قلبها حبًّا للطبيعة الحية الخلاقة، وتهيم عشقًا بمظاهر الحياة المتغيرة في الوجود، وهي تتلون وتتغير وفق الفصول والزمن، خلافًا له، فهو يحب الاستقرار والثبات، وكل تغيير مهما بدا عاديًّا يربكه، بل إن التغيير في حياته ولو طال وسادة أو وضع سرير أو كنبة كان يرهقه نفسيًّا وعقليًّا، ويتطلب منه جهدًا وزمنًا حتى يؤسس ألفة مع المتغير، أما هي فقد كان التحول أو التغيير في مظاهر الحياة اليومية يجددان فيها الآمال، وينعشها جذوة العنفوان، ويمدانها بنشوة تستشعرها في الكشف كرؤى صوفية، والتبدل كرقي في مقام روحي، والتحول المستمر في مقامات الرؤية والشعور والحبور، حالمة لكن واقعية كنخلة باسقة تحمل في قلبها أسرارًا تليدة تكشفها للعاشق والحزين، كنخلة من نخيل الواحة التي احتضنت صباها ومراهقتها، وهو كان واقعيًّا عقلانيًّا لدرجة الضجر والهوس، ربما لهذا أحبها؛ لأنها تمثل نقيضه، فالحقيقة أننا لا نبحث عن أمثالنا أو أشابهنا أو صورنا في النساء، ولا نبحث عمن يكملنا، فتلك أسطورة لا توجد إلا في قصص العشق الخيالي، الحب الحقيقي يتأسس على التناقض، لا على التكامل والتماهي، التماهي والتماثل يؤديان إلى الملل والضجر والرتابة، والنتيجة الحتمية هي فشل العلاقة، التناقض يؤدي إلى صراع جميل وبهي ومؤلم أحيانًا في الوقت نفسه، فيه تتناوب الأحزان والأفراح والخيبات والمباهج، التناقض يضمن للحب تجدده

وقدرته على الصمود وسط الخيبات والانكسارات اللتين تفرضهما الحياة.

ربما عواطف رقية الجياشة وعفويتها هما اللذان أسراه وهو الذي تعود ألا يفكر قبل أن يخطو أي خطوة، العفوية بالنسبة إليه تؤدي إلى الفشل، إلى كشف نقط الضعف، ورغم ذلك أحب هذه الفتاة الخمرية اللون، ذات الشعر الحريري الفاحم، المعتدلة الطول، لو كانت أطول منه قامة لما تزوجها، فقد كان يسمع زميلًا له يتندر ساخرًا على رئيسه القصير القامة والذي يبدو -حسب تعبيره- «كقرد» أمام زوجته الطويلة القامة «كالزرافة».

لم يسبق له أن رأى البحر بالعين نفسها التي تدركه بها عواطف وأحاسيس رقية، كان بالنسبة إليه البحر فقط، لا غير، كأي مكان آخر من الأمكنة، لا يفجر فيه أي عاطفة ولا يلهمه، فأحيانًا لا نعير اهتمامًا لأشياء ذات قيمة في ذاتها ومعنى في وجودنا حتى يهزنا موقف ما، أو تستوقفنا محنة طارئة، المحن والشدائد قد تفتح عيوننا على عالم جديد، وتنخل علاقاتنا، وتعدل ما كنا نظن غير قابل للتغيير، قد نرى الوجود بعين أخرى أكثر انفتاحًا تخلصت من غشاوة اليومي الرتيب، فتبصر في الوجود التفاصيل الجميلة، كمريض على فراش الموت لا يرجى شفاؤه، تطل نافذة غرفته على شجرة سنديانة، لم يرها قبل، رغم أنها هناك منذ سنين، لكنه وهو يستعد للعبور نحو العالم الآخر، تثيره وتخاطبه فيأنس بها أيَّما أُلفة، وتدخل البهجة على قلبه، كما أنه يكتشف أنه لم يرفع أبدًا عينيه إلى السماء في زحمة الحياة ومشاغلها، ليرى النجوم وهي تلمع كماسات تخلب العقول والقلوب، ويتوق أشد التوق إلى أن تتلمس يداه جذع الشجرة، وأن يأخذ حفنة تراب مبلل برذاذ مطر، لينعم برائحتها وملمسها، قد نكتشف مباهج خفية كانت قريبة منا ولم نفطن إليها، قد تصير الشجرة والنجمة وتغريدة طائر أو رقصة فراشة أو حتى دبيب النمل في وادي نمل، ورائحة التراب الندي منابع سعادة لم يدركها قبل.

نعم...! كان يمر على الساحل من حين لآخر، يجلس مع زميل له بمقهى يطل على الشاطئ، لكنه لم يكن يرى البحر على حقيقته وإن كان على بعد أمتار منه، ولم يكن يسمع هدير موجه، ولم يكن يتنشق نسيمه المعبَّق بروح الملح، ولم يعر انتباهه يومًا لمراكب وقوارب الصيد التي تتوزع على الساحل، لم يكن يسمع تصايح البحارة وهم يفرغون السمك وسط نداء «الدلال» وصخب الأطفال، لم يرَ أبدًا تقلبات الموج والريح وتغيرات الروائح حسب الفصول، لم يكن يرى الأطفال الصغار وهم يركضون على الرمال تملأ الأجواء ضحكاتهم الغراء وضوضاؤهم البريئة، لم يكن يرى العشاق المدثرين بنزيف الشفق القرنفلي وهم يختلسون القُبل بعيدًا عن الأعين بين الصخور، كان البحر بالنسبة إليه مجرد مكان، وكان عقله منشغلًا كليًّا بملفاته وقضاياه. خلافًا له، كانت رقية ترى الحياة بعين الحياة، ترى الوجود من نافذة الحركة والسكون والتغير والتبدل والتنوع والتناغم، كانت تسمع بشغف سمفونيات عابرة مع الريح والهدير والهديل والصهيل، لا يمكن لأذن شغلتها تفاهة الحياة، وعقل شله التوجس والحذر، وقلب أعماه الملل والضجر، أن يسمعوا ما يحتاج إلى روح شفافة وقلوب رهيفة وعقول منفتحة.

لرقية علاقة وجدانية جوانية خاصة بأجواء البحر وحياة أهله من صيادين وسكان، رغم أنها نشأت وكبرت في الجنوب الدافئ بواحة نخيل بالمغرب الجنوبي، يجري فيها الماء بيت الصخور شتاءً وصيفًا، وتتناوب فيها الفصول بشكل أخَّاذ وساحر، في دورة الحياة ترى الحياة في تنوعها من خلال تفتح أزهار التين واللوز والخوخ والتفاح، وتحول الزهيرات إلى ثمرات شهية، هي تعشق النوارس وهي تحلق عند الأصيل، وتشعر بنشوة غامرة وهي تصيخ السمع لعباب أمواج البحر وهي تعلو بصخب كالجبال الشامخة ثم تتلاطم وتنكسر على صخور الشاطئ، وتتحول زبدًا أبيض أفصح من رغوة اللبن.

كانت مواعيدهم الأولى بلون البحر وطعمه ورائحته، بالنسبة إليه كان المكان مجرد حيز لا معنى له، فالجغرافيا عنده معطى بارد محايد، لا مشاعر فيها ولا معاني؛ لذا غدت الفضاءات بالنسبة إليه تتشابه ولا خصوصية لها، ما لم تكن في ملف أمني أو ضمن معطيات بحث استخباراتي، تظل الأماكن بالنسبة له مجردة من كل قدسية أو عاطفة، ما لم نملأها بالذكريات والعواطف والمشاعر، فحين التقاها وجد فيها هذا الشغف للحياة في تجلياتها في الطبيعة والناس، لم يدرِ ساعتها لمَ هي تعشق البحر، فحين سألته عما يفضل من الأماكن، لم يجد الجواب، لم يفكر قبل ذاك اليوم في مكان ما يفضله ويعشقه، كان يتمنى أن تعكس السؤال، أن تسأله عما يكره، فحتمًا سيقول لها: إنه الميتم وأشباحه، ومحيطه وظلاله، وبِرَكه المخيفة، وتخومه المرعبة، وطامو الطباخة التي تفوح منها رائحة التوم والبصل دومًا، والحارس «الحلوف» الذي أشد برودة من الصقيع، وأمي نعيمة «الجنية» التي تختبئ طوال اليوم في مكتبها الكئيب لتتفرغ للتدخين الشره، ولا تجيد دور الأمومة إلا الوداع فقط.

حيث يعيش الآن لا شيء يكدر صفو الحياة غير هذا التحول الذي عرفه حي «الشوافين» الذي غدا اسمه «حي الضفادع»؛ إذ طوقت العمارة التي يقيم فيها مظاهر البؤس والشقاء والفقر بوتيرة سريعة، تسلل تجار البناء العشوائي، فخرج للوجود حي جديد بلا لون ولا هوية، فيه كل التناقضات الممكنة، الخوف... الفقر... الجهل... الجريمة... الدعارة... وتحول بعض الفلاحين والمزارعين الهاربين من جحيم الجفاف والقحط إلى مهن بحرية مباشرة بعد استقرارهم في أكواخ على الساحل، فصاروا صيادين على قوارب صيد لا يملكونها، أو «غطاسين» بطرق بدائية لجمع الطحالب «الربيعة»، حتى النسوة أتقن عملية الغطس وجمع الطحالب، التي تُوزَن لتجار نصف الجملة الذين هم أنفسهم يجففونها فيزداد سعرها، وترتفع قيمتها عند بيعها لمصنع قريب محايد للساحل لا يعرف صاحبه ولا مالكه.

لم يرزقا بالذرية، مضت عشرون عامًا تقريبًا على زواجهما، فهيمن الصمت على الموضوع، ولم يعُدْ ذا أولوية، في العام الثالث تحركت في صدرها عواطف الأمومة، وتاقت روحها لرضيع يلهو بثدييها، ويشب في حضنها، ويملأ عليها الدنيا، كانت ترى حولها الزيجات تقام كل يوم، وبعد شهور تسمع الزغاريد، وتحضر عقيقة أو ختانًا، مع الأيام غدا الأمر محرجًا لها ومؤلمًا، كل عقيقة تحضرها لجارة أو زميلة كانت تسائل رحمها وخصوبتها وأنوثتها، وكانت ترى في العيون أسئلة لم تجرؤ أن تصير عبارات واضحة، فشغلت الأمومة عقلها ووجدانها، وكانت تتحجج برغبتها وزوجها في تأجيل الإنجاب، لكن حجتها مع السنين بدأت تتهاوى، ولم يعد أحد يسألها، عطفًا وشفقةً، إلا من زميلة حاقدة تريد طعنها في مقتل، فتسألها وهي عالمة بحالها، فاكتسبت مناعة ضد الاستفزاز والإحراج، كل سؤال محرج يزيدها مناعة ويقوي استعدادها للمواجهة وتقبل الأمر دون خسارات وجدانية، لم يعد الأمر يؤلمها كما في البدايات، أو في الحقيقة لم تعد له تلك الجرعة القوية من الألم والحزن، فغدت لا ترد بل تكتفي بنظرة قاسية ساخرة ترهب السائلة، وتجهض نواياها الخبيثة، من حسن حظها ألَّا أم ولا أخت لزوجها، تنغصان عليها حياتها، وتسممانِ علاقتها بزوجها، هذا ما قالته إحدى زميلاتها المقربة لها في العمل.

أثارت رقية معه الموضوع في عامهما الثالث، بتحفظ وأدب حفاظًا على مشاعره، ورغم ذلك شعرت به محرجًا، لم يرد الخوض في الموضوع، وتغاضى عن الأمر مصطنعًا انشغاله بإعداد فنجان قهوة، لم تستسلم وألحَّت في الأمر، واقترحت عليه بأدب وحنو زيارة طبيب مختص، ضمته بقوة ليطمئن وهي تهمس في أذنيه: «يا صلاح...! لا يهم ما سنكتشفه، ربما العيب مني، وأنا أثق فيك وأعرف أنني لو كنت عقيمًا لن تتخلى عني، أنا أثق في حبنا وبه سنواجه الحقيقة، فقط علينا أن نعرف...» .

أكدت له أن الأمر لا علاقة له بالفحولة، ولا الذكورة، ولا الرجولة، ولا بالأنوثة، وأن التأخر في الإنجاب قد يكون مرده إلى خلل ما في المرأة أو

الرجل، وكثير من الاختلالات يمكن شفاؤها، وإن لم يقدر لهما الشفاء، تبنوا طفلًا.

لاذ بالصمت ذاك المساء، وفضل وأد كل نقاش حول الموضوع الذي ظل في منطقة الصمت، وبعد أسبوع أعاد فتح الموضوع قائلًا بحزن مقطبًا جبينه: «يا رقية، لك أن تختاري أن تظلي معي أو أطلقك لتعيشي حياتك كما ترين، إن اخترتِ البقاء معي فهذا يعني ألا تطرحي مرة ثانية موضوع الإنجاب، أعرف أن الاحتمالات متعددة، لكني لا أريد أن أعرف، ولا أريد أن أتبنى طفلًا، لكِ الخيار، ومهما كان، سأظل أحبك، فقط إني أريد سعادتك...».

(6)

ضوء خافت شاحب منبعث من عمود ضوء كهربائي مجاور للشرفة، تخترق أصابعه الرقيقة الشقوق راسمة على الجدران كائنات غريبة تبعث على الرهبة، صمت مريب يعم الشارع، إلا من مواء قطط تقفز هنا وهناك كلما مرت في وجهها كلاب متشردة، في صراع حول بقايا طعام هنا وهناك، فقط الأضواء المترنحة لعلامات الإشهار تقفز بلوعة، من حين لآخر يضج الفضاء بصوت سيارات الإسعاف المتجهة إلى المستشفى القريب جدًّا من شارع «المسافرين».

تفتح الشرفة بانسياب بابها الذي ينزلق على سكة مخلفًا أزيزًا حادًّا، ظل صلاح حيران يختلط وتضاريس الظلال الساقطة على الجدران، يخطو وئيدًا تسبقه سحابات سيجارته، يقلب نظراته يمنة ويسرة، يدنو من الفاصل الحديدي المصقول كمرآة تعكس أشكالًا ممسوخة يتكئ عليه، ويسرح بنظره في الشارع، يشعر بالبرودة تنفذ إلى جلده، ينتفض مرتعشًا، يعود للشقة بخطو حثيث، يحضر دثارًا، يضعه على جسده، ويستوي على كرسي، ترتفع صفارة سيارة إسعاف عابرة، ينتفض ذعرًا، يشرئب بعنقه من الشرفة، لا تلتقط عيناه المتعبتين غير مشهد عودة السايح الرجل المتشرد الذي تحنو عليه زوجته، وهو يعبر الشارع نحو المركب التجاري المجاور للعمارة الذي دأب على النوم في عمقه، يمشي الرجل متثاقلًا بتهالك من وهن وتعب، يتعقبه صلاح حيران بفضول، يرفع السايح نظره إلى الشرفة، يلوح بيد متعبة ويقول: «كيف حالك يا سيد صلاح حيران...؟».

أثار سؤاله في البداية حفيظته، وكادت الهواجس أن تعصف بذهنه، فتردد على عادته لحظة في الرد، وقد كان يظن أنه من الصعب تحديد هويته وهو على الشرفة كالظل القاتم، مغطيًا جسده بالدثار، جالت في عقله أسئلة متوجسة وقال في خاطره: هذا الرجل له نظر حاد، وقدرة غريبة على التمييز... هل يراقبني...؟ تذكر أن هذا الكائن الضائع الضعيف بلا سقف يؤويه ولا أهل يدفأ بينهم، جاء للحي ولاذ بالمركب التجاري ذات ليلة شديدة المطر أن يتخلى عنه الجهاز، ومن ثم فلا داعي للحذر منه، ورغم ذلك فكر أن يرد عليه بطريقته التي يتقنها بلا رحمة ولا شفقة، أن يقمع فيه الفضول بجلافة وفظاظة تليقان بأمثاله من التافهين كما يعتقد، وأن يكون الرد رصاصة خارقة بلا لعلعة، لكن تقتل في الرجل جرأته وتنطُّعه وتطاوله وثقته بنفسه، كان ليقول ببساطة على ديدنه وسلوكه القاسي الفظ الغليظ: «أمري لا يهمك... وهل أعرفك حتى تسأل عني...؟ هل أنت من أهلي ورهطي يا فضولي حتى تتدخل فيما لا يعنيك... لا تتدخل في أمور بعيدة عنك ...! أسمعت أم تريدني أن أجعلك تفهم بطريقة أخرى...؟».

لكنه قمع رغبته القاسية المتطرفة، وقد تغيرت أشياء كثيرة في حياته منذ تخلى عنه الجهاز، وفي الحقيقة شعر بإحساس جميل وغريب وهو يسمع الرجل يسأل عنه، بل شعر بسعادة عابرة وهو يخاطب كائنًا آخر غير زوجته وأشباحه ونفسه، دون أن يدري كان سؤال السايح ووقوفه هذه الليلة يكسر وحدته وعزلته، ويفتح عينيه على الدنيا التي ظنها أدبرت وتخلت عنه مباهجها بتخلي الجهاز عنه، فرد بحنو وبريق الفرح يلمع في عينيه:

— الحمد لله... كيف عرفت أنني من على الشرفة... يا السايح ...؟!

— ببساطة... الأمر لا يحتاج إلى كثير من الذكاء، من يعيش في هذه الشقة... غيرك والأستاذة، وظلك أعرفه... ليس ظلها... والظلال لا تتشابه... الظلال تدل على صاحبها مهما خالطت الظلال التي حولها... أقول لك: ليس هناك أوفى من الظل لأصله...! أرأيت ظلًّا يهرب من صاحبه...؟!

ابتسم صلاح حيران من قلبه لأول مرة وهو يسمع السايح، وتمنى لو يطول الحديث معه، في قرارة نفسه تمنى لو ينزل الأدراج بسرعة، ويجالس الرجل ساعة، لو يحكي له حكايته، لو يبادله همه، لو يكشف له جراحه...

يتوقف السايح قليلًا عند ردهة العمارة كأن أمرًا ما همه وشغله، يرفع نظره ويقول مرتبكا: «سامحني...! يا سيد صلاح حيران...! لم أرَ الأستاذة، تعودت رؤيتها كل ليلة... هل من بأس معاذ الله...؟!».

تذكر صلاح حيران أن زوجته كان من عادتها منذ حل هذا المتشرد الأربعيني بالحي، أن تنتظر عودته ليلًا للنوم في بهو المركب التجاري، فتسأل عنه وعن صحته وتمنحه دواء وطعامًا، قبل أن تخلد للنوم.

— يا السايح ...! رقية سافرت اليوم... لرؤية أهلها...

— وهل نحن اليوم الجمعة...؟!

— نعم، الجمعة... وشهر يوليو/تموز انتصف... ألا تشعر بارتفاع درجة الحرارة...؟!

— الحرارة...؟! آه...! الأيام تتشابه، والفصول تقاربت وتبدلت معالمها، لا الحرارة ولا الاعتدال، ولا القر أصبحوا يحددون الفصول... إيه...! سبحان مغير الأحول... نعم...! نعم...! قالت لي إنها ستسافر يوم الجمعة... إيه... نسيت... بدأت أشيخ!!

— يا رجل...! أنا أسن منك...

— لا أدري... إيه... الطريق بعيدة وشاقة إلى الواحات...

— أصرت على الأمر ... قالت: إنها سمعت نداء أبيها يدعوها في المنام...

— دعوة الأب لا ترد ولو هاتفًا في البال أو همسًا في المنام... ربما الشيخ مشتاق إليها، ربما يريد توديعها... فهذه رؤيا...

— أعلم... ورؤاها سبحان الله تأتي صادقة كفلق الصبح...

— تعبير جميل ولطيف... الناس لا تعرفك حق معرفتك، ويبدو أن مظهرك يظلمك.

— ومتى كانت المظاهر تصلح للشهادة، وليس كل ضائع جاهلًا... ولا كل

شريد أميًّا، فقد يكون العلم أصل الضياع والشقاء، وقد يكون الفهم أصل الهم، والمعرفة درب الرزية، فقد قال شاعر قتله بيت شعري اسمه المتنبي:

ذو العَقْلِ يَشْقَى في النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ
وَأَخُو الجَهالَةِ في الشَّقَاوَةِ يَنعَم

— جميل... صدقت والله... وتحفظ الشعر أيضًا أيها الرجل...؟!

— أتعجب أم تستكثر عليَّ الأمر...؟!

— في الحقيقة أعجب... وليس من عادتي تبخيس الناس... يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر...

— لا عجب فالدنيا خداعة، وقد اختلط الباطل بالحق، فكم خطيب يخطب باسم الحق وهو على باطل، وكم صاحب حق غدا حقه باطلًا، الحق حق لا يتغير، لكن بلا أتباع يعزل صاحبه، أما مظاهر الناس فليست مفتاح قلوبهم ولا عقولهم، والناس بعقولهم، نعرفهم متى تحدثوا، والعِشرة تمسح الأصباغ وتفضح الأقنعة، الناس يا سيد صلاح حيران بلسان ناطق وفق مقتضى الحال صدقًا ومعرفة، لا بأزيائهم ومظاهرهم... ألا يقول الفرنسيون... «l'habit ne fait pas le moine».

— بلى...صدقوا وصدقت حين قالوا: «البرنس لا يصنع قسًّا...». كأني أقرأ كتاب حكمة وأنا أسمعك...

يقهقه السايح عاليًا، ويضرب كفًّا بكف ويقول:

— ألم يقولوا: خذوا الحكمة من أفواه المجانين والأطفال...؟! عدني مجنونًا يغشاني شيطان فأنطق بما لا أعلم...

— الآن علمت لمَ رقية تأنس بك...؟ فقد عرفت قيمتك وعلو معرفتك...

— الأستاذة رقية هبة لك من السماء، غير منانة، ولا صخابة، ولا شتامة، صدقتها خافية، عطاؤها جازل، عطفها رحمة ربانية، خيرها يعم كل الناس ولا تبديه، هي كنخلة من نخيل الواحة مسقط رأسها، ظل لا

يفرق بين فقير وغني، وثمر يطعم المحتاج والموسر، بلا انقطاع، صامدة في وجه الزمن والرياح، تنحني ورأسها في العنان، وتموت ورأسها عاليًا في السماء، الأستاذة رقية شريفة بنت شريف... إدريسية يعود نسبها إلى سيد البشرية محمد عليه أزكى الصلوات والسلام... لو لم يكن لها شرف الأصل لكفاه شرف الفعل.

— صرت تعرف الكثير عنها... لم أكن أعلم أنك غزير المعرفة حلو اللسان... ككاتب تعوَّد الكتابة بلغة راقية...

مضطربًا بارتباك يُحوِّل السايح مجرى الكلام كأنه فطن إلى أنه أسهب في القول حتى كشف ما لا يجب أن يكشف، وهو يحبذ أن يكون نكرة في نعيم على أن يكون كنارٍ على عَلَم في جحيم:

— يا رجل...! من يعرف نفسه حق المعرفة حتى يدعي معرفة الآخر...؟! من عرف نفسه حق المعرفة أغناه الأمر عن كل معرفة، نحن في الحقيقة لا نعرف شيئًا... لكن قل ألم يكن يجدر بك أن ترافق تلك المسكينة في رحلة مثل هذه... بعيدة ومتعبة؟ متى ستخرج يا سيد صلاح حيران...؟!

— أَخْرُجُ... ؟! ماذا تقصد يا السايح؟

ضحك حتى بدت نواجذه، مشط لحيته الكثة بأصابعه، وسوى قبعته ثم أردف:

— الأمر بسيط يا سيد صلاح حيران...! تخرج لنراك وترانا... وترى الدنيا والناس. دعك من هذا...! تخرج من الشرنقة التي أسرت نفسك فيها، وتسمح لضلوعك أن تنبث أجنحة لتحلق بعيدًا...

شعر صلاح حيران بالحرج حتى شرق وابتلع ريقه بصعوبة، بل بدا له أن السايح تجاوز حدوده، وكاد يضع حدًّا لهذا الحديث بكل فظاظة وغلظة، لولا أنه شعر بوازع يلجم اندفاعه وغيظه ويحثه على الصبر والأناة، وقد وجد رغم الإحراج في الرجل ما يفحم ويمتع، ووجد فيه أنسًا وألفة افتقدهما منذ غادر الجهاز، وعليه أن يطيقه، وليس كل جميل يخلو من الشوك، كأن السايح علم باضطراب لواعجه، فغيَّر مجرى هبوب ريح

الحوار لما لمس اشتدادها، وقد تعصف بعلاقته الطرية مع صلاح حيران قائلًا:

— هل وصلت الأستاذة بخير...؟ ربما سؤالي ساذج... فحيث ذهبت لا وسيلة للتواصل، ربما خيوط الهاتف لم تصل بعد إلى هناك... العيش في الواحات مُغرٍ وهادئ، لكنه شاق وصعب لأمثالك ممن ألفوا المدينة وضجيجها، الهدوء المفرط قد يؤدي إلى الجنون، مثله مثل الضجيج، نعم... الضوضاء إدمان، لكن كل ما زاد عن حدِّه ينقلب إلى ضده، ألست على حق؟ ألا يقولون ذلك...؟ ما علينا، صدقني...! العيش هناك يتطلب قلبًا نقيًّا لم يدمن سخافات المدينة وبهرجتها، لا يوجد هنا غير الهم والغم والوهم... لكن ما العمل...؟ المدينة تسكننا وتجري في دمنا، نحن نتوهم السكن فيها، والحقيقة هي من تسكن عقولنا حد الإدمان، لا أعرف إلى أين نحن سائرون... كل يوم نخسر الكثير... ولا ندري... إيه...! ربما لو ذهبت معها إلى هناك لوجدت نفسك وخرجت مما أنت فيه... الواحة أفضل مكان لفطام النفوس مما ألفت من أضرار وأدران.

لاذ صلاح حيران بالصمت، وأصاخ السمع وعقله مقسم بين التوجس والحيرة، في خاطره علا صوت متوجس بعجب ودهشة من كلام الرجل: كيف يكون صاحب هذا العقل الذكي الفطن والحكمة الجارية على لسانه كالماء الرقراق متشردًا بلا مأوى ولا أهل...؟! هناك شيء فاتني... أوشك شكه وريبته أن تدفعانه لترك السايح، لكن قلبه ارتاح عامة، وروحه انتشت بهذا اللقاء، ومشاعره انتعشت بعد طول جفاء وجفاف، فطرد الغل بالنشوة، فلم يعد يجد في مشاعره رغم اضطرابها وفي عقله رغم توجسه ما يدفعه للضغينة ولا للغضب، بل تمنى أن يظل السايح يُحدِّثه ويحدثه، وما تخلص من بقية دهشة، لكن نعمة الكلام مع الآخر تجلت له، وشعر لأول مرة بسر الكلام وباسم الأُنس والألفة.

يشير السايح بيده حاثًّا إياه على الصعود: «تعالَ ... يا رجل...! تعالَ...!». يتهالك السايح في خطوه، يترك متاعه ودثاره على العتبة، يرتقي السلم

المظلم مستندًا إلى الجدار، فأصابعه لم تهتدِ إلى أزرار الإضاءة في هذه الظلمة، لكنه يثق في حسه وحدسه، يصل الطابق الثاني، يغلبه سعال شديد، يتوقف ليلتقط أنفاسه وهو يزحر موليًا ظهره للجدار الذي جعله سندًا له، يفتح باب الشقة 3، يتسرب منها ضوء خافت نحو العتبة، ثم يضيء الردهة، يتسمر السايح في مكانه، يشرع في فرك عينيه كأن الضوء المنبعث من الشقة أتعبهما بعد زمن ظلمة على السلم، يخطو خطوة محاولًا تجاوز العتبة، يصله صوت صلاح حيران مرة ثانية وبقوة «ادخل يا السايح ادخل...!».

منذ سنين تعرف السايح إلى السيدة رقية، منذ حل بحي «الشوافين» غريبًا كالطريد، هذا الحي الذي مسخ وسلخ من هويته بفعل الهجرة القروية الكثيفة من البوادي والقرى التي عانت القحط واحتباس المطر منذ مطلع الثمانينيات، وغدا له اسم آخر «حي الضفادع» لكثرة بركه الآسنة التي تتجمع فيها مياه الأمطار ومجاري الصرف الصحي السطحية، وربما لتعاطي أكثر أهله، شباب وكهول وحتى الشيوخ، مهنة الغطس لجمع الطحالب صيفًا والنبش في الفصول الأخرى في المطرح العمومي للأزبال والنفايات المتاخم له، حيث تنبعث منه روائح كريهة ومقززة، تختلط وأدخنة النيران التي تشكل شبه غمام أسود، يمطر السطوح بندف رمادي خانق. كان حيًّا راقيًا سكنه على عهد الحماية الفرنسية الفرنسيون والأعيان، يحده غربًا الساحل البحري، وشمالًا أراضي فلاحية شاسعة، ويتكون من دُور قصيرة ممتدة على الشارع، سكنها البرتغاليون في زمن ما، قبل أن تمنحها الدولة لموظفيها الصغار من حمالين و«رباطين» في الميناء فجر الاستقلال، وظل هذا الجزء من الحي يسمى «ديور البرطقيز»، لكن الأراضي الفلاحية التي كانت وراء «حي الشوافين»، تحولت فجأة وبقدرة قادر، وفي زمن وجيز إلى تجزئات سرية مشوهة الهندسة والمعمار، فانتشرت فيها بيوت ودُور وبائسة وضيعة كالأكواخ من القصدير والخشب والطوب الطيني، وأخرى من الأسمنت غير مكتملة عارية الجدران، في أزقة ضيقة بلا تصميم ولا

جمالية، مظلمة مخيفة بلا أعمدة كهرباء، ولا مجاري مياه الصرف الصحي ولا بنيات تحتية أساسية، وللأكواخ أحسن منها وأليق للسكن وللحياة ! تجري بين الأزقة المتربة الضيقة جدًّا فيها المياه العادمة الآسنة حيث يرتع البط ويقتات الدجاج، ويلعب الصغار حفاةً شبه عراة، مياه تحمل معها كل وباء محتمل وهي تقطع طريقها أمام البيوت نحو مدخل الحي العشوائي، لتصب في حفرة عميقة، غدت بِركة نتنة، تعيش فيها الحشرات والهوام والناموس والجرذان والضفادع، فلا عجب أن يطلق على حي «الشوافين» اسم «حي الضفادع».

وقد تناسى الناس اسمه الحقيقي، الذي ارتبط في زمن ما بنشاط مكثف للعرافات والعرافين الذين يلقبون بـ «الشوافين»، ويزعم البعض أن تسميته ارتبطت بكون ساكنته الأصلية من الفرنسيين وكبار القوم والأعيان، كانت تقف على الشرفات وتمعن النظر في البحر عند الأصيل، ومن هنا سماهم البدو والفلاحون والرعاة «الشوافين»، والأرجح هو وجود العرافة المشهورة منذ القدم «لالة الضاوية»، والتي بموتها في أرذل العمر، تعدد العرافون والعرافات وتناسلوا، والكل يدعي أنه ورث بركتها وسرها؛ لأنها بتراء لم تخلف ذرية، ولم تترك لا وصية ولا وريثًا، ولا يعرف لها أهل ولا أصل، حتى إن ثروتها التي تقدر بالملايين وفيها عقارات وأراضٍ كثيرة وأملاك متعددة صُودِرت لخزينة الدولة.

بوجود هذا الخليط في الحي غير المنسجم، المتناقض والمتباين حتى في الألسنة والأزياء والعادات والأعراف والأحلام والمطامح والرغبات والأهواء، حيث جمع الأمازيغي والعربي والصحراوي والريفي والجبلي الذين لا يجمعهم هنا في هذا الفضاء سوى الحاجة والفاقة والبطالة ومظاهر التدين، ولا تذوب فوراقهم سوى بالمسجد، ثم يعودون إلى خلافاتهم وأحقادهم وهم يتنافسون ويتدافعون في الأسواق العشوائية والأحياء من أجل بيع بضائعهم، انهار عالم الحي القديم، بقِيَمه الجميلة وتآزره وحُسن جواره، اختفى الخفر والحياء والتوقير والاحترام، وفقد الساحل

البحري سحره وفتنته وبهاءه، فهؤلاء القادمون من البوادي والقرى هربوا من شظف العيش والجوع والجدب، من أراضٍ جدباء غبراء لم تعد قادرةً على ضمان العيش لهم، وأكثرها بورية متعلقة حياتها بالمطر، وقد احتبس الهطل منذ سنتين، حتى فرغت مخازنهم ونزفت مدخراتهم، ونفقت بهائمهم، صار ماؤهم في الآبار غورًا حتى نضب، وجفت العيون البعيدة، وغدت الوديان نقعًا خانقًا وممرات مغبرة للبهائم والراجلين، تنشر فيها الحجارة الصماء والنفايات والأزبال، ففقدت سحرها وبهاءها، فلا خرير ماء يطرب الآذان، ولا أسراب فراشات تمتع الأبصار، ولا تغريدات طيور مختلفة الأجناس تبدد الأحزان، ولا أسماك عابرة ينتشي بصيدها الهواة والصيادون، ولا هدير ماء شتاءً حين تذوب الثلوج يفرح الصغار وينشر الأمل بين الكبار والعجزة والشيوخ، لم يعد لهم من حل سوى النزوح على مضض وفي أجواء حزينة كأنهم في حداد قاتم وهم يودعون الشجر والأرض والتراب والأصول، إلى المدينة تحت وطأة الجوع والقسوة وشظف العيش، مدينة تعدهم بالحلم والثروة لكن ما إن يحلُّوا بها حتى يتلاشى الوهم وتبدأ مسيرة الهم والغم والكد والخوف، لكنهم كمن أحرق مراكب العودة، فقد باعوا أرضهم وشجرهم وبهيمتهم، فحتى لو فكروا في الرجوع وهو أمر يجلب العار والخزي لصاحبه، فهو مستحيل وغير ممكن، فقد صاروا بلا أرض تحرث، ولا بقرة تحلب، ولا شجرة تثمر.

في تلك الظروف القاسية الصعبة، ظهر سماسرة وتجار من نوع خاص، يتربصون بالضعف والعوز، منهم يقتاتون ويغتنون ويراكمون الثروات بصمتٍ وطول نفس وينتظرون الوقت المناسب، كذئاب تجيد التربص بالفريسة الضعيفة وتنتظر بصبر حتى تنهار، هم كتجار الحروب في أي زمن، حليفهم الأساس المآسي، والإملاق، والغرم، والديون، والمرض، والعوز، يقبضون ثمن أرض عشوائية لبناء كوخ بالمدينة أو سكن من قصدير على أرض فلاحية، أو قطيع ماشية لم يعد الفلاح المغلوب على أمره قادرًا على شراء العلف له، والنازحون من أصول قرى وأرياف مختلفة،

ويشار إليهم بأصولهم، حتى إنهم تجمعوا في أحياء حسب أصولهم، وقد التحق بهم فقراء ومملقو الدار البيضاء والضواحي بحثًا عن سكن، ما إن يحطوا الرحال، حتى يلتحقوا بمن سبقهم، فلا عمل في المصانع التي طفقت تتخلص من العمال، ومن ثم، فلا حل لهم سوى بيع الخضر والملابس القديمة والأواني المُتَخلَّص منها أو أي شيء على الأرصفة أو في الأسواق العشوائية، أو شراء عربة يجرها حمار لبيع الخضر والفواكه بين الدروب، أو أي سلعة حسب الفصول والمواسم والأعياد.. التمر والتين المجفف، والعنب، والتفاح البلدي، والتين، والبرتقال البركاني، والتين الشوكي، واللبن، والبيض، والخبز، والحلزون، وجبات النقانق المشكوك في أصل لحمها، لرخصها وإغراقها في توابل قوية، ذات ألوان غامقة، السمك في صناديق عارية تجوب الأحياء على الدرجات النارية، مواد التنظيف التي يخلطونها بالماء الكثير، ويضيفون إليها الملونات حتى تبدو مثيرة مثل الأصلية، الحفاضات التي بها عيوب غير ظاهرة، تخلصت منها المصانع كنفايات فتجد لها سوقًا موازية، وتجاريتنافسون عليها على أبواب المصانع حتى غدت تنظم لها مزادًا، لحم راس البقر والغنم، ولحم الدجاج على طاولات متسخة يحلق فوقها الذباب بكثافة على مقربة من المجاري ومطارح الأزبال، النعناع والكزبرة والبقدونس «والكرفس»، سلع غذائية مهربة من شمال المغرب وأصلها من جنوب إسبانيا أو من مدينتي سبتة ومليلية، قد تكون صلاحيتها منتهية مما يفسر انخفاض أثمانها مع تزييف التواريخ؛ لهذا امتلأ الحي بالحمير والبغال والخيول المنهكة، والعربات الخشبية والدراجات والناقلات الصغيرة الصينية الصنع.

تفاقمت البطالة كسرطان يسري في جسد المجتمع، وأينما وجد حَلَّ معه الخلل والخراب والفوضى والنزيف، بنزوح جحافل الهاربين فرادى وجماعات وأسرًا من الجفاف والقحط والجوع، فانتشرت الجريمة وجرى التطبيع مع الدعارة وتجارة الجنس، بالموازاة برزت ظاهرة غريبة وجديدة: عصابات الاتجار في المخدرات لم يكفِ ترويج الحشيش، بل

تمادت وغدت تتحكم في مصائر الناس ومداخل أرزاقهم واستعباد الباعة المهاجرين من القرى والبوادي بالأسواق العشوائية بفرض الإتاوات بالقوة والتهديد، وتقسيم مساحات السوق الفوضوي وفق مزاجهم وأسعارهم سواء اليومية أو الشهرية، ووقع خلل كبير في الجوار واحترام الكبير وتوقير الشيخ، فالشيخ هنا يُضرب حتى يرعف أو يدمى وجهه، ولا يُوقَّر، ولا تُقبَّل يده، والكبير مهما غدا كبيرًا يهزأ منه الصغار علانية أمام الآباء الذين لا يجدون في الأمر حرجًا، يعدون الأمر شجاعة وفطنة وجرأة ومدعاة للفخر بأبنائهم، والجيران الذين لا تفرق بينهم غير جدران من خشب أو قصدير، لا يتوقفون عن الخصام والصراعات بعبارات بذيئة متهتكة لأتفه الأسباب، شجارات قد تغدو دموية تُستعمل فيها الأسلحة البيضاء، ويسقط فيها الضحايا، ويزج فيها بالقتلة في السجون لسنوات.

وحدهم عتاة المجرمين يُوقَّرون ويُحترمون من الجميع، والمنتخبون الأثرياء لهم حظوة عند الجميع، بمالهم وقدرتهم على حل المشاكل مع الشرطة والوساطة لدى المصالح العمومية من صحة، وتعليم، ومصلحة الحالة المدنية، والمصالح الإدارية التي تصدر شهادات السكنى وشهادات الاحتياج واستخراج رخص الدفن.

حلت الأقراص المخدرة فجأة محل الحشيش، وخرجت من حيث لا يعلم أحد، فجُنَّ الشباب واليافعون حتى عذبوا أنفسهم وانهالوا على سواعدهم بالسكاكين والشفرات، وارتكبوا جرائم وهم لا يعلمون لماذا ومتى، وبحلولها حلَّت الجريمة البليدة، والعنف ضد الأصول، وجرائم القتل ضد الأصول والفروع لا يدرك فداحتها القاتل حتى يصحو من أثر المخدر، وغدت عملية تكسير السيارات وتخريب ممتلكات الناس ظاهرة يومية حتى صار الناس يركنون سياراتهم بعيدًا عن الأحياء الساخنة، وتحكم الفتوات في الليل كما النهار، يبيعون الخمور وعيونهم من الأطفال والمراهقين مبثوثة على النواصي وعلى السطوح، وتَسيَّد جيل من حراس السيارات من ذوي السوابق، وخنع لهم الكل خوفًا من بطشهم

وسيوفهم وأسلحتهم البيضاء، فكل بائع متجول لا بد أن يؤدي الإتاوة في آخر النهار، ونصيبًا من سلعته، ونهضت من عدم مساجد عشوائية بين الدور العشوائية، يسيرها مجموعة من الشباب والشيوخ بدون عِلم ولا تعليم، يرددون ما يسمعون بحماس، اختلفوا عن محيطهم بلباسهم الغريب، ولحاهم الكثيفة، وشواربهم الخفيفة، ونعالهم الجلدية أو الرياضية، وملابسهم القصيرة التي تكشف عن سيقانهم، وسراويلهم المهلهلة.

علاقة السايح بالسيدة رقية علاقة خاصة، فهي تغمره بالحنان والعطف، وترعاه رعاية الأخت لأخيها، وعندها أسراره وعنده أسرارها، فقد كانت تبوح له بأحزانها وهمومها، وتقاسمه بثقة ما ينوء به صدرها من أوزار الحياة، كان لا يعود إلا عند منتصف الليل، حيث تظل هي تنتظره على الشرفة، فتنزل السلم، لتمنحه طعامًا وتسأل عن أحواله وصحته وأحداث يومه، قبل أن يختفي في عمق المركب التجاري في ركن لا يصله ضوء الشمس ولا تكشفه المصابيح المعلقة، بعيدًا عن الأعين والتيارات الهوائية، وقنوات الصرف الصحي؛ إذ كان المكان كلما هطل المطر بشدة، تغمره مياه المطر، ثم تفيض مجاري المياه العادمة، وتنتشر العفونة، والروائح النتنة.

ففي البداية كان يعاني قهر ونهر الحارس الليلي، الذي كان يجتهد في تعكير حياة الرجل الذي لا سكن له ولا أهل، ولا يعرف له أصل ولا فصل، فيبعثر متاعه، ويزج به بعنف وقسوة خارج المركب التجاري، وكان هذا الحارس غريب الأطوار، يجد لذة غريبة في قهر المتشردين والعابرين ليلًا بلا مأوى، ويظل يصول ويجول بعصاه الغليظة وكلبه الشرس يقفز بغرور حوله، يهر حينًا ويعوي حينًا آخر، ويعلن عن وجوده بضرب الأرض بقوة بجزمته العسكرية التي اشتراها من بائع خردة، وحين لا يجد خصمًا ولا جهة ما يصب فيها جام غضبه المجاني، يظل يذرع المركب التجاري محركًا يديه، ويبحث في زواياه بفضول واهتمام بالغين، ويكلم كلبه الذي يهز

ذيله من الإثارة بغرابة وهو ينبح دون توقف، ثم يرسله بكلمة واحدة وهو يلعن ويسب، ثم يناديه ليعود ويعاتبه، والكلب قد أرخى ذيله كأنه يفهم سيده، يحملق فيه لاهثًا، وأكثر ما يغضبه، حين يعدو الكلب جهة السايح، فيتوقف عنده، ويلعقه بفرح، دون أن ينبح، بينما السايح يربت على رأسه ويمرر يده على ظهره بعطف وحب وهو يبتسم، وحين يعود لصاحبه، يلعنه ويتهمه بالخيانة والغدر.

ما كان للحارس ضخم الجثة الأشقر، العسكري السابق الكهل المكنى «الروبيو»، أن يتخلى عن تنغيص حياة السايح، لولا تلك الليلة الممطرة التي هطلت فيها الأمطار بشدة طوال الليل حتى غمرت عتبات الدكاكين والمتاجر، وكادت تفسد السلع، فما كان من السايح إلا أن شمر عن ثيابه، وفتح أغطية قنوات الصرف الصحي، وأزال ما يعيق تدفق الماء من نفايات صلبة متراكمة وخرق أثواب عالقة، وأتربة متعالقة والأسلاك وقطع الخشب، وظل على حاله هذه، حتى جاء التجار، فرأوا من أمره ما يدعو للعجب والدهشة والإعجاب، فالرجل يبدو ضعيف البنية منهكًا، وإن كان تجاوز عقده الرابع بقليل، ورغم ذلك لم يجبن، ولا تقاعس بحجة أن الأمر لا يهمه، وكان بإمكانه أن يفعل ولا يسأل عن فعله، ولم يكِل ولم تخر قواه لساعات وهو يفتح للماء المتدفق منافذ العبور، ويفتح المجاري المغلقة، فاقتطعوا له مكانًا في جوف المركب، يتخذه مكانًا للنوم، ومنحوه ما يتخذ منه فراشًا وغطاء وبعض الأواني.

ارتفع صوت صلاح حيران من جديد عاليًا، وانتفض السايح ذعرًا من قوته وحدته، وقد شرد ذهنه: «ادخل يا السايح .... ماذا تنتظر... يا رجل...؟!».

(7)

أقنعه السايح وهما يتحدثان بشغف وحماس كصديقين قديمين حميمين حتى الفجر، بالتوجه إلى واحة "أغمانا" بالجنوب الشرقي للمغرب، حيث مسقط رأس زوجته ومرتع طفولتها وصباها قبل أن تلتحق في سن مبكرة بعمها تاجر التمور "بدرب ميلا" بالدار البيضاء، لاستكمال دراستها الثانوية؛ إذ الواحة لا تتوفر إلا على مدرسة ابتدائية من الطوب والطين متهالكة، قال له بثقة كقارئة فنجان وهو يتململ على الكنبة التي أزعجته؛ إذ لم يألفها ويتحسس ظهره من ألم عابر:

— يا سيد صلاح حيران...! عليك أن تقلب الصفحة...! عليك أن تغير العتبة...! والبداية هناك بين النخيل والصهيل ونعمة الأصيل... ارحل إليها...! غيِّر الأقدار بالأقدار...! أغلقوا بابًا، فاصنع لنفسك وبنفسك بابًا ثم بابًا وامضِ غير آسفٍ ولا نادم...! ولا تقتل نفسك بالانتظار...! خيِّب ظنهم واحرمهم من متعة الشماتة...! ارحل إلى السيدة الطيبة الأستاذة رقية، هي كنزك ودنياك... أنت لا تعلم كم تتألم بصمت لحالك، وتدعو لك الله ليلًا ونهارًا ليفرِّج عنك ويخرجك من محنتك... فعندها العزاء والبدايات الجديدة... يا سيد صلاح حيران، خذلوك وخانوك...! فلا تعطهم الفرصة مرتين... رُدَّ عليهم بالأمل والتفاؤل، بالخروج للحياة... الحياة تنتظرك عند عتبة العمارة... لن تتخلص من الأرق والكآبة ما لم تتخلص من الانتظار.... اخرج للدنيا وخيِّب ظن من راهنوا على موتك انتحارًا...! عِشْ...! عِشْ...! فقط غيِّر العتبة والنظرة لتقتلهم كمدًا وغيظًا وحسدًا بالأمل والنضال والكفاح...!

— يا السايح ...! أتعرف قصتي بأدق التفاصيل...؟! فإن كنت تعرف، فهل الكل في حي الضفادع يعلمون...؟

— يا سيد صلاح حيران...! أعرفها... منذ البداية.... وأعرف ألمَك... ربما كبرياؤك أغشى بصرك وبصيرتك وشل تفكيرك، فأنت منذ سنة وأكثر لم تغادر الشقة، والناس هنا مهتمون بالتفاصيل والأخبار، يقتفون أثرها في الحركات والسكنات، فإن لم يجدوا مستجدًّا أو خبرًا يتلهون بهما، صنعوهما بالخيال والمكر والدهاء والضغينة، الناس في «حي الضفادع» ترصد كل شيء، سمعًا وقولًا وتداولًا وبحثًا، تلك هواية البعض منهم، بل هم يحيون بالخبر... سيارتك يا سيد صلاح حيران...! ما زالت متوقفة طالها الغبار والصدأ، سرقت أجزاء متفرقة، أخذوا المرايا ولم تتكلم، فتجرؤوا وأخذوا البطارية، لم يصدر عنك أي رد فعل، فنهبوها كليًّا، من المحرك إلى الأضواء والعجلات... إنها خردة يلعب فيها الطفال وتبيت فيها القطط، ألم تلاحظ أن الأمهات لم يعدن يرسلن الفتيات لمساعدة رقية... ألم تلاحظ كيف تراكمت النفايات أمام باب العمارة، ألم تلاحظ العربدة تحت شرفتك، ألم تلاحظ عربات الباعة المتجولين تصطف أمام ردهة العمارة...؟ إنهم كانوا يعلمون أنك أمني رفيع، فأرسلوا بناتهم للأستاذة تقربًا منك وبحثًا عن حظوة، وكانوا يتفادون رمي الأزبال أمام العمارة، ولا يركن أحد سيارته على الرصيف حيث تركن سيارتك، وكانوا إن سكروا ابتعدوا عن العمارة خوفًا منك، والآن، سيارتك خربت ونهبت نهبًا... قطعة قطعة، وحولك الأزبال تتراكم والنفايات تكاد تعيق طريقك في بهو العمارة، والمعربدون والسكارى يتقاتلون في الحي يوميًّا، وأمام ردهة عمارتك تشكلت سوق عشوائية، انشغالك بألمك جعلك لا تسمع التصايح والصخب والصراعات اليومية، ولا تصلك الروائح الكريهة العفنة، ولأن الأستاذة رقية تخاف عليك وعلى مشاعرك جنحت للصمت في هذا التغير، خشيت كل حديث فيه أن يزيد متاعبك وحزنك... الناس تعلم... في البداية همسوا ريبة ومع الوقت صدحوا يقينًا، لقد علموا بحدسهم بل باستنتاجاتهم منذ

لزمت الشقة أنك غادرت سلك الأمن، بل منهم من يشمتون فيك، فقط لأنهم يكرهون رجال الأمن، وفي الوقت نفسه يتقربون منهم ويتباهون بعلاقتهم وصداقتهم معهم، بعضهم يقسم بأغلظ الأيمان إنك طردت كالكلب، وأوشكت أن يزج بك في السجن، بلا تعويض ولا تقاعد لأنك فاسد مرتشٍ، لقد تغيروا حين تغيرت، وصرت بلا سلطة... لقد كانوا عبيد الشارة واللقب، خدموا الشرطي وليس صلاح حيران الإنسان... وقَّروك خوفًا لا هيبة واحترامًا... إنهم ليسوا منافقين ولا كذابين، بل هم ضحايا الخوف والقهر... القهر صنع منهم ما ترى؛ البؤس، والنفاق، والرياء، والزيف....

— يا السايح ...! بل هم أبناء كلبة... يلعقون الأحذية... ولا يصلح معهم غير القمع والسوط، أنا أعرفهم جيدًا، فهم كالوحوش الضارية المتعطشة للنهب والنهش، متى حررتهم من القيد، خربوا ودمروا وعاثوا فسادًا، وأتلفوا كل ما في طريقهم، العنف يجري في دمائهم، والعبودية طبعهم، إن لم يجدوا سيدًا صنعوه، خُلقوا عبيدًا أبناء العاهرة، لا تقل لي الفقر والقهر، رأينا الفقر والعوز في أماكن معزولة بالمغرب، وكان الناس ذوي عزة نفس وكبرياء، الفقر لا يصنع العبد، قد يصنع المتمرد، لكنه لا يصنع العبيد... انظر ماذا فعلوا...؟ كانوا يخافون ظلي، وحين صرت بلا سلطة، انقلبوا رأسًا على عقب... الغوغاء والدهماء لا ثقة فيها... تصفق لك اليوم وترميك بالحجارة غدًا... لهذا كنت أقول: إننا مجتمع لا تصلح له الديمقراطية ولا الانتخابات... كيف تجعل مصيرك بيد التافهين والغوغاء والعامَّة التي لا تجد حرجًا في بيع نفسها بل الزج ببناتها في الدعارة.... ؟! نحن نحتاج إلى سلطة قوية، تفرض الخيارات والخطط، لسنا في حاجة إلى أحزاب ولا نقابات تبيع الوهم، وتتجر بالديمقراطية، الديمقراطية ليس دواء لمرضنا... دواؤنا هو تربية الغوغاء... حين نرتقي بهؤلاء ونشفيهم من فيروس العبودية، نستطيع أن نفكر في الديمقراطية...

— يا صلاح حيران... إن لم يجربوا كيف يتعلمون...؟

— سنخسر الزمن والوقت في تمرينات بلا فائدة...

— المهم... هذا حديث آخر...

— أرى أنك حكيم متعلم... أكنت تمارس السياسة... يومًا ما...؟

cوهل من أحد لا يمارس السياسة ولو تأففًا أو تذمرًا وشكوى عابرة أو توجعًا تلحقه نقمة...؟ يا سيد صلاح حيران...! الكل يتنفس السياسة... وينطق السياسة وهو يمر على الأسواق، وفي الطرقات، والعمل، والمساجد، والحانات، والمقاهي، وفي أسِرَّة النوم، يمارس السياسة وهو يؤدي فواتيره باحتجاج محتشم أو صاخب، يمارس السياسة وهو يقف في الطابور ناقمًا من المحسوبية والفوضى، يمارس السياسة وهو يناقش زملاءه قضية من القضايا ولو تشكيكًا في نزاهة حكم مباراة لكرة القدم، ويمارس السياسة وهو يرعى مرضاه شاكيًا بصمت أو صخب من حالة المستشفيات، وتفشي الرشوة والإهمال كالسرطان، يدفن موتاه وهو يمارس السياسة حين يعبر عن دهشته من جغرافيا المقابر، من وجود مساحات للدفن محجوزة محاطة بسور كأنها قصور للموتى، ومن تملق حفار القبور وحفظة كتاب الله لذوي الجاه والمال... السياسة تسكن تفاصيل الحياة اليومية....

حاول صلاح حيران أن يسبر غور الرجل فوجده عميقًا جدًّا، مظلمًا بلا قرار، وكان كلما حفر بعيدًا ولو بلطف وأناة تصدُّه صخرة الممانعة، وجلاميد تحول دون الوصول إلى أسراره وأعماقه، فقد كان السايح رغم ذلك مستعدًّا نفسيًّا لتحويل الموضوع كلما تعلق الأمر به وبحياته وماضيه، كان يقدم معطيات ملتبسة مبهمة تليق لأي حياة، كزخرف العرافين والكهان، كان يبعد نظره بعيدًا، ويقول وهو يطلب هواء عميقًا: «لا أحد يعرف نفسه، فكيف تعرفها أنت...؟ قد نقترف أخطاء أو خطايا تكلفنا حياتنا دون إرادة منا، فالغريزة والشهوات روضهما الإنسان وربَّاهما عبر حقب طويلة من الصراعات الدموية، لكن الشر يظل كامنًا في بعض النفوس، وينفلت رغمًا عنها من عقاله، من يدري من الضحية ومن الجلاد...؟! كلنا ضحايا وجلادون في الوقت نفسه... وحياتي هي حياة عادية ما لم يركبها الشيطان... هههه... أليس لكل منا شيطانه...؟».

بحث عن حقيبته طويلًا، يعلم أن رقية أبعدتها عن عيونها؛ لأنها تنكأ جراحه وتفجر فيه الحنين، فقد كانت نعم الرفيقة الوفية له في كل رحلاته وأسفاره المهنية، لم يغيرها منذ التحق بالسلك الأمني، كانت من جلد رفيع غير مزيف، كان يفخر بها بين زملائه، ولا يتوانى عن تصحيح مفاهيمهم، فقد كانوا يقولون له: إنها مجرد حقيبة من جلد البقر وهو الأرخص، ويتغير لونه باستمرار، فيضحك ساخرًا منهم، مُقوِّمًا معلوماتهم مرددًا باعتداد: «يا حمقى...! أنتم لا تفرقون بين جلد البقر وجلد العجل، هذه حقيبة نادرة... تحفة... من جلد العجل... المسوها جيدًا...! برفق وحنان... فهي كأنثى جميلة، نعرف قيمة جمالها، وقوة فتنتها، وتأنف من العبث». وكثيرًا كان يقعر النبرة في العبارة التالية مبتسمًا ابتسامة ساخرة: «جلدها ناعم أملس برَّاق، وهي خفيفة الوزن مقارنةً بجلد البقر، وصناعة تقليدية يدوية، مرت بمراحل متعددة «بدار الدباغة» بفاس، قبل أن تتشكل وتأخذ لونها التبغي، فهي كلما تقدمت في السن ازدادت جمالًا وبهاء ورائحتها تخلب العقول، وتترك أثرًا طيبًا في النفوس... شموا ... شموا ... مرِّروا أياديكم يا بلداء لتعرفوا الفرق...! وتتقزز من العفن، وتعاف الأيادي المتسخة...».

هذه العبارة الأخيرة المستفزة لها معانٍ كثيرة وتأويلات قاسية، ووقع جارح عميق في نفوس زملائه، يمتعضون منه باستياء وهم يتبادلون النظرات الخاطفة القلقة بينهم وصدروهم تجيش غيظًا، وقد تكون عبارته لمزًا وهمزًا، وتعني الكثير، وتلمح لما في ملفاتهم، أقلها اتهام مبطن، أو عقوبة إدارية سارية المفعول، خصوصًا من لهم تاريخ في الفساد والرشاوى وعدم الانضباط وضعف المردودية، وهو قريب من كل الملفات، والرجل الثاني في المصلحة بعد العميد الممتاز «بوعزة» ومطلع على ملفاتهم المهنية، لهذا يلوذون بالصمت خوفًا أو حرجًا، ويرمي طوق النجاة من الموقف الحرج الذي هم في شراكه يتخبطون ضعفًا لا حول ولا قوة لهم للرد، رئيسهم الذي يصله دومًا سجالهم وجدالاتهم، ويعلم مكر صلاح

حيران وقدرته على هز ثقتهم في أنفسهم، فهم أبناء عائلات، ومن أصول معروفة، وهو ابن ميتم، لا مجد له غير عمله ونقاء ملفه ورضا رؤسائه، ويهفو لنوع من التعويض عن هذا النقص، فيسد فارق الأصل الذي يؤلمه، بالطعن في خلقهم، وكشف عيوبهم، واختلالاتهم المهنية، يزمجر بغضب صائحًا: «يا كسلى...! العمل... وأنت يا صلاح حيران ...! ارفق بزملائك...! ولا تنسَ فأوساخ أحدنا هي أوساخنا كلنا جميعًا، وبالنسبة لحقيبتك، لا تغتر كثيرًا...! من علم أشياء غابت عنه أشياء، وفوق كل ذي علم عليم، هناك حقائب ثمنها خيالي، كتلك المصنوعة من جلد التمساح المصقول أو ذي الحراشف، وتلك المصنوعة من جلد الأفاعي... أي نعم، لا تعجب... أراك مندهشًا... جلد الأفاعي والأسماك وجلد النعام... عالم الحقائب الجلدية كعالم اللوحات الفنية والأزياء... هناك حقائب لا يصنع منها إلا واحدة... لا تتكرر... الفنانون والممثلون والسينمائيون هم زبائن هذا النوع من البضائع... هيه...! كن حاضر الذهن والبديهة...! فأنا طبعًا لا أتحدث عن فنانينا هنا..... الذين يعيشون على الكفاف والعفاف».

يصمت الجميع ويعودون إلى ملفاتهم، فالرئيس «العميد الممتاز» بوعزة دائمًا يفحمهم ويقنعهم بل يمتعهم بغزارة المعلومات والمعارف والمهارات، لهذا لا يجدون ما يضيفون غير الإفادة من خبرته ودفق معلوماته، وإن كانوا أكثر تعليمًا منه ولهم شهادات عليا، فهو أكثر معرفة منهم وخبرة، ولا تقاس شهاداتهم بما راكمه هو من تجربة واكتسبه من خبرات خلال مشوراه المهني، وكان كثير القراءة والاطلاع، ما زار بلدًا إلا عرج على مكتباته ومتاحفه وفضاءاته الأثرية والثقافية، متجدد المعرفة، في شخصيته تلتقي المفارقات والمتناقضات وتتآلف بغرابة وعجب، قسوة مع رحمة، مكر مع ذكاء، فطنة مع بطنة، قد يبدو كناسك عافَ الدنيا وملذاتها، لا تفوته صلاة جمعة، وبعد حجته يقصد أرض الحجاز البهية كل عام لأداء العمرة، وحين يباشر عمله محققًا أو مستجوبًا، ينسحب وجه العابد، وتفتر ملامح وتعابير الخاشع، ويخرج كائن آخر أشد قسوة، خليع اللسان، متهتك

الألفاظ، لا يتورع عن اللجوء إلى أفحش الأساليب لانتزاع معلومة أو خبر، وما أكثر ما توقف عن حصة تعذيب عند سماع الأذان، واستغفر ربه ولعن ضيفه الثقيل وبصق في وجهه، وذهب ليتوضأ أحسن وضوء، على وضوء لم يبطل شيء، وصلى أحسن صلاة بخشوع، وجلس دبرها للدعاء والذكر والبكاء أحيانًا، ثم يعود إلى ما كان فيه بحماس ويقين؛ إنه يخدم بلده ويجنبها الفتنة، وإن الفتنة أشد من القتل، وما يقوم به يعتقد أنه من صميم الإيمان، حماية لدار الإسلام والمسلمين من الشيوعيين والإسلاميين الذين شقوا عصا الطاعة، وأرادوها مِلَلًا ونحلًا وقددًا، وكان لا يترك نافلة، سريع التأثر والبكاء في صلاته، سريع الغضب وابتكار أساليب القهر لنزلاء دهاليز الجهاز من الماركسيين والماويين والتروتسكيين والنشطاء الإسلاميين الذين أسسوا جماعيات سرية، وغلفوا مآربهم السياسيَّة الخفية بغطاء الدعوة والإحسان، وكان أشد قسوة وغلظة مع من يشكك في شرعية النظام وينتقده علنيًّا أو بتوزيع المنشورات، ومع من يشكك في إسلامية الدولة منكرًا عليها توجهها السياسي ويفتن في حياة الناس العامَّة، فالعامَّة عنده قد تضل بدعوة داعٍ إلى الله، منكر الحانات وما يعده فواحش، ويرى أن قطع لسان مثل هذا أضمن للاستقرار والأمن والتئام الجماعة وعدم تفرقها، وكان يردد بيقين وثقة: «فرقة الأمة ولو بدعوة صادقة سرطان يستفحل معه الضعف والوهن، ودوره وأد نار الفتنة التي تأتي على الأخضر واليابس». وكان يغضب غضبًا جامحًا من كل متطرف ويصرخ: «كل دعوة متطرفة خراب، وما التغيير إلا بالتربية وجهاد النفس والصبر، وبالنفس الطويل لا بالعنف والتطرف واللعب بمشاعر العامَّة والغوغاء، ولسلطان غير عادل في بلد آمن خير من بلد تعمه الفوضى المدمرة».

كان يعتقد أنه من العدل توفير الأمان وحماية الناس في أنفسهم وممتلكاتهم، وحماية البلد من المؤامرات الخارجية بعناوين مدلسة، يقول باعتداد بنفسه في خيلاء مفضوحة وهو في مكتبه وزملاؤه يتابعونه كالمسحورين أو كالمريدين: إن الإسراف في إبداء الرأي في أسلوب الحكم

من لدن العامَّة والفوضويين والمخربين من شأنه إسقاط هيبة الدولة، والدولة هيبتها في توقير الحكام والسلاطين، وإسقاط هيبتها قد يبدأ باستهداف ممثليها، فإن سكت الحكام عن تحقير ممثليهم الصغار وتسامحوا وتساهلوا مع الأمر، فتحوا شهية المخربين للمزيد، فيقفزون إلى المرحلة الثانية من مخطط التخريب كما دربوهم باستهداف من يوجد في أعلى السلم، وهكذا مكرهم وحيلهم اللذان تعلمونهما في الخارج كطرق وأساليب قلب الأنظمة وزرع الفتن، بدعوى السلمية والمطالب ذات القناع الاجتماعي، وفي خلفيتها عنف خفي يحرق الأرض وما عليها، أحيانًا باسم الحرية وأحيانًا أخرى باسم الديمقراطية ويدعمهم المتآمرون الحاقدون أو المتربصون بخيرات البلد التي لن يطالوها إلا والوطن في حالة فوضى، ويردف دائمًا.. إن كونه خبيرًا أمنيًّا مجربًا لن تنطلي عليه خططهم الماكرة.

العميد الممتاز «بوشعيب» خبير أمني، حج بيت الله واعتمر أكثر من مرة، فهو يرفض باستياء حد الغضب أن ينادوه بلقب الحاج، مشددًا على كون ذلك بدعة، والحج لله لا لغيره، وكانت له سُمعة طيبة في محيطه وعند جيرانه، فهو الشرطي الورع الذي يخاف الله، ويتقاسم معهم الصفوف الأولى عند صلاة الفجر، ويصل الرحم، ويتبادل زيارات الأعياد، ويجيب دعوة كل داعٍ لعقيقة أو ختانٍ أو زواج، ولا يتردد في حضور الجنازات وتقديم العزاء، والدعم المادي لذوي الميت وللمرضى والمعوزين، وكان هو المثل الأعلى لصلاح حيران ولكثير من زملائه، أحبوه قبل أن يحترموه، فهو يرعاهم رعاية الأب لأبنائه رغم قسوته، ويحتضنهم، ويدافع عنهم، ويمهد لهم طريق الترقيات والسمو بتقارير إيجابية كل سنة.

كيف أقنع «السايح» «صلاحًا» بالسفر ملتحقًا بزوجه رقية إلى واحة «أغمانا؟!». سؤال تردد في خلده وهو في قلب حافلة مقيتة يلعنها كل مسافر جديد، وكل من لم يسبق له السفر في هذا النوع من الناقلات التي لا خيار للمسافر في غيرها، ما إن يرتقي درجات سلمها المغبر، ويسرح بنظره في الوجوه والأجواء، حتى يرتسم الاستياء على محياه، يتجعد ما

بين عينيه، ويهز رأسه كأنه وقع في كمين، ويتخذ له مقعدًا مهترئًا، وقد سبقه المعتادون على السفر على هذه الطريق إلى المقاعد الصامدة، فهم يرتضون وسيلة للنقل، وخبروها وألفوا الوجوه السائقين، وجلهم من أهل الجنوب.

انطلق الوحش الحديدي المنهك مزمجرًا بزئير محركه، متثاقلًا ينور بأوزار الزمن، غير مبالٍ باللغط والصخب، والصهد واللجب، يقطع طرقًا وعرة صعبة تهز قلوب البعض، وخصوصًا النساء والأطفال، ويتطلع آخرون بحبور وسكينة إلى المشاهد الخارجية لطريق ضيقة بحافتين مرعبتين، وهم يتجاذبون أطراف الحديث تصايحًا وجدالًا مرهقًا، وحين تصل إلى منعطف ضيق ملتوٍ جدًّا ين الجبال الشاهقة بسلسلة الأطلس الكبير، يشعر صلاح حيران بالرعب ويهتز قلبه وتتملكه الرغبة في القيء، من ثقل القيظ، وتلوث الهواء برائحة المازوت المقرفة الخانقة، وروائح العفونة والعرق، والأطعمة الفاسدة، فيكثر قيء النساء والصغار، وتعلو سحابات دخان التبغ الرخيص الخانق بلا حرج، وتختلط موسيقى صاخبة توتر الأعصاب وأحاديث المسافرين العالية بصخب كأنهم في خصام، ويزداد الوضع سخريةً استياء حديث مساعد السائق لرجال الدرك بين الفينة والأخرى، هم يعدون عدد المسافرين الذي فاق الطاقة الاستيعابية للحافلة وهو يبتسم ساخرًا لامزًا هامزًا حين يودعهم، دون أن يتوقف عن التأفف والتذمر عند كل سد أمني، والشتم أحيانًا.

يترك صلاح حيران وراءه الدار البيضاء بهوسها وهو يلعن حي الضفادع وأهله وعفنه وزبالته وغطاسيه ونباشيه، متجهًا نحو قلب الصحراء عله يجد مخرجًا لأزمته كما أوحى له بذلك السايح الذي عصي عليه فهمه، وتحليل شخصيته، وتحديد ملمح واضح له، رغم خبرته الأمنية، لكنه عده لغزًا، ويجر وراءه ماضيًا يؤلمه، يهرب منه بحاضر مهما بدا لنا مُرًّا فهو أرحم من حياة سابقة له، وفي الوقت نفسه جالت في خاطره عبارات كاد يصدح بها: «هذا الرجل يهرب من شيء ما، فهو متعلم وخبر الحياة،

وممكن أن يعيش أفضل، فطن وذكي حد الحكمة، حتمًا ليس كما يبدو... أعرف الناس، أعرف قدرة البعض على التبدل والتلون كالحرباء، أكثرهم ممثلون بارعون وخصوصًا الأذكياء والمتعلمون، السايح هذا ليس كما يبدو... هو نار تحت رماد... سأكتشف قصته يومًا ما...».

تزحف الحافلة بين المنعرجات الحادة، كأفعى قرطاء في يوم قائظ من شهر يوليو/تموز، وقلوب المسافرين تهتز لاهتزازها، ويرفعون التكبيرات مصلين على النبي كلما مالت ميلًا مخيفًا، فهي متهالكة يضج محركها الصاخب ويخور عند العقبات حتى لتكاد تتقهقر نحو الحافة تنتشر فيها روائح نتنة، ومقاعدها الجلدية أكثرها غدا بلا جلد، تآكلت حشوته الإسفنجية، فلم يبقَ منها إلا السرير الحديدي المؤلم؛ لهذا كان الناس ممن ألفوا السفر على هذه الحافلات، تأتون بالوسادات التي تقي أردافهم ألم الجلوس الطويل على مقاعد لم يبقَ منها غير قضبان حديدية وأسلاك متشابكة، ويزداد الوضع قتامة حين تختلط في الأجواء ذرات الغبار الخانق الذي تحمله الرياح بين الشقوق والشروخ، وبقايا الطعام ودخان السجائر وبرازوبول الرضع، وقيء النساء والصغار، ورائحة العرق والصنان، تشحب الأرض وتصفر الوجوه والكائنات، وتختفي الأشجار والحقول الخصبة، وتحل محلها طبيعة تكابد العطش والجفاف، وشح المياه، وزحف الرمال، وتجبر الرياح وترتفع الأرض رويدًا رويدًا، تصير هضابًا ممتدة ثم تعلو جبالًا وعرة، تفقد خضرتها ونضارتها، ليحل الشيح والتين الشوكي والقحط، وتمحو الرمال الزاحفة مظاهر الحياة إلا من واحات خضراء هنا وهناك، تحيط بالصحراء القاحلة الجرداء.

على حين غرة داهمته نوبة الذعر، فتفصد جبينه عرقًا، ثم رشح كل الجسد، وضاقت أنفاسه حتى غدا كأنه يتنفس من سم إبرة... دبت الرعشة في ساقيه، جف ريقه، علت نبضات قلبه، صار يسمعها كدقات طبول صاخبة في أذنيه، ويرد رجعها مسند الرأس بمقعده، طفق ينقل نظراته الخاطفة بذعر وتوجس بين الوجوه والأشياء، تستقر حينًا على وجه

يظن أنه سبر غوره وكشف ضعفه، شاكًّا أن من حوله يسمع هو نفسه هذا الصخب في قلبه، مراوغًا محنته وعذابه باصطناع ابتسامة كأنه يقضها من الصخر، جاهدًا في ستر اضطرابه خوفًا مما يخاله فضيحة، ندم على استجابته لنصيحة السايح، فمر في خلده طائف يؤنبه على قرار السفر المتسرع إلى مكان بعيد وناءٍ، في حافلة تضيق بالأنفاس والأجساد والأشياء، وترهق حتى من كان سليمًا صحيحًا، وهو لم يتخلص بعد من نوبات الذعر.

في لحظة خال أن الحافلة توقفت، وركنت على جانب الطريق الوعرة، وأقبل كل الركاب نحوه، ينظرون إليه، ويحملقون في وجهه، بين مندهش وضاحك وقلِق ساخر، ومنهم من يجس نبضه، وآخرون يفتحون أزرار قميصه، ويهوون له بأيادٍ خشنة، فجأة يعلو نفير الحافلة وهي تهتز اهتزازًا قويًّا، فيؤوب إلى الواقع، وكان قد أغمي عليه إغماءة خاطفة، فلا أحد غادر مقعده، والكل منشغل بحاله وشأنه، أم مرضع، عجوز تدلك ساقيها المتنملتين المتورمتين من اضطراب جريان الدم، شيخ يتمتم وهو يقيم صلاة الراحلة بخشوع منقطعًا عما حوله، كأنه لا يسمع الصخب واختلاط الأصوات، شباب تباينت ملابسهم من عصرية إلى قروية، وسحناتهم اختلفت بين سُمر وبِيض وسُود وحُمر وخُمر، تعددت ألسنتهم بين عربية دارجة، وأمازيغية بلكنات مختلفة، وحسانية ببصمة صحراوية أقرب إلى الفصيح، واختلطت أذواقهم الفنية والموسيقية خاصة بشكل جلي، يضعون أجهزة استماع «ولكمان»، أو آذانهم ملتصقة بأجهزة المذياع الصغيرة الحجم، منهم من يستمتع بالموسيقى الشعبية الأمازيغية، وآخرون بالأغاني القروية العربية، وقلة بالموسيقى الشرقية الطربية، بعضهم أيضًا ينصتون للقرآن الكريم بهدوء منقطعين عما حولهم.

أثار انتباهه ارتباك فتاة شابة جميلة، يفوح منها عطر الليمون والياسمين، وتبدو من أهل المدينة، أحرجها راكب بجانبها، كان وقحًا وربما استسهلها فقط لسفرها وحدها ولأناقتها، فغيرت الفتاة باستياء وغيظ

المقعد وهي ترفس قدمه حتى احتج صامتًا بنظرات قاسية لم تتطور إلى ألفاظ، وقد انتصبت فوق رأسه تنتظر ردة فعله، فصمت وأطرق الجبين، متظاهرًا بقراءة صحيفة، خطت وئيدة إلى أسوأ مقعد في مؤخرة الحافلة صمامات الصدمات فيها متهالكة، ورغم جحيم هذا النوع من المقاعد، لكن يبدو أنه أهون من جحيم الراكب الوقح الذي همس في أذن مساعد السائق فتعقبها وهي تَستوي وتُسوِّي جلبابها الأزرق السماوي الذي التصق عليها، فكشف بعض مفاتنها، وظل مساعد السائق يهز رأسه وهو يفتل بخسة شاربه، فتفضل عليه الراكب الوقح بسيجارة من التبغ الأشقر وأشعلها له بولاعة ذهبية، فانتشى وطال الحديث بينهما.

وأشعل صلاح حيران سيجارة، وطفق يلتهمها التهامًا، وزاد مشهد التحرش من وجعه، وتمنى لو كان بإمكانه إطلاق الرصاص على هذا الوغد، ولم يجد بُدًّا من ابتلاع قرص من المهدئ، فارتعشت أصابعه وهي تبحث في الجيب الداخلي لسترته، مرتبكًا أسقط بحركة طائشة محفظة أوراقه، وتدحرج قلم بين أقدام المسافرين، انحنى وهو يزحر؛ تكاد أنفاسه تنقطع لجمع أوراقه، مدَّ يده بمشقة تحت الكراسي ليلتقط القلم، يحمل إليه تيار الريح الذي يلهو بين الشقوق والشروخ والفراغات، روائح مقززة عفنة، يشعر بالغثيان، يضع كفه على فمه قامعًا القيء الذي غلبه حتى دمعت عيناه، يلتفت إليه طفل جالس في مقعد أمامه، يبتسم ثم يشعر بإثارة فيضحك ضحكًا عاليًا وقد تغير وجه صلاح حيران حتى غدا مثل مهرج وهو يقاوم الغثيان، يظل الطفل يضحك ويضحك، ظنًّا منه أن الرجل يلاعبه ويمازحه، في لحظة عابرة تستهوي اللعبة صلاح حيران، فيقوم بحركات بأنفه وأذنيه تزيد الطفل بهجة وسرورًا وضحكًا بعفوية وبراءة، ينسى الغثيان، يختفي الذعر، ينتظم تنفسه وتعود دقات قلبه إلى وتيرتها العادية. تفطن الأم التي كانت قد غفت لابنها وهو يقلد صلاحًا، فتزجره وتنهره بعنف وغضب ليجلس مستاء وهو يغمغم، معتذرة بابتسامة دون أن تنبس ببنت شفة رغم شعورها بالحرج، ينتهز الطفل ذو الأربع سنوات

على ما يبدو غفوة أمه المتعبة من جديد وقد أرهق جسدها رضيع لا يكف عن الرضاعة والبكاء من حين لآخر، يندس بين فجوان المقاد وهو يحبو، حتى يعثر على القلم الذي تدحرج بعيدًا، يلتقطه بفرح وهو يضحك ببراءة من بين الأقدام، ثم يندس خارجًا من بين الأقدام، حتى يقف قرب صلاح حيران، يمد له القلم وهو يبتسم مُرددًا: «عمي...! عمي...! القلم...! القلم...! قلمك...!».

أحس بشعور دافئ يغمر صدره وبإحساس جميل فيه من السكينة والرحمة ما جعل أذنيه تنتشي بنداء الطفل «عمي»، تمنى لو أعادها، لو ظل ينطقها ثم يعيدها، لم يسبق له أن سمع طفلًا يناديه بعمي، ولم يسبق له أن استجلى في زحام الحياة وضغوط مهنته البراءة والبهاء في عيون الأطفال، فهو لم يختزن في عقله غير صور لأطفال خائفين محرومين من الأحضان الدافئة، والذكريات الجميلة، وذاكرته تحتفظ بصور لأطفال يعاقبون ليلًا ونهارًا، ويُحرمون من الطعام، ويعزلون في الظلمة عقابًا لهم، حتى فقدوا أرواحهم، ونسوا آدميتهم، فلم يرهم أبدًا أطفالًا أبرياء عفويين مبتسمين دومًا، بل كانوا بالنسبة إليه راشدين في أجساد صغيرة، يفكرون كالكبار، ويتحملون كالكبار، ويجيدون المكر والدهاء والرياء والوشاية والكذب...

ابتسم في وجه الطفل بصدق وبفرح، فسرى في دم جديد مشبع بالأمل كالنار الملتهبة في شرايينه، فلم يدرِ من أين جاءه هذا الشعور الغريب الذي بدَّد نوبة الذعر، وقد كان يترقب ما يعقبها من صداع قوي وطنين لا يطاق، انسحب الطفل مهرولًا وهو يقفز حواجز خيالية، ويخاطب كائنات صنعها من خياله في جو طفح بالبراءة والعفوية والطهرانية، أوشك خلد صلاح حيران أن يسافر به ألمًا ووجعًا ومكابدةً نحو مناجم جراحه الغائرة في عالم طفولة حزينة خائفة مترددة موشومة بالحرمان والعنف، كاد أن يتسلل إلى حاضره «الحلوف» بنظراته الحادة الباردة بلا عاطفة ولا إحساس، وفتحت صورة «الجنية» «مي نعيمة» ثغرة في

جبهة مقاومته النفسية لكل استذكار عنيد واسترجاع جامح جارح مؤلم، فعبر طيفها بسرعة البرق نحو عقله يجر وراءه ظلال قاتمة مخيفة، فتناسلت في خلده مشاهد متشابكة استجلى منها عقله مشهد جراح لا تندمل، مستعيدًا صورة مي نعيمة وقد غدا وجهها بلا ملمح بشري ولا عاطفة إنسانية، فقط تزمجر وتلعن وتشتم بكلام بذيء وتهوي بالحزام الذي ينهكها هي نفسها، فتتوقف لاستجماع أنفاسها المتقطعة وقواها الخائرة، المشهد يعكس ما تبقى من حصص عقابه، بحزام جلدي تليد خشن بالمكتب المظلم الذي تعلو أجواءه روائح العفونة والقمل من بقايا اللحم التي كانت تهمله حتى يفسد، واستحضر السبب الداعي للعقاب، أنه في صباح ما ليوم بارد جدًّا، تأخر عن الاستيقاظ كسلًا وشعورًا بالقر، وحضر لقاعة الأكل، ورائحة البول تفوح منه، والقانون العام الذي وضعته المديرة «الجنية»، هو أن من يتبول ليلًا، يستيقظ قبل الآخرين بساعة، يغير ثيابه وفراشه، ويغسل ما يجب أن يغسل ويرحضه بالصابون ثم ينشره على السطح، قبل ساعة الصحو الجماعي، وتذكر الحلوف وهو يثبت قدميه منتشيًا، وكانت من عادتها أن تعاقب الكاتمين أنينهم أقل من الصارخين المنتحبين، فكلما زاد صراخهم وبكاؤهم زادت حدة الضرب وطال زمنه، لهذا كان عليهم أن يقمعوا الأنين والبكاء والصراخ، لتخفف عنهم العذاب ولا يطول زمن جحيمهم.

عاد إلى حاضره على وقع سعال وتململ الشيخ المشرق المحيا الذي يشغل المقعد الملاصق لمقعده، كان الشيخ أزهر الوجه، هادئ الملامح، مطمئن النظرات، تفوح من ثيابه رائحة العنبر، بلحية مهذبة ومشذبة بعناية، تلحف جلبابًا أبيض خفيفًا، واعتمر عمامة صفراء، وانشغل بعمق وخشوع منذ انطلاق الرحلة بالذكر؛ معتمدًا على السبحة البلورية الحبات، مبتسمًا بهاء وسكينة، وبوجه يفيض نورًا ومودة، نظر إلى صلاح حيران مبتسمًا، ثم وضع يده المجعدة الضامرة الأصابع على يده، وبدأ يرقيه بصغار السور بعدما نقل كفه إلى رأسه.

هدأ روع صلاح حيران من جديد، وأذهب فعل الشيخ عنه صور الماضي القاتلة للسكينة، ثم سلمه مصحفًا صغيرًا، وقال له بحنو وعطف: «خذ يا بني...! هذا كتاب الله، اجعله رفيقك في السفر يذهب عنك الخوف والحزن...! فأسرار الله مداخلها كثيرة، طوبى لمن اهتدى إلى باب رَفْعِ الكرب بالتضرع لقاضي الطلب...». ما إن همَّ بشكره وردِّ فضله ولو بطيب الكلم حتى غفا الشيخ من جديد دون جهد وارتفع شخيره ثم تدلت رأسه.

عاد الطفل مجددًا ليطل عليه مشرئبًا بعنقه الرقيق الصغير من فتحة على المقعد يناديه، ويلوِّح له بيده الصغيرة الجميلة، ولم تغب عن الوجه المشرق شمس البراءة، وهي تشرق بسمة زهراء على شفتيه : «عمي...! أتريد حلوى...؟ معي... حلوى...».

لوَّح له أيضًا مبتسمًا بوجه طلق بشوش تبددت في أفق ملامحه وتعابيره سحابات الحزن والقلق والتوجس التي لازمت نظراته لزمن، ثم قام بحركات تهريجية بأنفه وشفتيه ودلق لسانه، وغدا يحركه كأفعى، ثم أصدر أصواتًا غريبة باحتكاك لسانه بشفته السفلى وهو يؤرجح رأسه، وحاكى حركات القرود، فازداد فرح الطفل وعلت ضحكته، وطفق ينط وهو يرقص حبورًا غامرًا، رفع الشيخ رأسه وقطع غفوته على صخب الطفل حملق فيهما مليًّا، ودنا بوجهه من أذن صلاح حيران كمن يريد أن يسر شيئًا وقد رسم ابتسامة بهية على شفتيه وهو يقول: «يا رجل ...! لا تطل الانتظار...! ولا تكن رهينة ما مر، فما مر ذرته الريح، ولم يعد في الحسبان إلا في سجلات الرحمن...! من حبس نفسه فيما مضى من جوى وهوى، مات حيًّا ولم يدفن في الثرى... وكم من حي ميت، وكم ميت حي...! ستكون أبًا سعيدًا يسعد بك أبناؤك... هذا حظك من دنياك». مال نحوه مستغربًا ليسأله كيف عرف، فغاص الشيخ مرة أخرى بدون جهد في غفوته، وظل الطفل يقهقه ويصيح بشغب: «عمي...! عمي...! عندي خبر وزبدة... أتريد رغيفًا.... عمي...! عمي...!».

(8)

ها أنت في الصحراء الحراء وجهًا لوجه، تلفح وجهك الريح الحارقة لفحًا كسياط شديدة اللهب، تتعرق بقوة وغزارة حتى يبتل نحرك وظهرك ومفارق رأسك ابتلالًا، ولا تعير الأمر اهتمامًا، وقد خلب عقلك ما عطل فيك مشاعر التذمر والقلق، رقصة شهر يوليو/تموز الجامحة هنا على الجمر والحر مختلفة عن رقصته الخجولة الرطبة بالدار البيضاء، حيث نسمات البحر تروض السموم وهبات الريح الشرقية العابرة بلفحها الذي يشكل ظاهرة مناخية استثنائية في حاضرة الاعتدال المناخي، هنا الطبيعة سلطان يسود ويحكم، تبطش وتحن، تغلل وتبسط، تضحك وتغضب، تجود عدلًا وتقطع عذلًا، قد لا تطاق ولا تحتمل إلا من ألفها وألفته الفيفاء في السراء والضراء، وتقاسم وإياها الأمل والحلم والاعتصار والترقب زمن الخصب وزمن الجدب..

ها أنت كأنك على كوكب آخر بكر، تستجلي بفضول طافح تضاريسه الغريبة، هذه الفدفد الحراء تكاد تنصهر حجارتها الصقيلة البراقة اللامعة وهي تحتضن سياط السماء الحارقة، صحراء غجرية المزاج، تستوي حينًا، ثم تنثني بحياء كراقصة محتشمة دون أن تكشف عن مفاتنها، إلا حين تفتح أسرارها هيامًا وشوقًا للكثبان الحالمة، والتلال المتيَّمة، والأمواج الرملية الشَّغِفَة، ها أنت تُهْتَك لك حجب الأسرار الغامضة لأول مرة، فترى ما لم تكن تراه في زحمة الحياة وأوهام العيش الرتيب، فتتخلص من رائحة أوراق الملفات القديمة البالية التي يعلوها الغبار، كم كنت تنتشي بلذة ومتعة برائحة الورق المهترئ البالي...! ما كنت تحسبه

عاديًّا بلا قيمة جديدة، غدا اللحظة خدرًا دافئًا يسري في شرايين حياة كانت معطلة الدهشة، فترى هذا الوجود الرملي الذهبي الخالب كناسك بوذي مدثر بعباءته القمحية بقلبك ولواعجك، مغيبًا بين حكمة الصمت وترانيم العشق تصب الماء على رأسك فيسخن توًّا وهو يندلق على صدرك، فلا تهتم، فقط تصيخ السمع للسطوح الرملية وهي تتبادل الهمس والحلم عند احتكاك الريح بها وهي تهب هبوبًا فتهز أوتار قيثارات خفية، وتصدح طبول من عدم، وتختلط أصوات كجوقة موسيقية تؤدي تراتيل مقدسة.

ها أنت مأخوذ مقتلع من كينونتك المملة، بهذا التجلي العجيب الذي يلغي جاذبية الأرض، فتشعر كأنك صرت طائرًا يفد جناحيه في الأعالي قبضًا وبسطًا بخيلاء وسموق، توشك الشمس على المغيب، في رحلة عودتها طلق كتوم واعتصار قرنفلي ونزيف كجراح العاشقين، الصهد يخفت رويدًا رويدًا، الروح مبتهجة بالجمال والامتداد التبري، تمنح الطبيعة فجأة الجسد نسيمًا لم يتخلص كليًّا من حر الحراء فيرطب الجسد وينسم المشاعر.

ها أنت تهتز اهتزازًا عنيفًا من حين لآخر وأنت في عمق سيارة رباعية الدفع، هي الوحيدة التي تنقل العائدين من الحواضر والمدن والقرى القريبة إلى الواحات الحالم نخليها بسمو وكبرياء بدفء أهلها وعودة من هجروها بحثًا عن حياة ممكنة، ها أنت في جوف الناقلة الضارية وهي تلتهم الطريق التهامًا، ترتقي الكثبان تكاد تميد، وتتدحرج وئيدة ثم تستقيم، ذرات الرمل تتسلل إلى الداخل، وحين تعصف الريح من حين لآخر، تغدو الرؤية صعبة، لولا رؤية البصيرة ونور الخبرة، لضللتم وما اهتديتم، تهتز وتهتز ولا يشغلك غير ما تراه، كم كنت أعمى...! ظننت نفسك أنك تعرف العالم والناس والوجوه والأشياء، وأنت لا تعرف الحياة إلا محاصرة بكل أنواع القسوة والشدة، تقرر في دواخلك أن ترتشف كل هذا الجمال دفعة واحدة، فتشرئب بعنقك من النفاذة، تتعقب تقلب الرمال الزاحفة بعنف بلا هوادة، وهي تصدر أصواتًا كأنها

همس «الجن»، عند احتكاك هزيع الريح بها صيفًا، وبخريقها البارد شتاء وخريفًا، ها أنت في حالة ذهول ودهشة، مفتون بهذا الامتلاء العجيب الذي زاوج السحر والقهر، والافتنان والعزلة، تحاول أن تفتك نظراتك بكل التفاصيل، أن تدوِّن ذاكرتك البصرية أقل خضرة معزولة، تشدك وسط هذا البهاء، تتعرف على نباتات وشجيرات مما يصل إلى العطارين من حبوبها وثمارها المجففة بالحواضر من طلح وسدر، ومن بعيد تتراءى لك سفن الصحراء على الكثبان والطرق الرملية، تتهادى في خطوها، أو رابضة في استراحة شجيرات عطوف، فلا تجود به الصحراء غير ظل شجرة السدر التي تظل صامدة ومقاومة لقسوة الطبيعة الصحراوية، ولسنين من الجفاف واحتباس المطر، لم تجد السماء منذ سنتين بالمطر على البلاد، فجفت الآبار وغاضت منابع الأمل في القلوب والأفئدة، ونفقت البهائم، وبدأ التفاؤل يحتضر لولا جذوة الإيمان والصبر والدربة على الشدائد وشظف العيش، وما يحزن الفلاحين والمزارعين هنا عوز ولا شظف عيش من جدب أرض ونقص غيث، أكثر ما يحزنهم حد الموت كمدًا، نعي أشجارهم وهي تغدو حطبًا للأفران، وفراق نخيلهم وهو يموت منتصبًا، لا من عطش، بل من كثرة الحرائق، فإذا كان ممكنًا تعويض البهيمة وحتى الولد والزوجة، فكل نخلة تموت، لا تعوض ولا تحل محلها نخلة جديدة، فالنخلة ذاكرة لعشرات السنوات، وفي قلبها ترقد صور الأجداد والقدامى وكل الحكايات عن الصبر والجلد والعطاء والخفاء، النخلة مدونة، وسجل صادق بلا زيف ولا تدليس، للوجع والفرح والترح والعطاء والعزاء والعشق والشعر، الحبر خليط ماء وصمغ الشجر، واليراع هدية الخيزران، على جذع النخلة وشوم الماضي برجاله ونسائه وأطفاله وملاحمها ومعاناته وآلامه، وآثار دماء لأقدام وأيادٍ لا يمحوها الزمن، النخلة تجيد الوفاء والعزاء للعابرين والرحل والفقراء والأثرياء، وحدها يستوي تحت سقفها الوارف وعلى موائدها المفتوحة على الغرباء يتآخى الضعفاء والأقوياء.

ها أنت على بُعد بضعة أمتار من واحة «أغمانا»، وتظهر لك من العدم والفناء الأصفر فجأة، خضرة محاصرة بالرمال، وحياة صاخبة، تتحدى الصمت الذي يحيط بها من كل جهة. ها هي الواحة يا صلاح حيران، بكل تاريخها وصمودها وأفراحها وأتراحها تقدم لك نفسها شهية عند الأصيل، وتحدق طويلًا كالمسحور في قرص الشمس وهو ينزل سلم الوجود نحو مضجعه اليومي، ناشرًا نزيفه القرنفلي، كأنه يرحل عن مضض، كأنه ما زال متعلقًا بنفَس أخير من الوجود الجميل.

سيحل الليل بعد قليل، وأنت غريب على هذه الطريق التي تئز حجارتها تحت قدميك، وربما هي نفسها منشغلة القلب بهذا الغريب الذي يخطو الطريد، فلأديمها ذاكرة تختزن همس الخطو وعبث العرق، عليك أن تسأل عن وجهتك قبل أن يبعثر الظلام المعالم، وتختلط الخرائط والمشاعر، وحدهم أهل الواحة يبصرون ليلًا بمصباح القلب والذاكرة ورائحة التراب والشجر والنخيل، ما لا تستطيع أنت رؤيته في العتمة، تخطو في مسلك ضيق مملوء بالحجارة، وما زال يحتفظ ببِرَك آسنة، كأن الماء كان يجري هنا، عابرًا من بعيد نحو هذا المجرى الذي انتصب على ضفته الغربية «قصر» من الطوب والطين، يبدو أنه مهجور، قد تهالك سُوره، وتداعت حيطانه الطينية، وتهالكت أبراجه، هل طلل فحسب، يشهد أن أهل الواحة كانوا قبيلة واحدة يجمعهم هذا الفضاء العالي الأسوار، ذو أبراج الحراسة الأربعة، والبوابة الكبيرة، ووراء السور العالي، تبدو بقايا شبه مدينة بيوت خربة، وممرات ومعابر وسقوف ظلال، ومجاري مياه..

بدأت العيون تترصد هذا الغريب القادم عشيًّا، وتتعقبه بفضول لا يخلو من ريبة، فقلما يحل غريب بالواحة في بعيد الغروب بلحظات، والليل عندهم ديجور لا يتقن الإسراء فيه إلا دليلٌ أو خبيرٌ خبر الممرات والدروب والمعابر والطرق، أو أهل الواحة حين لا يبتعدون كثيرًا دون مرافقة خبير منهم أو مطلع كثير الترحال، كان يعبر بين ممرات ضيقة

بين النخيل الباسق، والصخور التي ينبع منها الماء على قلته، والجداول الجافة، ويتوقف من حين لآخر منعشًا بهواء معبق برائحة الشيح والزعتر، وتتوزع هنا وهناك على حقول صغيرة جدًّا أشجار الرمان والتين.

يصادف وهو يخطو، وقد نسي وجهته مفتننًا بسحر المكان، مخدرًا بالروائح الزكية، مزارعين لم يقفلوا بعد إلى بيوتهم، منهمكين في تغيير مسارب المياه القليلة جدًّا نحو حقولهم، يبدلهم السلام فيُمعنون في النظر إليه وهو يختفي بين الحقول، ودواخلهم منشغلة عن معرفة هويته، ترددوا في السؤال حتى أيقنوا أنه تائه لا يعرف وجهته، فخطا نحوه رجل ملثم، قد أحكم عباءته الزرقاء حتى لا تعبث بها ريح المساء العابرة، مبتسمًا يسوي عمامته، يُسلِّم عليه وهو يربت على كتفه بغرابة:

— السلام عليك... هل أدعوك إلى بيتي يا من ضللت...؟

يتفرس صلاح حيران في وجه الرجل الخمسيني الرقيق الوجه البارز عظمتي الخدين، ثم يرد عليه بوجه طلق:

— ما ضللت يا سيدي...

— من منا لم يضل...؟! سبحان الهادي الذي إن أحب عبدًا هداه... لكن ضلالة الطريق من ضلالة الرفيق... فهل يصح الخروج للصحراء شيخ ولا رفقاء...؟

— لم أخرج للصحراء ... جئت قاصدًا الواحة...

— وهل من فرج بلا كرب، وماء بلا طلق في رحم السماء...؟! وهل من سكينة لا يسبقها خوف، ومن ألفة لا تسبقها فرقة...؟! وهل من جنة لا تعرف بغير صقر، ومن واحة خضراء لا تميز بغير مشقة في صحراء...؟!

سقط في يده دهشة وذهولًا وإعجابًا، فاحتار في فصاحة وبلاغة هذا الرجل الذي ينطق حكمة وشعرًا، جال في خاطره أنه ولا بد عين من أعيان القوم، أو فقيه عالم، أو حكيم زاهد، أو مجرد عين من أعينهم، قد يكون القدر ذاته في ثوب الوقار، وبلسان الفضيلة، لا يهم... رد عليه بما يظهر رباطة جأش وغزارة ثقة بصوت قوي:

— صدقت... وإن كان منطقك كالعسل، فمن يدري أعسل من خابية أم عسل من خيبة...؟

— لا... أيها الغريب... هو عسل من حكمة لا خيبة، لكن صدقت... فالخيبات قد تصنع الحكماء، والانكسارات قد تكون صهوة العظماء، تذوق النصر يعني أولا معرفة مرارة الهزيمة، هل من عسل بلا لسع، وجني بلا كد، وجزر بلا مد... وزهد بلا قمع، وخلوة بلا روع؟!

— صدقت...

— قد أصدق اليوم وأفسق غدًا، لو لم يعصمني الله فضلًا منه ورشدًا...إيه...! من المقصود في هذا الوقت وما وجهتك...؟

— بيت الشيخ سي محمد الإدريسي...

— إيه...! نعم الشريف ولد الشريف... مرحبًا... قصدت خيمة الكبار ودار الأخيار، وبيت «الأسياد»... والله هو سيد «الأسياد»... أنت من المدينة إذن...؟

— نعم...! من الدار البيضاء.

— آه...! الشريف «سي محمد الإدريسي...!» العارف بالله.... شيخ الواحة العالم الزاهد... إنه يحتضر بين مودع ومتطلع، هو بين يدي الله تعالى، قد عمر حتى رد إلى أرذل العمر، لكنه ظل يقظا فطنا ومارده ربه أسفل سافلين، وإن غلبه وهن الجسد وضعف البدن، فغدا عبئًا على نفسه وعلى غيره، حتى تمنى هو الموت واستعجل أهله رحيله لا جبنا معاذ الله، لكن عذاب العقل السوي العالم في البدن الخائر لا يطاق...

— أفهمك يا رجل...! فالعقل يصير أحيانا جلاد صاحبه...

— الشرف له بنت تزوجت بمدينة «الغول» التي ما قصدها أحدهم إلا ابتلعته، أقصد الدار البيضاء، ما أمها غريب إلا طحنته ثم أعادت عجنه بخميرة أخرى، فيعود بلا لون ولا ذوق ولا أصل ولا فصل، الدار البيضاء وحش مفترس، يلتهم الأرواح، ألا تراهم يمشون ويهرولون كالحمقى؟! وإن من الحمقى لمن هو أحن وأرق من نسيم الليل.

— هل سبق وزرت الدار البيضاء؟

— زرتها حالمًا، وهربت منها غانمًا، لم أبع روحي، ولا فرطت في لوني ولا صفاء مائي، ولا خنعت ولا بعت ولا مسخت، الحواضر نعمة ونقمة، في سهولة عيشها وتعدد سبل سعيها نعمة مدلسة تقتات من ضياء النفوس، ونور القلوب، وإن كنت لا أدعي الصفاء كله، فأني نفيس ضللت وأنا بين قومي، فكان الجنون أهون علي من الكفر والضلالة.

— لم أفهم جيدا...

— هذا حديث سيطول.... تعالَ نجلس ...!

يندس الرجل بين النخيل، يكاد يختفي في هذه الغابة العاتمة، يتردد لحظة صلاح حيران حتى يحثه، فيقتفي أثره، يلجانِ خربة من «قصر» طيني قديم متهالك، لم يبق منه غير الرسوم والأطلال والخرب، يرتقيانِ سلمًا طينيًّا، حتى يصلا إلى ردهة تؤدي إلى عدة غرف، يفتح الرجل أحد أبواب الغرف، ويشعل فانوسًا، ثم يتمدد على فرشة على الحصير، ويدعو صلاح حيران للجلوس، وطفق يحكي وهو يعد الشاي بفرح:

— هذا بيتي... غرفة وحيدة يتيمة...خربة لم تسقط بعد، سقف من عطاء النخيل صمد ومنح وما ناح، دافئة قرا، باردة قيظا، لم يلجها أحد غيرك... أقيم مع الجن والأشباح والماضي... حتى قيل إنني مجنون... أو متزوج جِنية... دعنا من هذا الكلام...! سمعت ممن يسعد في نقل الخبر كمضغه جيد البلح، فيزيد أو ينقص حتى يمتع نفسه وغيره، وحسب ما ترسب في القلب من حقد دفين، أو حسد مكين، أو تقلب الأمزجة...

— أتعرف ابنته رقية...؟

— إيه ...! تلك الفاضلة بنت الفاضل ... رحلت مبكرًا عن الواحة... المسكينة... كانت يتيمة الأم... طرية لم يشتد عودها بعد، مصرة على التعليم والدراسة، والهامزون لعنهم الله منهم من حكى حكايتها حتى نسي أنه حكاها ألف مرة، فيهم من قال إنها نشأت وتفتحت أنوثتها في دار عمها «الحاج سي العربي الإدريسي» تاجر التمور بالدار البيضاء،

ثم صارت معلمة، وتزوجت شرطيًّا فاستقرت معه في حي راقٍ، لكن الأخبار تأتي تباعًا، فالمسكينة لم تحظَ بالولد، ويصر لامز أخر على أنها عقيم لم ينفع معها لا دواء ولا خلطة أعشاب ولا تميمة في حرز من نحاس، وزوجها صبور حليم «وولد الناس»... لم يتخلَّ عنها، ورفض تطليقها، وقد سمعت العجب ممن يقول إنها فعلت له ربطًا لشهوته، لا ينفتح إلا على سريرها، وحين جاءت الواحة مؤخرًا، غير الرواة حكايتهم قفال أحدهم يكنى ب «الزناد» إن الزوج طلَّقها منذ سنين، وهي مطلقة تعيش وحدها... بلا رقيب ولا محرم... وسمعته يصيح: «يا عار الواحة...!» حتى وصل السيل الزبى، فجاءه أبو شامة زوج الشقيقة الصغرى لرقية، مغتاظًا مزمجرًا يصوت كالثور، وشرارة الغضب تتطاير من عينيه، ففسح له المجلس خوفًا من أن يدهسهم الرجل وكان قويًّا ما تصارع مع أحد إلا غلبه، لاذت الملأ بالصمت كأن على رؤوسهم الطير، وكانوا كل مساء عند نبع «عين المخزن» يلتقون، فيهم الحشاشون وفيهم من يحتسي نبيذ التين والتمر، وأكثرهم من «الحراطين» والمرابطين...

— ماذا تعني بالحراطين...؟

— كانت الواحة في زمن ما... في حقبة بعيدة راسخة في الزمن مؤلفة من الشرفاء مثل أبي رقية، من نسبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واضح، ومن المرابطين، وفيهم الأمازيغ والعرب ممن حفظوا القرآن الكريم وتفرغوا لعلومه وفنونه، وفتحوا الزوايا لتعليمه وتحفيظه، واعتزلوا الناس تصوفًا وزهدًا في خلوات القفار، حتى توفاهم الله وهم على حالهم، فأصبحوا عند الناس أولياء الله الصالحين، تُقام لهم المواسم السنوية وتُزار قبهم، ولكل قبة وظيفة من فك الربط إلى الزواج، ورواج التجارة، وطرد النحس والعين، والشفاء والعطاء، وما زال في الواحة أحفادهم يديرون المواسم ويتقاسمون العطايا، أما «الحَراطين» أيضًا أو «الحراثين» ويعرفون بسمرة لونهم، فهم قوم نزحوا إلى البلاد من السودان الكبير،

مالي، والسنغال، والسودان، والنيجر على عهد سلطان لا أذكر اسمه، فعملوا عند الأشراف والمرابطين في الحرث والزراعة والرعي، ولم يكونوا لا ملاكين ولا عبيدا، وقيل إنهم هم أصل هذه البلاد، فهي أرض سوداء سكنها الزنوج منذ القدم، حتى غار عليهم دخيل أو معمر، وغُلبوا ثم نزحوا في زمن ما، فلاذوا بالجبال والمرتفعات وتركوا السهول الخصبة.. أما العبيد الذين انتهى رقهم منذ زمن واختلطوا بالناس وهاجروا للخارج، فتغيرت أحوالهم بالمال، فهؤلاء أحفاد العبيد والإماء من سبي سلاطين المغرب في حملاتهم الكثيرة وراء وادي نون، وقد تغير حالهم، ومنهم من غيره العلم، ومنهم من علا بالمال والتجارة ومنهم من ظل على حاله، يحيي ليالي العرافات بالطبل والصنوج والرقص والنط والقفز.

— وماذا فعل أبو شامة؟

— آه...! أبو شامة قوي وذو بأس ولكنه شهم لا يظلم، وأصله من المرابطين، وجده ولي صالح، وأخواله كانوا من المحاربين، جاء أبو شامة القوم الحشاشين على غرة وهم يمرحون، كان يقلع الحجارة من الأرض قدماه تخبط الأرض، لطم وصفع وركل «الزناد» حتى تدحرج.

— من الزناد هذا...؟

— هو لامز ينتشي بالفتنة، حاقد ناقم، كنيته الزناد وهو من «الحراطين»، هاجر لفرنسا، فتغيرت أحواله، لم يعد يشتغل عند الأشراف والمرابطين في حقولهم ونخيلهم، بل عزل نفسه، وشيد مباني عالية من الأسمنت، وزينها بالنقوش والرخام والزليج، ويضيئ منازله بمحركات صاخبة تلتهم المازوت التهامًا، بل حفرا آبارًا، وضخ المياه بمضخات حتى صار لا يحتاج حصصًا من الينابيع، وفيهم من الأخيار كثيرون تصدوا للعلم ودرسوا حتى صاروا علماء ووجهاء بعلمهم يحسب لهم ألف حساب وتفتخر بهم الواحة، لم يعلوا البناء، بل حافظوا على الطراز القديم ورمموه وصانوه.

— وماذا بعد...؟

— تصارعا صراعًا طويلًا، فهزم أبو شامة «الزناد» وأذله فعفر أنفه في التراب، وقدمه على قفاه، وأخذ منه عهدًا أمام شلة الكأس أن يلجم لسانه عن النبش في الأعراض وإلا قتله شر قتلة... فصمت الزناد لحد الآن، ولا أظن أن صمته سيطول فتلك هوايته ومتعته، فإن خاف من أبي شامة اختار غدا ضعيفًا لينهش لحمه وعرضه...

يمده بكأس شاي ساخن، ويسند ظهره إلى الجدار بوسادة محشوة بالحلفاء ويقول وهو يمص شفتيه من لذة الشاي:

— جزاك الله... الشاي على الجمر أشهى...

يردف الرجل باستياء وحزن:

— الشيخ مريض يحتضر، لم يخرج للصلاة منذ مدة، وأبو شامة وأبناؤه هم من يعتنون به، وبالنخيل والأرض والنوق والجمال، والماعز والخيول... و»لالة رقية» يعلم الله بحالها...

لم يسبق له أن سمع أحدًا ينطق اسم زوجته إلا مقترنًا بالأستاذة أو السيدة رقية، وأحيانًا في مواقف خاصة يشار إليها بتعبير «مدام حيران»، أما أن يقترن اسمها بـ»لالة» فهذا لقب قوي وباذخ ورمزي، لا يمنح إلا النخبة محتدًّا وحسبًا من الشرفاء من ذرية أهل البيت، والشرفاء بالمغرب لهم شجرات أنساب يفتخرون بها ويتوارثونها جيلًا بعد جيل، ولا يفرِّطون فيها، وهي أنفس وأغلى ما يترك السلف للخلف؛ لأن للأشراف أو الشرفاء مكانة خاصة وحظوة بين الناس أينما حلوا، يُقَدَّمُون وتفسح لهم المجالس، ويحكمون ويفصلون في الخلافات والنزاعات وما شجر بين الناس، وحكمهم نهائي لا يستأنف، فهم أسباط النبي صلى الله عليه وسلم، وأهل بيته الموصي بهم خيرًا، وفي أياديهم ما زالت البركة واليمن جاريتين إلى يوم الدين، إلا أن أهل المغرب رغم محبتهم الشديدة والغامرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأهل البيت الكريم، لم يبالغوا، ولم يبتدعوا، ولم يشطوا، فظلوا على السنة النبوية، يحبون صحابته وعندهم كل أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، ولعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه مكانة

خاصة في وجدانهم، فهو ابن عم النبي عليه السلام، وهو أول مصدق به من الفتيان، وهو صهر المصطفى عليه الصلاة والسلام، زوج فاطمة الزهراء عليها السلام، ووالد الشهيدين الحسن والحسن فتَيْ أهل الجنة، فظل الدين في هذا البلد معتدلًا وسطيًّا، لا غلو فيه ولا شدة، ولا نحل ولا ملل، فيه حب لأهل البيت وحب الصحابة وتوقير للأئمة والعلماء، لا يقدمون على القرآن الكريم كتابًا آخر، وينهلون من السنة من صحيحي البخاري ومسلم في سلام وانسجام مع تاريخهم، وتناغم مع قيم الحضارة المغربية واستقرار روحها العقدية، التي تأنف كل شط أو تطرف، وكل بدعة أو انحراف فطرة وطبيعة قبل الدراسة والتربية.

يحملق الرجل ذو العباءة الفضفاضة في وجه صلاح حيران ويسأل بتوجس وتردد.. وهو يدك أذنه :

— أتكون زوج لالة رقية...؟

مرر صلاح حيران يده على قفاه، وتململ في جلسته، وعم صمت للحظة، قبل أن يرد بارتباك:

— نعم...! أنا.... أنا زوجها... هل تأخذني إلى دار صهري...؟

— تقصد شيخ الزاوية سيدي محمد الإدريس نفعنا الله ببركته.

— نعم... فدارك ملاصقة للزاوية والمسجد...

— أعرف يا رجل... لقد جلبت لذريتك دمًا طاهرًا ونسلًا صافيًا...

— وهل من نسل صافٍ...؟

— نعم... نسل الشرفاء...

— وهل هذا يشكل فرقًا في الحياة ونحن من تراب... وإليه نعود...؟!

— أنت ذكي... لا يشكل فرقًا كما قلت... لكن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نشم فيهم رائحته، ونوقرهم حبًّا فيه... كما نوقر العالم والتقي والعابد والناسك والزاهد والمربي والحافظ والمحدث... كما نوقر نترضى على صحابته الأكرمين...

— صدقًا يا رجل...! والآن خذني إلى مقامه...!

— سآخذك إلى مقامه المؤقت.... أما مقامه فلم يعلم بعد... وأحسبه من أهل الجنة مع الأنبياء والصديقين... الدار هي الدار الآخرة... فماذا أعددتم لآخرتكم في دار الزاد لها قبل الإياب...؟

— جزاك الله خيرًا يا.... ذكِّرني باسمك...!

— عملي شاهدي، واسمي يا ويلي ينتهي بموتي... يقولون بدءًا الجثة، فالميت، ثم يصلون صلاة وداع على رجل بلا ثناء، وقد أدبر مالك وجاهك ومتاعك وألقابك وغدوت الرجل لا غير بلا لقب ولا حسب.

— أقصد كيف أناديك...؟

— أجمعوا على أنني «العيساوي»... وما سماني أهلي هذا الاسم... حتى ألفته ما دام صار جاريًا على الألسن غالبًا على اسمي «عقيقتي».

— تشرفت يا سيد «العيساوي».

— صرت منهم توًّا، ولم تطعم طعامهم، ولا رويت ماءهم، ولا نمت تحت سقوفهم... تعالَ...! لنتحرك...! عدواهم كالوباء، تصيب الزائر والعابر والمقيم...

وهما يمشيانِ في الظلام بين الأحراج، كان الرجل يباعد الخُطى مهرولًا، ويسير في أثره صلاح حيران، اقتربا من سور من طين وحجارة عالٍ يحيط بدارٍ كبيرة عالية من طوب طيني وحجارة، يحفها النخيل، ويجري مسرب ماء نابع من تحت الأرض حتى يسيل نحو السطح جاريًا في مجراه يعبر نحو البوابة بهدوء ضعيف الخرير، يكاد ينحصر ولا ينهي رحلته وقد غاض وفي زمن ما كان يفيض وله خرير قوي، وعلى جنبات المسارب تنمو بلا جهد ولا مشقة نباتات عطرية تملأ الأجواء عبقًا وعطرًا ساحرين، دارا حوله، فَعَلَا نباح الكلاب بشدة وشراسة، وعند بوابة كبيرة توقف الرجل وشمَّر عن ساقيه الضامرتين وهو يتجاوز مباعدًا خطوه برشاقة بركة ماء ضحلة، صائحًا حتى جفلت الطيور وهو يولي ظهره: «لا تكتفِ بالطرق الخفيف...! لن يسمعوك... إن لم يفتحوا استعِن بحجر ودق بقوة وشدة، فبعض الأبواب لا تفتح لقلب قانط ولا لساعد متراخٍ، ولا لعقل غافل،

بعض الأبواب كالبشر، تضجر ولها كبرياء وحين تستأنس تمن على الطارق بالفتح، والفتح بداية الرجاء، والرجاء مسلك الضياء، فإن رأيت نبع ضوء فاقصده، فإن وصلت غنمت، وإن غنمت تنعمت، وإن تنعمت ترقيت، وإن ترقيت بليت، سلام يا أهل السلام....».

تملك صلاح حيران الذهول والعجب، واضطرب دهشة حتى توجس من الرجل! فقوله حكمة جارية على لسان رجل في واحة منعزلة، نسجت نسج السجاد إحكامًا وجمالًا، وحين غطى الظلام الزاحف الواحة وهو يجر معه أسراب الظلال القاتمة، بزغت نجميات، هنا وهناك.... يا آ الله...! لم ينتبه منذ زمن أن هناك سقفًا للوجود بهذا الجمال الفاتن، تتدلى منه كل هذه الفوانيس الحالمة، وتعبره رقع سحابات خفيفة شفافة، نبحت الكلاب بقوة وشراسة من جديد، وهرَّت بعنف وضراوة، كأنها تريد الانعتاق من عقالها، تناهى إلى سمعه حثيث خطوات، وصوت قوي يزجر الكلاب التي هدأت، ثم علا صوت جهور من وراء البوابة، مع اختراق ضوء قنديل شاحب للشروخ الخشبية «مَنْ.... مَنْ...؟!».

(9)

لم تتمالك رقية نفسها من الفرح والذهول اللذين غمراها جامحين، وهي ترى زوجها يقف أمامها في ردهة الدار الكبيرة، فآخر شيء تتصوره هو حضوره إلى الواحة، وقطع كل هذه المسافة الطويلة، على طريق صعبة ووعرة، في ناقلات غير مريحة، وهو الذي لم يتخلص بعد من نوبات ذعره، ومن هوسه بالهاتف الذي غدا ملازمًا له، على أمل أن يتصلوا به ليعود إلى مهنته، تناسلت الأسئلة في عقلها بسرعة خاطفة، وهي تبحث عن القوة التي أخرجت زوجها من البيت والمعجزة التي أوصلته إلى هنا، إلى الواحة المنعزلة في صحراء حراء، أجلت أسئلتها وقد جحظت عيناها من المفاجأة، ودبت رعشة في جسدها، فسقط من يدها المصباح اليدوي، ودارت الأرض تحت قدميها، حتى كادت أن يغشى عليها، فارتمت في حضنه، ولم يشعر هو إلا وهو يضمها ضمًّا، فاختلطت دموعهما، أمام ذهول أم سعد التي تكنى بـ «أم سعد»، وقيل إنها نشأت وشبت في القصر الكبير، كأخت للشريف سي محمد الإدريسي الذي يعزها معزة خاصة، وهي من أترابه، وتتناقل الألسنة في الخفاء، أنها أصلًا أخته غير الشقيقة، قد تسرى والد الشريف بأمها المسماة «شالة»، الأمة الزنجية، وقد كانت جميلة فاتنة، فحبلت منه أنثى، خمرية اللون، جمعت بين بياض وسمرة، وأم سعد لا تعرف دارًا غير دار الشريف سي محمد الإدريسي، وقد تزوجت في زمن ما، وأنجبت ولدًا اسمه سعد، حين بلغ سن التجريب والتدريب، أخذه أبوه عامر «أبو سعد» في رحلة صيد في عمق الصحراء، ولم يعودا حتى الآن. قيل افترسهما وحش، وقيل مزقتهما وجمليهما زوبعة عاصفة قوية جاءت في

غير زمنها المعتاد، فبدد أثريهما عقبان الصحراء والضباع، وحدها عرافة عابرة جاءت الواحة مع قافلة للتجار، قرأت للنساء الطالع، فأخبرتها أنهما تاها في الصحراء، وماتا عطشًا، فغطت الرمال جثتيهما، فلم تنبش الوحوش ولا الطيور الجثتين، وهما سعيدين حيث هما، يبلِّغانها السلام، ويطلبان منها الدعاء وعدم البكاء الذي يسبب لهما الشقاء.... فعادت لبيت الشريف سي محمد مُعزَّزة مُكرَّمة.

صدمت أم سعد مما رأت، فليس من عادة نساء الواحة أن يرتمين في أحضان الرجال عدا آبائهم وإخوتهم وما كان من أصول وفروع، وما تراه أم سعد من موقف عاطفي جامح، ومشاعر انفلتت من عنان العقل والعرف، جعلها تلطم خفيفًا خديها، فاغرة فيها.

وحين ألجم كلاهما دفق الشوق والحنين بعقال العقل، ابتسم صلاح حيران وهو يتفرس في وجه زوجه رقية بفرح وسعادة، ثم يُقلِّب عينيه بعجب واستغراب، وهو يحك جبهته كأنه اكتشف تغيرًا وتبدلًا فيها، ودنا منها وهو يتمعن فيها يطقطق إبهامه دون توتر جلي، وحتى لا تسمعه أم سعد رمى في أذنها عبارات خلطها بضحكات متقطعة، مبديًا الاستغراب والإعجاب في الوقت نفسه: «لاق بك منديل الرأس هذا بلونه البرتقالي يا أستاذة، وأهدابه الحريرية الحمراء والصفراء والخضراء، ولاقت بك هذه عباءتك الفضفاضة الواسعة، زرقتها كزرقة السماء في يوم صحو، كُمَّاها يبتلعان حتى الكفين، مستوية لا تضيق عند الخصر ولا تنحسر، بلا شق ولا جيب، طويلة لا تكشف ساقًا ولا خلخالًا... لا ينقصك غير...» ثم تقهقر قليلًا، ورمى نظرات على قدميها وقال مبتسمًا: «ما هذا الجمال...؟ خف جلدي بصدفات بلورية، وحواشي من شعر... وحزام حريري من هدب...؟! أين التنورة والعطر الفرنسي يا رقية... أو أقول لك لالة رقية... ما ينقصك غير نقاب وتكتمل الصورة...؟!». شدت يده، همست في أذنه، ووضعت أصابعها على فمه، قامعة فيه مزيدًا من الكلام وهي تلوي شفتيها: «يا أحمق...! حين نعود إلى النبع، نكون نحن لا كما يريد غيرنا...

وأنا والله حيرتني الليلة، ففيك أشياء كثيرة تغيرت... نظراتك لهفتك... ضمتك... لسانك... ماذا وقع في غياب...؟! لا أعرف كيف تحرر لسانك وصار طليقًا...؟! كأني بك في مواعدنا الأولى الجميلة، والله ما ميزت كلامك أهو غزل أم تعريض...؟! أهو مدح أم ذم...؟! أهو عتاب أم إعجاب...؟!».

شدها من خصرها وجرها بقوة، حتى شهقت أم سعد ذعرًا وأدبرت هاربة خجلًا وحياءً وهي تلطم خديها مغمغمة لا تبين، وهمس في أذنها: «حب... وشوق ولوعة...». أغلقت فمه بكفها، وتحررت من قبضته وقالت مندهشة وفي الوقت نفسه منتشية: «هذا كثير يا صلاح... اصمت...! اصمت...! لقد أخجلت أم سعد حتى ركضت وكبت عند مدخل المطبخ....». يستند إلى الجدار، ينظر إليها بنظرات زائغة ويقول بصوت خفيض هادئ: «قلت فقط لاق عليك ما تلبسين فازددت جمالًا... أهذا عيب...؟!».

ساخرة شدَّتْه من أذنه وهو يتوجع، مُردِّدةً وهي تنتفض: «يا مجنون...! كلنا أهل الواحة، يتركون عاداتهم الجديدة بالمدن والخارج، ويرتدون لباس الواحة، بل يتكلمون بلسانها ويلتزمون أعرافها، لا خيار لهم في ذلك، بل منهم من يلبس لباس الواحة لأنه الأليق والمناسب للطبيعة والمناخ، والحركة والجلوس، والعدو والمصارعة، وللأشغال الزراعية، وتربية المواشي، وركوب النوق والجمال، ومقاومة الحر والقر، والريح حين تعصف، وجلد الأجساد بذرات الرمل وما حملت معها، وإنها العاصفة منها لتقتل الجمل مثخنًا بالجراح، وتهز الدور هزًّا، وهنا لا يخرجون للصحراء بدون دليل يعرف مواقع الماء والظل، وأوقات السموم والزوابع والعواصف.... أما في الدار البيضاء، فتلك حياة الحضر، والحضر لهم لباس وعادات، فأنا ألبس للعمل ولا أريد أن أبدو مختلفة، فالمختلف صادم أو يلقى من الآخرين خصومة وعداوة مجانيتين، وهنا نلبس سترًا وفخرًا وحسب الفصول والحاجة... أفهمت...؟ أقول لك: أبي يحتضر وأنت تفكر في ملابسي ... والله... أصابك الخبل؟! ربما وأنت تقطع الصحراء أصبت بضربة شمس!».

صمت مطرقًا الجبين وهو يهز كتفيه، فسحبته نحو غرفة أبيها وهي تقول بصوت خافت، وما تخلصت بعد من خدر المفاجأة، تكاد تطير فرحًا من قدومه: «الشريف مريض مرض الموت... وقد أخبرنا الأطباء ألا أمل، وأن نعيده إلى البيت حتى يقضي الله أمرًا كان مقضيًّا... انتشر السرطان في جسده، ووصلت أورام إلى دماغه، لهذا اضطربت ذاكرته، فلا تحزن إن لم يتعرف إليك، فالأمر مرتبط بعلته وليس بك، والله صدِّقني، وصار يدخل في غيبوبة متقطعة، كلما صحا سأل عن ميت ويطلب أمي رحمها الله، أكثر من السؤال عن أخي سي عتيق، لم يره منذ خمس سنوات... وهو آخر العنقود... ماتت أمي وهي تلده... لا يعرف أُمًّا غير أم سعد... اتصلت به ليحضر ويرى أبي قبل....».

تصمت لحظة، فتعبر الدموع الرقراقة الحارة خديها، تداريها بحركة من يدها، يأخذ صلاح حيران منديلًا من جيب سترته يكفكف دموعها، ويقول بأسى:

— الأعمار بيد الله... لكل أجل كتاب.... وما منع أخاك غير ظرف قاهر، فالعيش في أمريكا ليس جنة كما يبدو أو نسمع، لا بد أنه غارق في العمل.

— ما أحزنني هو تحججه أنهم في أمريكا لا يمنحون عطلة استثنائية لعيادة مريض، ولا يمكنه الحضور إلا في حدود أسبوع لكن ليحضر جنازته، قالها ببرودة كأنه يتحدث عن غريب.. وليس والده، آه...! لو كانت أمي حية... لملأت كل مقعد شاغر حنانًا ورعاية وصبرًا... رحمك الله يا أمي...!».

ارتمت في حضنه من جديد وهي تنتحب بقوة مرددة بأسى:

— «ضعف أبي يؤلمني، إنه يتألم بصمت، أنا على يقين أن الوجع يعصره عصرًا، لكن كبرياءه ونخوته يمنعانه من الأنين وإظهار الضعف...».

طفقت أم سعد تواسيها وتزمج في وجهها باكية بلا انتحاب: «يا لالة... لا تفعلي ذلك... سيسمعك سيدي ويزداد حزنه وينتكس... تحملي...! تحملي...!». يربت صلاح حيران على كتفيها بحنو مبتسمًا لها حتى برقت عيناه وميض مودة جلية، وفي نيته إشاعة السكينة في نفسها: «يا رقية...!

الرجال يواجهون الموت وجهًا لوجه وهم مستعدون للرحيل بلا خوف، ولكنهم لا يطيقون ضعف المرض حين يصبحون عاجزين، وتخذلهم متانتهم وأمعاؤهم وذاكرتهم، ليس هناك من أمر أشق على الرجال من العجز والضعف... يتمنون الموت استعجالًا؛ صونًا لكرامتهم...». تحملق فيه طويلًا كأنها تشتهي النظر إلى وجهه، ثم يلجانِ غرفة الوالد الذي غفا على فرشة عالية، وبيده سبحة لم تفلت من بين أصابعه وقد برق عقيقها الطحلبي، وعلى جانب السرير يسارًا طاولة صغيرة من دعامة واحدة دائرية صُنعت من خشب العرعر، وما زالت تفوح منها رائحة زكية، وعلى الجانب الأيمن قنديل زيتي يكاد لا يضيء، وعلب الدواء الكثيرة، وعود الأراك والسواك، ومصحف كبير الحجم، وعلى الأرض على مقربة منه قلة ماء صغيرة مُغطاة بثوب مبلل، ذات عروة علق بها كوب نحاسي، وعلى الجدار فوق المسند الخشبي للجدار، لوحة دبجت عليها آية الكرسي بورق نحاسي براق، وساعة حائطية كبيرة خشبية الإطار الصقيل اللامع، من الطراز القديم الذي يحتاج إلى التدوير اليدوي كل دورة شمسية، قد أخلفت موعدها مع الزمن، وتوقفت كما يبدو منذ مدة عن الحياة، لكنها ظلت تحفة شاهدة على الترف والذوق والنعمة وسعة الرزق، فليس كل الناس كان بإمكانهم الحصول على هذه الساعة الخشبية ذات العقارب النحاسية، والأرقام الفضية، والبوابة الصنوبرية بمفتاح، حيث يبدد رقاصها البندول وحدته وسجنه بالرقص ذهابًا وإيابًا، على إيقاع رتيب لا يحيد عنه.

كانت أجواء الغرفة المستطيلة معبقة بروائح زكية، والغرفة ذات السقف العالي من جذوع النخيل وسعفه وعيدان الخيزران الرقيقة، مبخرة ومطيبة ببخور عاطرة، تنعكس على جدرانها الطينية القانية ظلال الأشياء والكائنات رغم وهن القنديل، تهب النسائم العليلة لليل الرطب معبقة بروائح وعطور مختلفة تبهج القلب، يتناوب فيها شذا شجرة «مسك الليل» المزرعة في فناء الدار التي لها نوافذ واسعة تكاد تلامس الأرض،

بعازل حديدي مشبك على شكل ورود وأزهار، وعازل كالغربال الدقيق، حذر الهوام والناموس، بدفتين خشبتين تغلقان خلافًا، بمزلاج خشبي عمودي، وهي هكذا حتى يتفادوا الريح العاتية وما تحمله من رمال، كما أن النوافذ القريبة من الأرض تستفيد من آخر ضوء للشمس، وتتفادى حر الشمس عند الظهيرة، وهي بمثابة جهاز تهوية طبيعي، والجدران السميكة المغطاة بالجس الناعم، طينية من تراب الواحة، يدك في قوالب من خشب ذات سمك لا يقل عن نصف متر، مما يجهلها عازلة للحرارة والبرودة.

كحَّ الشريف سي محمد الإدريسي حتى شرق وكادت أنفاسه أن تنقطع، فهرعت إليه رقية جزعة حزينة، توشك أن تكبو من الاضطراب، وسقته ماء بمشقة، فحتى القطرات لا تجد سبيلًا إلى جوفه، فتح عينيه، وابتسم في وجهها وهو يقول بصوت خافت متقطع وهن: «يا بنيتي... اذهبي لترتاحي...!».

يكنس الشيخ العليل بنظرات متعبة زائغة الغرفة، سقف الغرفة رافعًا رأسه، تلمع قطرات العرق على محياه الأزهر، يجففها بكم عباءته وهو يتنفس بمشقة، تفطن الأمر رقية، تسوي له الوسادة، وتضع أخرى تحت قدميه، ثم تبلل منديلًا بماء بارد، وتمسح جبهته التي تفصدت رشحًا غزيرًا وترطب وجهه وشفتيه وقفاه، فيشعر بالانتعاش والراحة، يترضى عليها باشًّا في وجهها، فتسعد لدعائه، تجلس عند قدميه، تدلك ساقيه بزيت زيتون ساخن مخلوط بعصارة الخزامة، بمهارة ورشاقة من خبر التدليك للعجزة، حتى يجري فيهما الدم، وتلين ما تيبس من المفاصل، وقد طال لزومه الفراش، وقلت حركته، فغدت مفاصله وعضلاته تؤلمه بشدة.

لاذ صلاح حيران بالصمت، وقد اعتصر قلبه ألمًا، يرفع الشيخ بصره جهة الباب، فيظهر له صلاح حيران عند عتبة الغرفة، فيمعن النظر فيه جيدًا، يطرق الجبين كأنه يفكر، ثم يرفع رأسه مرة ثانية، ممعنًا النظر في وجه صلاح حيران، يومض على حين غرة ضياء جميل في عينيه، كأنه وجد شيئًا عزيزًا عليه ضلَّ عنه، ترتعش شفتاه، ويجاهد بمشقة ليستوي

جالسًا مرددًا بضعف منتحبًا: «أيكون هذا صلاح حيران...؟ يا رقية...! أهذا زوجك...؟ لا تقولي لي إنني أتخيل... وأهتر... ؟! هو بلا شك... لم أره منذ أكثر من عشرين سنة، لكن وجوه الأحبة نعرفها ولو طال الزمن... يفعل الزمن فينا فعله، لكنه عاجز عن هزم الروح، وبصمة الروح النظرات، وهذه النظرات هي لروح صهري... لم أره منذ عرس زفافك بدار عمك بالدار البيضاء، أتذكرين كيف كان عرسك هناك...؟ كنت أتمنى أن يزورنا بالواحة لأقدمه للشرفاء والمرابطين والعامَّة... هل هو فعلًا... هو... هو...؟!». قفزت رقية فرحًا، وسحبت زوجها من يده نحو أبيها، وفرحتها أكبر بوالدها الذي غدا ضعيف الذاكرة ورغم ذلك تذكر زوجها من بريق عينيه، أسرع صلاح حيران نحو الشيخ يُقبِّل يده، ورأسه، جاثيًا على ركبتيه منتحبًا معتذرًا، والشيخ يحضنه ويبكي قائلا: «آه... يا بني...! كم أنا مشتاق إليك... تعالَ...! اجلسْ هنا...! وأنتِ يا أعز الناس...! تعالي...! اجلسي قربه... متى جئتَ؟ وكيف.... ؟! حدِّثني عن رحلتك...!».

امتقع لون الشيخ فجأة، وبدا عليه التعب الشديد، وغدت دموعه تعصر الدمع عصرًا وقد احمرَّت كالجمر، وجف ريقه وقد ضاق نفسه، فصدر عن صدره صفير كلما شهق وزفر، ثم غلبه السعال الحاد الذي يهزه هزًّا مؤلمًا موجعًا، يضع يديه على أضلاعه، يريد شدهما وتثبيتها ليخفف شعوره بالتمزق، مستشعرًا كأن السكاكين الحادة تخترقها، يداري بكل جهد بكبرياء أوشك أن ينهار وقد خذلته مثانته، فأفرغ ما في بطنه قيئًا، ولم يكن غير بقية ماء وعصارة لزجة صفراء للمعدة، كانت رقية تهتز ألمًا عند كل كحة يكحها، وتشد أضلاعه بضماد منقع في كحول حتى تبرد النار التي تخترقها، وتمسح صدره بزيت الزيتون الساخن، وتسقيه ماء منقعًا في القرفة والزنجبيل، عله يذهب عنه الوجع والغثيان، وقد عافت نفسه كل الأدوية، واستسلم بانقياد لمصيره، واستعد نفسيًّا وعقليًّا لرحلة العبور على كف الموت، تاق الموت وطلبها في خاطره ونجواه ليتخلص من الألم الشديد، ومن العار الذي عصره عصرًا كلما بلل فراشه البول، أو غلبه

الغائط، فكان لا بد أن تكشف عليه رقية، وهذا هو جحيمه وجرحه العميق، أشار بيده المرتجفة إلى صلاح حيران والنظر زائغ تائه والجبين يتفصد بغزارة، يحاول جاهدًا وبمشقة وعناء تركيب كلمات تباعدت تركيبًا ونفسًا، وتاهت بعض مخارج أصواتها وتبدلت صفاتها: «من أنت....؟ رقية... يا ابنتي من هذا.... هل نحن لوحدنا في الغرفة...؟ ألا ترين ما أرى...؟ هناك غريب ينظر إليَّ.... أيكون ملك الموت حضرني في صفة إنسان حتى لا يفزعني...؟! ما أرحمك يا رب.... ما أرحمك يا رب...؟». انتحبت رقية ولطمت صدرها وكادت أن تولول وهي تصيح بحزن وذعر: «أبي... هذا صلاح حيران.... صلاح زوجي». يشير صلاح حيران بإشارة بإصبعه على فمه أن تصمت وتهدأ، يغفو والدها أو يخوض في غيبوبته، من وراء الباب يرتفع نداء أم سعد: «لالة رقية... لالة.... لالة .... العشاء».

تظهر على عتبة الغرفة أم سعد متهالكة بوهن، يكاد يسمع زحيرها وهي تسند حوض ظهرها بيدها ترى من أمر الشيخ ما ترى، تشهق ثم تزفر طويلًا بأسى وحسرة وحزن، وترتسم على الوجه مشاعر الحزن الفياضة، تؤازرها دموع حارة، ونحيب مقموع، وإن كان الوجه الخمري بدَّدَتْ معالمه الأصلية التجاعيد العميقة، وترهل جلد الخدين، إلا أنه لم يفقد ذاك الضياء الروحي الذي يكشف ما يعتلج في النفس، ثم تدنو من سرير العليل وقد غاب عما حوله ولولا بقية نفَس، وصدر بعلو وينبسط، لقيل: سلم الروح لبارئها، يبدو أن نظرها ضعف كما ضعفت صحتها، تدنو أكثر من رقية التي أطرقت الجبين تبكي بكاءً يقطع القلب وهي تلجم النحيب بل أدناه الهنين، بغصب تحثهما أم سعد على الذهاب للعشاء وهي تردد بحزم وصرامة بعدما أحكمت العقال لحزنها الجارف: «لالة رقية.... فاطمة أختك وزوجها إبراهيم أبو شامة حضرا منذ زمن منذ ... أحدهم أخبرهما بوجود ضيف في الدار... ذبح أبو شامة خروفًا وطبخت أختك لحمًا شهيًّا بمرق وأعدَّت لحمًا مشويًّا، وحمل أبو شامة بقية الخروف إلينا، كريم ابن كريم... وأعدت أختك حساء بمرق اللحم لأبيك، فيه توم وبصل وكرفس

حلبة، حين يصحو الشريف سأبلل جوفه به.... وسيبيتون الليلة هنا، أبو شامة نِعْم الرجال ولكنه خجول وقليل الكلام.. تركت أختك أم شامة، الولدين في دارهما ترعاهما شامة، لقد كبرت وأصبحت عروسة، وجاءت أختك قبل زوجها، سألت عن الضيف، وحين علمت زغردت، وأسرعت لتخبر أبا شامة... وجاءا بعدما قاما باللازم... لم تحضر غير الرضيع يوسف فهو معها... لقد خاصمت عليها وعاتبتها... نعم، كان عليها أن تحضر شامة وأخويها... رضا ويعقوب.. ربما أرسل الحارس «الغندور» ليأتي بهم... اذهبا أنتما الآن إلى «مقصورة» الطعام... لقد تركت أبا شامة سي إبراهيم يعد الشاي على الجمر.... اذهبا... يا رقية خذي زوجك ليرتاح...».

تميل نحوها وتسحبها من تلابيبها فتنزوي بها هامسةً مُسِرَّة لا تريد أن يلتقط «صلاح» شيئًا من حديثها: «اذهبي...! سأغير ملابسه وأنظفه، وأغير ملاءات فراشه.... اذهبي...! فزوجك متعب وجوعان... وقد قطع طريقًا طويلة ومتعبة، والرجل يريد أن يرتاح.... الرجل متعب يا رقية.... لا تترددي.... وتحملقي فيَّ كالبلهاء... سأتكفل كالعادة بالأمر....».

(10)

أسلم الشريف سي محمد الإدريسي الروح لبارئها بعدما أشرقت الشمس متعبةً رغم قوتها وجبروتها في صيف الواحة، مُعلنةً يوم حداد بصبح حزين، سحابات على غير موعدها خفيفة تحجب الشمس من حين لآخر، فلطَّفت الهواء الساخن الذي يلفح الوجوه. قبل الفجر صحا من غيبوبته وفيه حيوية وطلب طعامًا، حتى فاجأ أم سعد التي أطعمته بيدها الحساء بفرح وهي تردد البسملة وتشكر الله حمدًا وثناء، فاحتساها معبقة بالزعتر وزيت الزيتون ومضغ بلحًا طريًّا، أمام استغراب الجميع، شرب الماء حتى بلل لحيته وهو باشٌّ مبتسم، حملق في الوجوه طويلًا، ثم مدَّ يده إلى أم سعد، وقبَّلها على جبهتها، وحضنها بقوة وهو يشمها هامسًا في أذنها: «أشم فيكِ رائحة والدي... يا أختي...!». ثم عاد وتمدد على الفراش كأن دفق العاطفة أعياه، وإن من المشاعر الفياضة ما ينهك الجسد إنهاك العمل الشاق وأكثر، فارتخى وطفق يعد حبات عقيق سبحته في طمأنينة وهدوء.

يسأل عن ابنه عتيق من حين لآخر، قيل له: إنه سيأتي قريبًا، لم يرَ شامة وهو يقلب نظراته المتعبة بين الوجوه، فطلب حضورها، فقد كان يحب حفيدته الجميلة ذات العينين الواسعتين النجلاوين، وفمها دقيق، زهراء البشرة، كثيفة هدب الأشفار، غزيرة شعر الحاجبين، معتدلة الطول، ضيقة الخصر، ربعة لا هي بالبدينة ولا النحيلة، حيوية كالنحلة، بشوشة لا تغادر البسمة شفتيها كالفراشة، أينما حلَّت شعَّت البهجة والحبور، وتعقبتها عيون الفتيان والشباب، وتجادلوا حول أصل جمالها،

فالجد يصر أنها تشبه جدتها «نجمة»، وعمها يقسم بأغلظ الأيمان أنها تشبه أمه «نعيمة»، أما أبو شامة، فحين يُسأل يقول وهو مطرق الجبين يعبث بالتراب برأس حذائه: «أخذت من كليهما أجمل ما فيهما؛ الحياء، والكرم، والأدب، والوفاء، والبر، والنقاء». فيلجم ألسنة الجميع، فقد كانت حجته في الباطن وجدلهم حول الظاهر.

طلب خبزًا طازجًا وقد تنسَّم رائحته آتيةً من المطبخ، فأحضرت له أم سعد خبزًا وزيتونًا، فطفق يمضغه ويعسر عليه البلع، لكنه لم يتوقف، ولم يكن بالأمس يطيق شربة ماء، وقد مَنَّ عليه الله بيقظة مع صفاء ذهن، وبيان منطق، حتى ظنوا أنه ذهب عنه السقم وشفي بمعجزة من علته، فلم يسعل ذاك السعال القاسي المعذب الذي يكسر ضلوعه، ويهزه هزًّا حتى ينهكه، ولم يغلبه القيء، ولا خذلته مثانته، ولا اعتصر ألمًا ووجعًا، بل أضاء الوجه وميض كأنَّ الشمس أشرقت من جبهته، وأنارت المحيا والسحنات، فصارت عيناه حمراوين كالجمر المتقد على عادتهما حين كان في أوج قوته وصحته، وحين ارتفع الأذان في سماء الواحة، طلب حجرًا، فتيمم ودعا طويلًا وتطيب حتى فاض عطره فغمر الأجواء، ودارت أم سعد بالمبخرة فطيبت المكان بروائح المسك، وكان يحب البخور الطيب، ويردد دائمًا: «يا أم سعد، طيِّبي الدار بأطيب البخور؛ فالملائكة يؤذيها ما يؤذي البشر، ويُفرحها ما يفرح البشر، واطرُدي الشياطين بالطيب وكل بخور زكي...».

لهذا كانت الدار كبستان ورود فواحة وزهور شذية، تملأ أجواءها الروائح الطيبة، مما يزيد في طهرانية وقداسة مقام الشيخ بين الناس، ويملأ قلوب زواره سكينة ومودة وطمأنينة، وكانت أبوابها لا تغلق أبدًا، الطعام جاهز في أي وقت، والشاي، والقهوة، والخبز، والزبدة، والزيت، من حضر يطعم أولًا غريبًا كان أم من أهل الواحة، يقصده الغرباء ضيوفًا لله، ويقصده الفقراء طلبًا لحق الله فيما أعطاه، حتى مرض مرضه الشديد، ولم يعد قادرًا على لقاء الناس وترديد الأوراد معهم، وتلاوة قرآن الفجر والعصر، فخفت الزيارات إلا عيادة خاطفة، أو زيارة غريب لم يعلم بحال الشريف.

صلَّى الفجر جلوسًا بخشوع جليٍّ في العينين وخنوع غامر عكسته رعشة جارفة غامرة؛ وهي هزة من هزات العابد العاشق، فدبَّت في جسده بلا عنان يشدها، عند القراءة الشجية، واستسلم استسلام المطمئن المُحسِن الظن بربِّه، أبان عن ذلك دعاء المستعد للرحيل، حتى انتحب وبكى بكاءً طويلًا، لا خوفًا من الموت، ولكنه دعاء لحوح لأهله وأهل الواحة والبلد وأمة المسلمين وكل الناس، وإن خص أهله وأهل الواحة بدعاء خاص كأنه دعاء الوداع، ووصَّى وصيَّته، مؤكدًا على صلة الرحم، والصلاة، والعفو والصفح، وعدم النوم والقلب فيه حقد لأحد، وتضرع إلى الله أن يغيث العباد والأرض والبهيمة، وتجري مياه الينابيع فتسقي النخل والشجر، وأوصى بالنخلة حتى أسهب، كمن يوصي بعزيز حميم، قال: «إنها ظلكم، وطعامكم، وعزكم، وسقفكم، وفيها الأم والأب، ما خذلت يومًا وما انحنت إلا لتظل قوية صامدة رافعة رأسها، تعلَّمُوا منها الصمود والعطاء، فهي لا تفرق بين صغير ولا كبير، ولا غني ولا فقير، ولا مقيم ولا طريد، كونوا كالنخلة، صُونوها تصونوا أنفسَكُم، صِلوا رحمها تصِلوا رحم أجدادكم... النخلة... النخلة... أغشي عليه بين يدي رقية، وصحا مرة ثانية، واسترجع ذاكرته لحظة وبارك ودعا للجميع بما فيهم صلاح حيران الذي دعا له بالذرية، وبشَّرَه حتى أضاء وجه رقية وغمره فرح كاد يقفز وميضًا من عينيها».

لحظات قبل أن يُسلم الروح، طلب حضور صلاح حيران وابنته رقية وإبراهيم أبي شامة دون أم سعد التي حزنت من الأمر، وانزوت في غرفتها باكيةً بكمَدٍ، أجلسهم حوله قال متعبًا: «أنا بعد حينٍ سأكون في ذمة الله، يا صلاح حيران غدك خير من ماضيك، فتح الله عليك بالذرية والسكينة، لا تحزن... رُبَّ نقمةٍ هي نِعْمة، يا رقية.... يا فاطمة... يا صلاح حيران.... يا أبا شامة.... أشهدكما الله أن أم سعد أختي من صلب أبي... مِنْ أَمَةٍ كانت لجدي تسرَّى بها أبي، وقد حمَّلني أبي أمرها وإشهار الأمر، وكلَّمتها منذ سنين في الأمر، فأبَتْ وأخذتْ مني يمينًا غليظًا ألا أذكر الأمر، صونًا لصورة أبي بين الناس، وإن ما بُنِي على باطل باطل، والحق حق.... افعلوا ما ترونه يرد حقَّها، ويُجبر

خاطرها، وأشيعوا بين الناس أنها عمَّتُكم.... لا تتاقسموا ترابًا، ولا نخيلًا، ولا أرضًا، ولا نبعًا، ولا مجرى ماء، الدار ستظل قبلةً للناس والغرباء وبيتكم الذي يجمعكم متى تفرقتم، والنخيل نخيل، حين يجود خذوا حصصكم، وروِّجوا ما شئتم، من يبيع نخلته كمن يبيع أُمَّه، النخلة عزكم ومجدكم... لا تنسَ يا صلاح حيران...! غدك خير من ماضيك.. ولقد دعوتُ الله تعالى ألا يتركك أبتر... وإني لأشعر برضا قرب الاستجابة... لا تغصبوا البنات على الزواج...! ولا تفرِّطوا في كتاب الله.... ولا ترفضوا زواج الحرطاني بناتكم ولا الحرطانية بأولادكم إن رضيتم دينهم، فزمن تعيير الناس بلونهم وأصلهم مضى وبادَ... وما من قوم إلا لهم جاهليتهم، قد يقدِّمون العرف على الشرع، والعادات على حُكم الله وسُنَّة رسوله، غفر الله لآبائنا ولنا ولكم وأصلح ذريتكم..».

حَجَّ كل أهل الواحة إلى الدار، ووفد المعزون من كل صوْبٍ وحدبٍ، التأم القراء والحفاظ في خيام نُصبت في الباحة الواسعة للدار، فعجت الدار وتخومها بالناس، رجالًا ونساءً وأطفالًا، وما من شيخ ولا عجوز إلا حضر، ما منع أحدهم العلل ومن كان على سفر أجَّل، وأُلغيت الأعراس من زواج وختان وعقيقة وخطوبة، وتعطَّلت كل مظاهر الاحتفال والفرح، وتوشحت كل النسوة بعباءات سوداء، وغطين الرؤوس بالسواد، حتى تلونت الواحة بالأسود القاتم؛ فالشيخ سي محمد الإدريسي رحل، ومع رحيله تتم دورة روحية، وتفتح أخرى، وتغلق دورة زمنية، وينهض عهد جديد، ولم يورث بركته ولا سره لابنه عتيق الذي يعيش في بلاد العجم، وكان على عادة الشيوخ أجداده أن يوصوا بالسبحة والسجادة وكتاب الأوراد للابن البكر، فتنتقل إليه المشيخة، ويترك وصية مكتوبة، ودرج الناس على تلاوة الوصية على الملأ فورَ مواراة الميت الثرى وهم يعلمون في شبه يقين الموصى له، لكن شيخ الواحة العارف بالله لهذا الزمن، ليس له غير ولد واحد سي عتيق، وقد أخذته أعجمية من أمريكا زارت الواحة منذ سنين إلى وطنها وتزوجها ولم يعُدْ بعدها، وفي عرف الواحة لا ولاية ولا مشيخة لامرأة، ولم يبقَ حسب تخمينهم إلا سي العربي الإدريس شقيقه

الأصغر الذي رحل إلى الدار البيضاء، وإن كان حافظًا لكتاب الله ومن قُرَّاء الواحة، فإنه لم يلزم قدمي الشيخ، ولم يتدرج في الأوراد والمقامات، وهو نفسه لا يطمع في ولايةٍ وقد صار تاجرًا كبيرًا للتمور من تجار الدار البيضاء، وغيَّر الملبس والمأكل واللسان والعرف والطموح.

نصبت خيام أخرى تحت ظلال النخيل، وعلى المروج والبساتين، اتقاءً للحرِّ الشديد، والرياح الحارقة التي تجلد الوجوه كسياط من شفرات، والتأمت النسوة في فناء الدار وانتحبن حتى تمرغن في التراب، وعددن انتحابًا مناقبَ وخصال وأفعال وبركات الشيخ، كان على رقية أن تلجم حزنها وتقمع ولولتها، ففعلت لكنها عجزت عن التحكم في ولولة أختها وندبها ولطمها وتمرغها في التراب، فكان أن كلمت أبا شامة أن ينهى زوجته عن فعلها، فقال بأسى: «دعيها يا لالة رقية...! فإن لم تندب الشريف من تندب؟! والله لولا خشية كلام أهل الواحة لندبت وشققت وتمرغت...». تبسمت لكلامه، ربتت على كتفه وقالت: «أصيل ابن أصيل يا أبا شامة...».

وصل سي العربي شقيق الشيخ وأهله، فتفرق أهله بين المندبات، زوجته الكبرى وابنة خاله «شريفة» تمرغت في التراب، وشقَّت الخدود ومزَّقَت الجيوب، وولولتْ حتى استفزت المندبة، فعلا النحيب علوًّا قويًا بين أصوات حادة وأخرى غليظة خشنة من جديد، وظلت تهتز اهتزازًا كمن تصرع حتى نهتها أم سعد وقد انكشف جزء من جسدها وهي بضة سمينة، بنت خاله من المرابطين، أم زوجته الثانية ذات الثلاثين سنة المراكشية، فجلست بين النساء في خيمة بين النخيل وكشفت عن وجهها، وهي تشكو شدة الحر، وتطلب ماء كل لحظة، وترش رأسها، والنساء يلوينَ أفواههن استياءً وعجبًا، فما رأينَ ولو دمعةً واحدة على خدِّها، وكشفت عن وجهها في يوم لا تُكشف فيه الوجوه، فمالت نسوة نحو الزوجة الأولى وواسينها وقدمنَ لها العزاء، وهن يرمين إغاظة الضرة المراكشية التي لم تلقَ منهن غير التجاهل واللَّمْز والبُعْد.

ما إن وري الشيخ التراب حتى فتح شقيقه الوصية وقرأها أمام الأشهاد «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به العبد الضعيف الفقير إلى ربه، تُنقل سجادتي، وسبحتي، وكتاب الأوراد إلى سي إبراهيم أبي شامة، قد يقول قائل: إنه ليس شريف ابن شريف، وأنه من المرابطين، وقد علمتم أن المرابطين أحفظُ لدين الله وكتابه، منهم العلماء والفقهاء والمحاربون الذين حموا المِلَّة والديار، وقد صاهرتهم على غير عادة أهلنا، فكانت الشريفة للشريف، حتى كسرت بئس العرف، وغدَت الشريف لمن ارتضيت دينه وخلقه وارتضته هي دون غصْب ولا إجبار، فاتقوا الله في خلقه، واعلموا أن الناس سواسية إلا بتقوى، أو عِلْم، أو خُلُق يفضل أحدكم عن غيره. والسلام على من اتبع الهدى».

عَمَّ صمت قاتل، بين مصدوم ومتعجب، فاشرأبت الأعناق لصوت معارِض، أو همس مُشكِّك، فشَت همهمات هنا وهناك، «الأشراف» كانوا يتوقعون أن يُسمَّى أحدهم، لكن الشيخ سي محمد الإدريسي خرق القاعدة، وأوصى من خارج شجرة النسب، مرجحًا الورع والعلم والتلمذة، المرابطون أشد فخرًا وفرحًا، ارتسمت على وجوههم علامات الرضا، رؤوس «الأشراف» وإن لم يعجبهم الأمر، وخيبت الوصية انتظارهم، فقد كانوا أضعف من أن يرفضوا أو يعارضوا، فالشرف وحده لا يكفي وهم من أوساط أو فقراء الواحة، وعلمهم لم يتجاوز حفظ كتاب الله، وهذا لم يعد كافيًا لتدبير الشأن الروحي للمريدين والمنتسبين، وسي إبراهيم أبو شامة وإن كان يُحسب على المرابطين وهم أهل عِلْم وورع ومحاربون، فهو حافظ ومُرتِّل وعالم بالقراءات السبع، وبالناسخ والمنسوخ، والمفيد والمطلق، والمدني والمكي، وأسباب النزول، ودرَس الفقه وأصوله ومذاهب الأئمة الأربع، والتفسير، ويتدبر القرآن الكريم، ويحفظ الحديث ما جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم، ومجازٌ من علماء القرويين، وتلقى علم الحقيقة مريدًا ثم مقدمًا على يد صهره سي محمد الإدريسي الذي لزمه منذ صباه، حتى زوَّجه ابنته فاطمة، خرقًا للعادة، فكان أول زواج لشريفة من شاب من «المرابطين».

أما سي إبراهيم أبو شامة، فقد داهمته رعشة، وخذلته ساقاه، حتى أوشك أن يُغشى عليه مما سمع، وقْع الصدمة كان قويًّا، فجحظت عيناه ذهولًا وهو ينقل نظراته القلقة بين الجموع، لطم فخذي، وصاح صياح الثكلاء، ثم عدا عدوًا سريعًا متحررًا من خُفَّيْه، حافيًا يركض كفرس جامحة، يثير النقع وتتفرق الحجارة تحت قدميه، كأن به جنة ينتحب بحرارة وألم، وما انفك يلطم صدره صارخا «هو أمرٌ جلل، هو أمر جلل ...لا أطيقه، ماذا فعلت يا شيخي حتى تحملني أمانة ستقتلني لا محالة.... لا... لا...». واختفى بين نخيل غابة نخيل كثيفة، ولا أحد تعقبه غير «العيساوي» وزوجته فاطمة، أما الجماعة فقد تفرقوا، وعادوا للخيام المنصوبة يحتسون الشاي.

لثم شقيق الشيخ الراحل الوصية برضا وسكينة، ترحَّم عليه، وتلا الفاتحة بخشوع حتى سال دمعه، صمت لحظة وقد غلبه النجيش غير مصطنع، ثم صاح وسط الجموع: «سمعًا وطاعةً يا أخي...! رضينا ما اخترت، كما رضينا دومًا ما اختار آباؤنا وأجدادنا، لا نجادل في وصية، ولا نشكك في بركة انتقلت لغيرنا ببصيرة الشيخ رحمه الله تعالى، والله إنه زمن جديد.... تكسر فيه القيود... أدعو الله أن أعيش طويلًا حتى أنعم بمشهد تولية أحد «الحراطين» الولاية... والله سيكون خير أيامي وأسعد أفراحي، لقد فتح شقيقي تغمده الله برحمته نافذة اليوم لزمن جديد بشجاعة معقولة، حكمة محسوبة، كأنه يئد جاهليتنا... ويعيدنا للنبع المحمدي الصافي....». وجثا على القبر باكيًا حتى اختنق، فسحبه ولده البكر سي عبد الرحمن ذو العقد الثالث وابنته الوحيدة المتزوجة من أمازيغي يتاجر في اللبان، وأخذاه وقد خارَت قواه حزنًا عميقًا، يكاد يجر رجليه، مطرق الجبين إلى الدار الكبيرة، أمام أعين أمهم التي انفطر قلبها، ولولا العادات والعرف لأسرعت إليه وضمته مواسيةً، بينما الزوجة الشابة العاقر، تهز رأسها وتلوي شفتيها لا يعلم أمن سخرية أم من ضغينة!

(11)

أقنع العيساوي «سي إبراهيم» أبا شامة بمرافقته إلى غرفته بالخربة، وهو يسحبه من تلابيبه حالفًا بأغلظ الأيْمان، وهو يلثم كتفه، حتى أحرجه فَلَانَ وانقاد داعيًا إياه أن يتعوذ من الشيطان الرجيم، ثم لحق بهما صلاح حيران وقد تعب من الخطو على إيقاعيهما السريعين، ضافت الأرض بما رحبت بأبي شامة، وظل يعصره الحزن والخوف، وتملكه القلق، فخاف خوفًا شديدًا، حتى جالت في خاطره فكرة الهروب، فلو كان غيره لفرح فرحًا جارفًا، وأقام الولائم وذبح الذبائح، فبعد حين ستشد إليه الرحال للتهنئة مُحملةً بالعطايا والهدايا، ولا كل طامع في دعاء من قلب صادق لشيخ ورع. وضع رأسه بين يديه، وغدا يتأرجح بأنين كأم في كمد عميق، وهو يُردِّد بأسى: يا ربي...! يا حفيظ...! لا تتخلَّ عني في مصيبتي...! لست أهلًا لها، لست لها وليستْ لي.. إنه أمر جلل...

وطفق يضرب رأسه بكفيه منتحبًا:

— ما طلبتُها والله... والله... ما طلبتُها...

يمدهما العيساوي بكأسي شاي فاح في الأجواء عبق نعناعه، ويضع خبزًا وثمرًا في طبق من الدوم ويقول وهو يتمدد:

— اهدأ يا شيخ...! يا سيدي إبراهيم...! يا أبا شامة...! ومتى كانت تُعطى لمن يطلبُها...؟! اصغَ إليَّ رحمك الله وسدَّد خُطاك...! هذا الأمر الذي تهرب منه خوفًا لم تطلبه ولم تسعَ إليه، بل ساقه المدبر الحكيم إليك، وجعل له الأسباب وتتبعت سببًا بسبب دون أن تدري، فلم تكن طامعًا في مشيخة ولا طامحًا في ولاية، وما كان يخطر ببالك ولا افتراضًا أن الأمر ممكن أن ينتقل

من الشرفاء إلى المرابطين، قد تطلب الأمر زمنًا حتى جاء الشيخ الشجاع فهشَّم الأصنام الجديدة، وأشرقتْ شمس عهد جديد على الواحة، فلا تهرب هروب الجبناء من أمرٍ قضاه الله لحكمةٍ من حكمه، وما عهدتك خوارًا ولا جبانًا.... وأعرف أنك تخشى ثقل الأمانة... لكن... اسمع.... بالله عليك اسمعني حتى النهاية وخُذ جرعة من الشاي وكسرة خبر وثمر...! فقد أكلتُ طعامكم وشاركتكم الملح والماء، فكُل مِن طعامي أرفع بها رأسي بين الناس، فإن كان لا بد من الفخر يومًا، فخرت بأنك دخلت داري الخربة، وقاسمتني رغيفي... وأكلت من طبق تمري..

يرتشف سي إبراهيم أبو شامة الشاي ويمد يدَه للخبز والثمر مرددًا بوجه طلق بشوش:

— العفو.... أنا من يشرف بالمقام وصاحب المقام... لو كان لي أن أفخر يومًا لفخرت بك سندًا وأخًا في يوم أنا أحوج فيه للناصح الصدوق، والعقل الراجح، واللسان الصريح...

ينظر إلى صلاح حيران الذي بدا عليه القلق والتعب، يدنو منه ويقول بوجه طلق ذهب عنه القلق والتوجس:

— يا أخي...! لنحتسِ شاي العيساوي...! من يدري...؟! قد تكون فيه بركة ونحن نبحث بعيدًا... خذ الكأس قبل أن يبرد فيذهب عنه عبق النعناع... والآن كلنا آذان مُصْغِية لك يا العيساوي...!

— أريدك أن تعلم أنني كنت فقيهًا وعالمًا مُهابَ الجانب، لي أتباع وأشياع حتى أضلني الشيطان، فاغتررت بالكثرة التي حولي، واسمي الحقيقي محمد، واسم والدي عبد الله، وأنا بيت قرشي، فرمى الشيطان في عقلي شهوة الزعامة، وهي شهوة أضل بها الشيطان كثيرًا من الأولياء والزهاد والنُّسَّاك والعُبَّاد، فزين لي إبليس الدعوة لنفسي، فقلت: أنا المهدي المنتظر، صدَّقني البعض، وكنت أقف في المساجد داعيًا إلى اتباعي، حتى صحوت من غفوتي، ووجدتني في مستشفى المجانين، وجيء بعالمٍ كبير فناظرني، حول المهدي المنتظر، زمن ظهوره وشروط

دعوته ومكان ظهوره، فلم يكن من الشروط غير تطابق الاسم، وتُبتُ إلى الله تعالى، وعلمتُ كمْ أضلني الشيطان، لكني حين عُدتُ لبلدتي، صرتُ في أعينهم المجنون، وقطعوا كل صلة بي إلا أهلي، لكني ظللت كالبعير الأجرب، منعزلًا في كوخ لأهلي في غابة الصنوبر، وتعلمت صيد الأفاعي والثعابين والعقارب، وصارت تجارتي، وحين حلَّت بوما بالواحة بحثًا عن الأفاعي، رآني الناس وتعقبوني في الصحراء والخلاء، ورأوا من أمري ما رأوا، فأطلقوا عليَّ اسم «العيساوي»، لكني لم أعد قادرًا على مغادرتها، فصرت منكم ولستُ منكم... أنا طلبت الزعامة وهذه ضلالة للزهاد والأولياء، وأنتَ لم تطلب زعامة، بل أورثك الشيخ العارف بالله سِرَّه وأمر الزاوية، وخير ولي من لم يطلب ولاية... لا تهرب مما حملك الله من رسالة...

نقل العيساوي نظراته إلى وجه صلاح حيران الذي لم يستطع قمع دمعه، فانتصب واقفًا وذرع الغرفة جيئةً وذهابًا بتوتر وقال:

— قبل ما يقرب سنتين، كنت أظنني أحكم العالم، كنت رجلًا تكفي نظرة مني ليتبول أشد الرجال في ملابسهم، أتعلما ماذا كانت مهمتي...؟ لا... لن تصدِّقا... كان عليَّ جلد الناس وتعذيبهم حتى يُفصحوا عن الأسماء والأرقام والعناوين والمخططات... كان عليَّ أن أبتكر طرق التعذيب... وحين أحصل على معلومة أو اعتراف... أشعر أنني أملك الدنيا وما فيها.... لقد أسهمت في دفن العشرات من قتلى انتفاضة سنة 1981 جاؤوا بالجثث في الشاحنات، بعضها في أكفان، وبعضها بلا كفن، تحضرني بقوة صورة ذاك الطفل الذي رمي بالحفرة الجماعية وفي يده كويرة بلورية، هذا أنا... للأسف بعدما أنهوا خدمتي... شعرت بالغبن والخذلان... وداهمني الاكتئاب... وحرَّمتُ على نفسي الذرية، فأنا ابن ميتم، وحين اختاروني... اختاروا من لا ارتباطات له، من لا أحد يسأل عنه.. لكني تحمَّست في وظيفتي حتى فقدتُ إنسانيتي.... كيف أسترجع نفسي بعد كل هذا.... ؟! أنت يا العيساوي ظلمتَ نفسَك وظلمك الشيطان... لم تؤذِ أحدًا... أما

أنا فقد شرَّدت أُسرًا وخرَّبت بيوتًا، ولفَّقت تهمًا، وبدَّدت أدلة، ودفعت الكثيرين للجنون.

نهض سي إبراهيم أبو شامة، وبش في وجه صلاح حيران، ثم مال نحو العيساوي وقال بحنو وقد انشرحت تعابير وجهه:

— صدقت يا العيساوي...! لن أهرب من أمرٍ قضاه الله، تالله ما أخافني إلا ثقل المسؤولية، وجسامة المهمة، وإنها لأمانة ثقيلة، لم أستعدَّ لها، ولا أعرف هل سأكون كما ظن سيدي رحمه الله محمد الإدريسي...؟ لكن ما سمعت من صلاح حيران... يجعلني أفكر عميقًا في خيبات جيل كامل... ربما حان الوقت للتغيير... والتفكير في رسالة الزاوية...

يرد عليه العيساوي بنبرة الموقن:

— وماذا تظن...؟! أتظنها فوضى أم تركت للناس يتداولونها حسب المزاج...؟ لا كذلك ألهمه الله، ورأى فيك ما يضمن الحقوق ويديم النِّعَم الروحية للزاوية، ولا تنسَ أنك كاتمٌ أسراره، ومدوِّن أوراده، وكاتب أدعيته...! وجودك معروف، وعلمك وافر موفور، وذِكْرك بين الناس بالخير موصول...

يقاطعه صلاح حيران بعدما شعر براحة البوح ونعمة الاعتراف:

— يا أبا شامة، ما أكثر المعذبين التائهين مثلي...! وهم في أمسِّ حاجة إلى شيخ يقوده لبرِّ الأمان ويمدهم بيد بيضاء تخرجهم من جب الظلام والشقاء... أتشفى أرواحنا أم سنظل نسمع خطو القتيل في ليالينا، وهمس الضحية في رؤوسنا صخبًا يمنعنا من النوم...؟ أتشفى أرواحنا وظل السجين الذي جن يرقبنا في كل ناصية؟ أننام بلا مهدئات...؟ أنتخلص من الذعْر والخوف... أم قدرنا أن نظل سجناء ضحايانا؟!

يمعن أبو شامة النظر في وجه صلاح حيران ويقول بهدوء وعيناه تشع أملًا وقد انشرحت أساريره:

— أحسِن الظن بربك...! عنده الشفاء والضياء... ستعبر معي حيث تجد الحبور والسكينة والسلام...

يقهقه العيساوي فرحًا ويحدق في أبي شامة متسائلًا:

— لن تتركنا إذن...؟

— لمن أترك مثل هذه الأرواح المعذبة...؟! لمن أترك مثل هذه القلوب المنكسرة...؟ من يفهم هذا الجيل غيررجل من جيلهم ومن زمنهم، مدرك لهمومهم وأحلامهم وخيباتهم.. مهمتي ورسالتي ليستا الدعوة والصحوة والخلوة.... مهمتي ترميم الأرواح المنكسرة، وإنعاش القلوب اليائسة؛ فاليأس يصنع الوحوش، ويُعمي العقول، وتتطرف له الأفكار، وتمرض له القلوب، فيختلط في منطقها الحق بالباطل، والحقد بالانتقام، وتظن الثأر جهادًا، فتتبع كل حامل راية باسم الدين دعواه ظاهرها حق وباطنها باطل، يا سي صلاح حيران...! همك وأحزنك توقيفك عن العمل، اختار لك الله... دروب الله متعددة، ونِعَمه قد تأتي كالنقمة، التوبة بلا وجَع، ضعيفة هَشَّة، توقفك عن العمل حِكمة ربانية، رُبَّ نِقمة هي نعمة... وإني في حاجة إلى بطانة صالحة، ورجال ثقة، وأنا لا أجيد تدبير الأموال، وأملاك الزاوية، وضبط النفقات في السجلات، سأكون سعيدًا لو تقبل مهمة ناظر تدير شؤون الزاوية المالية وأملاكها بما يُرضي الله، أما أنت يا العيساوي...! فمسجد الزاوية سيحتاج إمام الصلوات الخمس وواعظًا مرشدًا، هولك، لكن حذارِ من أن يغرك الشيطان مرةً ثانية...! والآن تعالا لنعُدْ إلى الدار...! تعالا.. فالكل ينتظرنا.... بسم الله الرحمن الرحيم.... توكلنا على الله.

حطت حوامة «طائرة هليكوبتر» في الواحة عند الظهيرة، وقد أخبر «المقدم» الشيخ سي إبراهيم أبا شامة وأهل الواحة ليلة أمس أن وفدًا من الرباط سيأتي صباحًا لتقديم العزاء وتزكية ومباركة الشيخ الجديد، ولكن الوفد تأخر لأسباب مجهولة، وانتظروه على مدخل الواحة تحت ظلال النخيل، وعيونهم على الطريق الرملية ظنًّا منهم أن الوفد سيستقل السيارات الرباعية الدفع، وقد سبقهم «باشا» المنطقة وعامل الإقليم منذ الفجر.

تقدم الوفد الرسمي مستشار الملك لتقديم العزاء لسيدي إبراهيم أبي شامة باسم الملك، وتبليغ الشيخ الجديد الرضا المولوية والعناية الملكية، وتزكيته بظهير شريف، فزغردت النساء، ودقت الطبول، ولولا مدة الحداد في عشر ليالٍ، لرقص الرجال والنساء رقصًا جماعيًّا في حلقات كالفراشات. رفع الدعاء لأمير المؤمنين الذي خصَّ الزاوية بهبة ملكية لترميم مدرستها العتيقة، وعطاء سنوي لتغطية تكاليف ومصاريف دراسة طلبة العلم والقرآن الكريم، وجاءت الأوامر الملكية بربط الواحة بشبكة الكهرباء، وحفر بئر بها وبناء صهريج للماء، وإطلاق مشروع لحماية الواحة من زحف الرمال وتآكل التربة، وتوفير مياه السقي والري حفاظًا على النخيل والحياة في الواحة.

استبشر الناس خيرًا، وظل الزوار يفدون من الواحات الأخرى، ومن كل الزوايا دون انقطاع، تعقر لهم الجمال، وتُذبح لهم الذبائح، ويقرأ القرآن الكريم نهارًا وليلًا، ويُقدم لهم البلح والثمر، الذي يطعم الجميع على السواء فقيرهم وغنيهم، ولبن النوق الذي يطفئ عطشهم، والماء الزلال وإن غاضت العيون، حتى كاد الناس أن ينسوا انحباس المطر، وغيض الينابيع، واحتضار الشجر والبهيمة.

(12)

«الزناد» الذي صرعه أبو شامة يومًا ما حين عرض لرقية، اسمه الحقيقي، جابر الحرطاني، وقد كنَّاه أهل الواحة هذه الكنية؛ لأنه اشتهر بينهم بمكْرِهِ ودهائه، يزند نار الفتنة، ويطلق العنان للسانه مشهرًا ومحرضًا، أجداده اشتغلوا بالزراعة والحرث، ولم يكونوا مالكين، حتى بيوتهم ودورهم للشرفاء أو المرابطين ملاك الأراضي والنخيل، لكنهم لم يكونوا عبيدًا رغم سُمرة بشرتهم، وقد اختلفوا في أصل تسميتهم بـ»الحراطين»، بين تحريف للحراثين وبين من يزعم أنها أصلها «حرثاني»؛ أي في منزلة بين الحُرِّ والعبد، أقل درجة من الحُرِّ وأعلى من العبد، «الحرَّاطِين» أول من هاجر إلى فرنسا للعمل في المناجم؛ لقوة أبدانهم ولأوضاعهم الاجتماعية، فهم لا يملكون لا نخيلًا ولا عيرًا، هجرتهم هذه غيَّرت أوضاعهم، اشتروا الأراضي في الواحة، وكان أول من رفع العمران بالأسمنت بدلًا من الطين المدكوك، وأول من أحضر المضخات المائية التي تعمل بالمازوت.

بلغ الزنان الخامسة والخمسين من عمره، وقد عاد للواحة من بلاد المهجر منذ خمس سنوات، فجاء بالعجب معه، وخرق أعراف وعادات أهل الواحة، يلبس لباس العجم ويضع قبعة، ويدخن غليونًا، ويركب سيارة، ويجمع الصعاليك في بستان نخيل له، يعاقرون الخمر، ويدخنون الحشيش، ويؤلف قلوبهم بالخمر والطعام والملبس، وهم له كارهون لجلافته وسوء طبعه، وقد غيرت الهجرة حاله، من فقر إلى غنى فاحش، وتحول من لقَّاح للنخيل على صنعة أجداده إلى تاجر يتاجر في أي شيء، من الأنعام إلى المواد الغذائية، ويقرض الناس بالربا، ويبيع الخمور سرًّا،

فغدا صاحب أملاك ونخيل كثير، وبساتين ومروج، وعِير، وحمير، وبِغال وخيول، ونسج علاقات مع رجال السلطة والدرك والأعيان في المدن، يقيم لهم من حين لآخر وليمة تُذبح فيها الذبائح، وترقص الراقصات، ويغني المغنون حتى الفجر.

فتح متجرًا كبيرًا في الواحة، يجد فيه أهل الواحة ما يحتاجون إليه من غاز، وبنزين، وملابس مستعملة وجديدة، وماعون، ولدائن، ومواد غذائية، وشمع، وأقراص صداع الرأس، وصابون، وأحذية، ودقيق، وتوابل، وحلي الفضة، والصوف، وخيوط الحرير، وأدوات الخياطة، كان متجره في الطابق السفلي لداره الإسمنتية العالي، وقد استغنى عن سيقان النخيل وسعفه وعيدان الخيزران لصناعة الأبواب والنوافذ، فجاء بالنجارين والحدادين من المدينة ليصنعوا الأبواب والنوافذ، وبدل اعتماد الجير وخليط الطين الرقيق المغربل في الصباغة، أحضر الصباغين وصناع الرخام والمرمر، فغدا من أغنى الناس في الواحة، لكن ظل في عيونهم «حرطانيًّا»، وكان الأمر يؤلمه ويجرح كبرياءه، لهذا كان يفتن ويرمي أعراض الأشراف والمرابطين، بل يُشكك في الأنساب، ويرمي نساءهم بالفاحشة، وكم ضُرِبَ حتى أوشك على الموت، وكم طلب أهل الواحة من الشيخ الراحل أن يأذن لهم بقتله، لكن الشيخ سي محمد الإدريسي، كان يرفض رفضًا قاطعًا ويقول: «القصاص بيد السلطان، بعد قضاء وحُكم، ولم تبلغ جريمته مبلغ هدر دمه...». ويدعو له بالهداية.

الزنان يعيش وحده في داره الكبيرة، بعدما هجرته زوجته الغالية بنت عزوز، وعادت لدار أبيها عزوز صانع الجرار والقدور، تزوجته قبل أن يهاجر لفرنسا، وأنجبت منه ولدًا ذكرًا اسمه عبد اللطيف الذي نشأ في بيت جده منذ هجرت أمه أباه ما يزيد عن رُبْع قرن، وكانت امرأة ورعة تخاف الله، وتحب الحلال، ونشأت في بيت متواضع بين النخيل، أمامه فرن لإنضاج الطين، حيث يقضي والدها يومه في صناعة الخواب

والقدور والجِرار وإلى جانبه زوجته «راضية بنت بلال»، تنسج السلال والقُفف من سعف النخيل وخيوطه، لم يُرزقا بغيرها، تزوجها الزنان، فأساء معاملتها وكثر أذاه لها ولؤمه، وكان جلفًا غليظًا بذيء الشتم، يضربها ضربًا مبرحًا كلما لعب برأسه الخمر، فتركته مُكرهة ومعها رضيعها، وعادت لبيت أبيها، ورفض الزناد تطليقها إلى أن هاجر لفرنسا فحصلت على طلاقها؛ للغيبة.

بعد أسبوع من تولي سي إبراهيم أبو شامة مشيخة الزاوية، زار «باشا» المنطقة الزاوية، واستضافه شيخها كالعادة، وحينما انتهيا من طعام الغداء، جلسا يرتشفان الشاي تحت ظلال النخيل، فحدس الشيخ أن زيارة الباشا ليست عادية وقد أطال البقاء وحضر معه مجلسه واستمع إلى زواره، وحضر ورد الصباح وورد الظهيرة، وعقب كل ورد يُتلى يُدعى للملك، فدنا بفيه من أذنه وهمس له كي لا يسمعه الخدم:

— ليس من عادتك أن تفد علينا وتطيل المقام، والله ما استثقلناك ولكن عجبنا من حضورك أوراد الصباح والظهيرة، وجلسة استقبال الوافدين والزوار كأن أمرًا ما يشغلك.

أطرق «الباشا» جبينه، ثم رفع رأسه وطفق يخط بأصبعه على السجاد وقال مستاءً:

— ماذا أقول لك سيدي الشيخ الجليل، لقد وشى بكم واشٍ للجهات العليا، زاعمًا أنكم تتلقون البيعة من الناس، وأنت تعلم أن بيعتين لا تجتمعان... و...

انتفض الشيخ غاضبًا حتى اعتصر وجهه دما، وجحظت عيناه غيظا، وتجعد جبينه وقال:

— أي بيعة هذه يأخذها شيخ طريقة صوفية من الناس والمريدين والمحبين والعارفين والعاشقين!؟ الشيخ ليس زعيمًا ولا ملكًا ولا سلطانًا حتى يطلب البيعة... البيعة للسلطان وملك البلاد فقط، ودُبر كل صلاة جماعة يرفع له الدعاء، وعقب كل قراءة ورد ندعو له بالنصر والتأييد...

وهذا ما درج عليه كل شيوخ الزاوية تغمدهم الله برحمته... والبيعة شعبة من الزعامة، والشيخ ما كان له أن يكون زعيمًا، والزعامة شأن دنيوي، ونحن تركنا الدنيا وما فيها وتفرَّغنا لحب الله ولله.

اضطرب «الباشا» ودارت عيناه في محجريهما قلقًا وقال بحياء:

— والله يا سيدي الشيخ هذا الزناد أحرجنا معكم... وكان لا بد أن أدوِّن تقريرًا لما أرى لا بما أسمع...

انتصب الشيخ واقفًا وقد استشاط غضبًا، فاعتصر وجهه احمرارًا، فوقف «الباشا» باضطراب وقال معتذرًا:

— والله يا سيدي الشيخ... كنت أعرف أن الزناد فتَّان... ولكن ما العمل وقد وسوس لمسؤول كبير في أذنه، فجاءت الأوامر...؟!

— السلام عليكم... قل لهم... الشيوخ لا تلهيهم الدنيا وما فيها، ولا يطلبون بيعة، وفي أعناقهم بيعة سلطانهم وهم على مذهبه، هكذا كانت الزاوية الرحمانية الجيلانية منذ قرون، وستظل...

— ائذن لي يا سيدي الشيخ، ولن يُعرف له طريق...

ابتسم الشيخ وربت على كتف صلاح حيران وقال:

— يا سي صلاح حيران...! أعادَ صلاح حيران القديم؟!

فضحك صلاح حيران حتى بدت نواجذه وقال:

— ماذا ترى يا سيدي...؟!

— لا نملك سوى الدعاء له بالهداية... هداه الله... قل لي كيف حالك أنت...؟

— أحسن ما يكون منذ لزمت الزاوية، ومجالس الذكر...

— أتنام؟

— نعم... ما إن أضع رأسي على الوسادة حتى أغفو...

— أما زال عقلك متعلقًا بالماضي...؟

— سأقول لك الحقيقة، وأنا في الطريق نحو الواحة، امتطيت حافلة

كالجحيم، ثم ظهر لي طفل من حين لا أدري، فعلَّمني في لحظات سريعة كيف أحب الحياة، وقد جلس بجانبي شيخ، ما إن وضع يده على رأسي حتى تبدد قلقي، وأهداني مصحفًا، وبشَّرني بالولد...

— أين المصحف...؟

— معي دائمًا... وفي غرفة نومي...

— لا تفرِّط في هبة السماء، فلا نعلم من جالسك أو من أهل الله في الأرض أم من أهل السماء... ذاك المصحف كنزك... فلا تفرط فيه.

— طبعًا...

— والآن ... انسَ الزناد... فعلًا أغضبني فعله، ولكن الحلم غالب على الغضب، وهو تائه جنَّدَه الشيطان، ومعركتنا ليست مع الضحية، بل مع الجلاد إبليس الرجيم، لو حررنا منه الزناد، لخسئ كالعادة وهو الصاغر الذليل... اللهم يسِّرْ أمرنا في هداية أخينا...

— لقد قمتُ بما أمرتَ، استخرجت حقوق لالة أم سعد، ودونت لها إشهادًا حضره الشهود يثبت النسب، لكنها بلغتني أن أقول لك: إن حقها في المال والعقاروالأرض والنخيل توصي به وصية خالصة للزاوية، ويكفيها شرف النسب... وتطلب منك أن تبني جناحًا في الزاوية للنساء، للذكر وترديد الأوراد، والنصح، والوعظ، والتحاب لوجه الله.

— كان لها هذا... قم بالتوسعة يا سي صلاح حيران...

يستأذن الخادم، ويلج الغرفة، ويقول:

— سيدي... سي العيساوي إمام مسجد الزاوية يريد رؤية سي صلاح حيران...

يحملق فيه عجبًا الشيخ ويقول:

— دعه يدخل...

— لا يريد الدخول، طلبني أن يستأذنك ويرى سي صالح في الخارج..

— عجبًا... وفي هذا الليل...

ينتصب صلاح حيران واقفًا، يحكم عباءته، ويقول:

— أستأذنك سيدي الشيخ... سأرى ما يريد...

في غرفة سي العيساوي بالخربة التي رفض مغادرتها والسكن في دار ملحقة بمسجد الزاوية، فوجئ صلاح حيران بوجود شاب أسمر اللون، بهي الطلعة، تسبقه الابتسامة، ممدًّا على حصيرة، ما إن لمحهما حتى انتفض واقفًا يسوي عباءته، سلَّم سلامًا حارًّا على صلاح حيران ضمًّا شديدًا كأنه يعرفه منذ زمن، قدَّمه سي العيساوي وهو مرتبك شيئًا ما:

— هذا الشاب الوسيم هو المهندس سي عبد اللطيف ولد راضية بنت عزوز..

— ما هذا يا سي العيساوي، أتنسب الرجل لأمه...؟

— صبرك عليَّ... أبوه هو....

— أعرف.... السيدة راضية طليقة «الزناد»... وليكن... ننسبه لأبيه... لا أحد يستعر من أبيه... كيفما كان...

ابتسم عبد اللطيف، وشعر بالطمأنينة مما سمع من صلاح حيران، فقال ولم يتخلص بعد من الارتباك:

— والله يا سي صلاح حيران كم تمنيتُ زيارتك والتعرف إليك...

— كل الشرف لي يا سيد عبد اللطيف، فأنت من خِيرة شباب الواحة، اجتهدتَ وثابرتَ رغم ظروفك الاجتماعية، وصرتَ مهندسًا تفخر بك الواحة.

أطرق الشاب رأسه خجلًا، وقال:

— لم أكن لأبلغ ما بلغت لو لم تكفل الزاوية مصاريف دراستي بمدرسة المهندسين بالرباط...

— الزاوية ليست فقط للذِّكر وجلسات تلاوة الأوراد، هي مؤسسة اجتماعية، وتقف بجانب كل من سعى للعلم والمعرفة... والآن لنجلس... ونتحدث... لا بد من أمر ما وعاجل وإلا ما أخرجتني ليلًا يا العيساوي وأردت الحديث معي بعيدًا عن مجلس سيدي الشيخ....

مرر العيساوي يده على قفاه، ونقل نظراته بين وجه عبد اللطيف الذي لم يكن أقل اضطرابًا وقلقًا ثم استجمع قواه وزفر قويًّا وقال:

— ماذا أقول...؟! سي عبد اللطيف... جاءني المسجد وطلب مني....

— ماذا يا سي العيساوي...؟ تكلم...!

— طلب مني رأيي..

— رأيك...؟ في ماذا...؟

— يريد.... يريد...

نفد صبر صلاح حيران فانتفض بغضب مزمجرًا:

— يريد ماذا...؟ تكلم... ستفجر عِرقًا في رأسي...

— يريد... يريد الزواج من لالة شامة....

عَمَّ صمت رهيب المكان، وتملك عبد اللطيف القلق، بينما تظاهر العيساوي بإعداد الشاي مرتبكًا، فابتسم صلاح حيران وقال وهو يربت على كتف الشاب:

— أنت شاب ومتعلِّم وربَّاك جدُّك وجدتك أحسن تربية... فليس العيب أن يكون جدك صانع جرار وجدتك صانعة قفف... المهم أنت أكلت من حلال، ونشأت في الحلال، ولا أرى ما يمنعك من التقدم لخطبتها...

— سُمعة والدي... ولم يسبق لأحد من «الحراطين» في الواحة أن تزوج من المرابطين أو الشرفاء..

— حان الوقت إذن... غدًا تأتي مجلس الشيخ عصرًا رفقة جدك وجدتك وأمك وتطلب يدها... سنرى إن كان سيدي الشيخ سيردك... ولا أظن ذلك...

ارتسمت على وجه عبد اللطيف ابتسامة رضا، واقتعد العيساوي الأرض وهو يقلب الشاي قلبًا حتى يذيب السكر، بينما جالت في خاطر صلاح حيران أسئلة محيرة: «ماذا لو رفض الشيخ طلب هذا الشاب...؟ ماذا لو رفضت هي...؟ أرآها...؟ كيف والنساء والفتيات هنا لا يخرجن إلا وهُن ملثمات لا تبدو منهن غير العيون...؟!» تمعن فيه جيدًا بطرف عينه،

فلم يرَ فيه غير البراءة، ابتسامة صافية تعكس بياض طويته، وناجى نفسه: «سبحان الله... كيف يكون هذا الفرع الطيب من ذاك الغصن الخبيث...؟! «.

كأن العيساوي كان يقرأ أفكاره، مدَّ له كأس الشاي وهو يردد: «يخرج من ظهر الصالح الطالح، ومن ظهر الطالح الصالح، خذوا العبرة، من نوح عليه السلام وابنه، ولوط عليه السلام وزوجته، وإبراهيم الخليل عليه السلام وأبيه، لم يترك لنا الله تعالى شيئًا إلا ذكره في الذكر الحكيم، فهو العزيز المعز لا يحاسبكم الله بما فعل آباؤكم، ولا أبناؤكم، سبحان الحق العادل.. لا تزر وازرة وزر أخرى...». كلمات العيساوي عقلت عنان عقل صلاح حيران الذي جمح نحو أسئلة فيها من سوء الظن واستعجال الأمر ما لا يحق لمؤمن أن يخوض فيها.

(13)

تردد صلاح حيران طويلًا في إخبار الشيخ سيدي إبراهيم أبي شامة بما دار بينه وبين العيساوي وعبد اللطيف ولد الزناد من حديث، لكن الأمر ثقل عليه، وعجز عن حبسه في صدره، فقرر أن يُخفِّف عنه وِزْره بتقاسمه مع زوجته رقية، وسماع رأيها في الموضوع، فإن حفزته على البوح للشيخ خرج إليه ولو في هذا الليل الذي عزت فيه النسائم اللطيفة، وافتقد ضياء القمر، وتناثرت نجومه شاحبة بخجل نائية لا تهدي غير دليل أو من خبر خرائط السماء أسرى ليلًا بالصحراء.

استمعت رقية إلى حديثه باهتمام لكن لم تبدُ عليها أدنى علامة للدهشة، ولا استغربت من الخبر، سحبت فوق جسدها الإزار الشفاف وقالت وهي تتثاءب بخمول تقاوم نومًا لحوحًا: «لم ننتبه للزمن، شامة صارت عروسًا والعرسان يتسابقون من أجلها، وتحدث أمهاتهم أختي فاطمة... أختي فاطمة أصبحت محرجة، والشيخ يكتفي بالدعاء وترديد لم يحن وقتها، وزواجها لن يكون عاديًّا، ستُوصل به أرحام وتُغسل به أحقاد، ويُهدُّ به صنم، ويُهدى به ضال...».

كان صلاح حيران يحتاج إلى جرعة تحفيز وتحريص ليفاتح الشيخ في الموضوع، يريد منها رأيًا في الموضوع، لكنها اكتفت بالتعليق وغفت. حاول النوم هو أيضًا، لكن هيهات، فموضوع عبد اللطيف وشامة قض مضجعه، تقلب طويلًا في فراشه، وأكثر ما شغله عدم إخبار الشيخ، وتوجسه من أن يحسب تحفظه عليه لا له، ويغدو وفاؤه موضوع ريبة، شعر بالحاجة إلى تدخين سيجارة، ورغب فيها رغبة عابرة، وكان قد تخلص منها، وفطم

نفسه منها بعد عناء ومشقة ومكابدة طويلة، شأنها شأن الأرق القديم الذي تخلَّص منه، منذ حلَّ بالواحة، بعدما غسل الشيخ روحه بنور الأوراد، ونزع من صدره أشواك الماضي الجارحة نزعًا لم يكن بلا وجع ولا نزيف، وصانه بالتربية الروحية من اليأس القاتل، وعلَّمه الصبر والجَلَد، وكبح لجام النفس حين تجمح، وبالقرآن والرفقة الصالحة خلَّصه من الظلال المخيفة التي كانت لا تتوقف عن الصراخ وهي تمد أياديها نحو رقبته تريد خنقه.

اختفى مع الزمن الصداع والطنين، فلم يعد في حاجة للسجائر التي كان يلتهمها التهامًا ليُبدِّد توتره، في البداية، كان يختفي بعيدًا عن الأعين خجلًا واستحياء ليدخن سيجارة أو اثنتين، مستجيبًا لهوس الجسد الذي يلحُّ في جرعته اليومية من النيكوتين، إلى أن قال له الشيخ يومًا وهو يبتسم بهدوء: «يا سيد صلاح حيران... نعرف أنك تدخن، والتدخين ابتلاء وبلاء، نعرف أنه عِلَّة متحكمة في العقل والجسد، إدمان لا يقل استعدادًا عن المخدرات، لن نبحث في الحلال والحرام، لكني أمنحك الإذن لتدخن متى شئت، فأنت العليل والعليل يجب أن يكون تحت أعيننا، ولك عندي دواء إن رأيت جرَّبته، اسمع.... كي تحرر رقبتك من رِقِّ التبغ، لا بد من جهاد للنفس ومغالبة، اعلمْ أن للرقِّ أوجهًا وأشكالًا، أدناها الرق المعروف، لكن هناك رق الذل، ورق الخنوع لغير الله طمعًا في حظوة أو عطاء على حساب الحق، ورق الشهوات والأهواء، والتدخين شهوة جامحة تمكَّنت من العقل والجسد، ولا دواء لجموح النفس غير القيد والعنان، فاضربها بالحرمان والصبر، وروِّضها بالصوم والصلاة، وذللها بقيام الليل وخدمة العوام، واسجنها بخلوة سنوية تلجم فيها تطلعها للشهوات والأهواء».

اختلى أسبوعًا في خلوة الزاوية، حتى روَّض النفس وقمَعها عن شهوات كثيرة، وفطَمَها عن السجائر حتى أذلها، وصار عنانها بيده، بعدما كان العنان بيدها، يتبعها حيث شاءت، خانعًا باستسلام لهواها، ولكل ريح ترسله يفرد أشرعة مركب الحياة مبحرًا حسب خرائطها.

شعرت رقية بتقلبه على الفراش، فنهضت وأشعلت السراج، وجلست على طرف السرير، وقالت بقلق: «ما بك...؟ ما الذي أرَّقك...؟ يا خوفي أن تكون عُدتَ لقديم عهدك...!». يمنعها بحركة سريعة من لطم صدرها ويقول بأسى: «اخفضي صوتك، الناس نيام، وغرفة لالة أم سعد قريبة جدًّا، ونومها خفيف، قد تسمعك فيركبها الجزع...».

— قل لي... يا صلاح حيران...! ما الأمر...؟— لا أريد أن يقلق مني الشيخ...

— كيف... وهو يعزك...؟

— أنا في حيرة من أمري... إن لم أخبره بحديث عبد اللطيف ولد الزناد وعلم بعد أنني كنت على علم ولم أخبره قد يغضب ويستاء، وإن أخبرته قبل أن يأتيه عبد اللطيف... قد أكون استبقت القدَروأفشيت ما لا يُفشى...

— اسمع...! هل أخذ عبد اللطيف عليك عهدًا بألا تخبر الشيخ...؟

— لا...! فقط طلب رأيي...

— حسنًا...! سأخبر أولًا فاطمة... وهي ستخبره...

— ماذا تتوقعين...؟

— لا أتوقع شيئًا ... الأمر ليس بيد الشيخ...

— ماذا...؟ أجننتِ...؟

— يا حبيبي...! نحن لا نغصب البنات على الزواج.... الأمر بيد شامة...

— وهل يزوجها الشيخ من شاب «حرطاني...؟».

— وأنت ما رأيك...؟ ألك اعتراض...؟

— لا بالعكس... هذا تحول كبير في الواحة....ومكلف... وسيكون له أثار كثيرة...

— لا تنسَ أن البداية كانت في عهد أبي رحمه الله...! زوجني إياك ولم يسأل عن أصلِك وفصلِك، وزوَّج فاطمة للشيخ وكان من «المرابطين»... والتغيير تربية ذاتية وجماعية، وعقيدة تصون الانحراف والشطط، وإرادة

راسخة فيها الإجماع لا تسلط جماعة على أخرى، التغيير لا يكون بالأماني والشعارات، بل بوجود إرادة قوية، وابتهال الفرصة المناسبة للقيام به، لكن التدرج مطلوب، والتغيير لابد أن يكون سلميا، فلا خير في تغيير يهدم الاستقرار ويشرد الناس، ويهد العمران، ويقتل العجائز والشيوخ، ويشرد الصغار والنساء، هذا ليس تغيير، هذا فتنة تحرق الأخضر واليابس... كل تغيير مهما اتسعت دائرة المستفيدين منه، لا بد أن يخلف ضررًا ما، ولو محدودًا، وأظن أنه حان الوقت ليعطي الشيخ القدوة والمثل في أهل بيته... بالتربية...والقدوة...

— صدقتِ...! بدَّدَ كلامك همي ومخاوفي. ولكن سُمعة الأب ومجونه وتهتكه.. وآخر وشاية له كادت تشعل الواحة نارًا لا تذر الأخضر ولا اليابس..

— يا صلاح حيران...! ألم تقل إن الشاب على خُلق ومُتعلم وذو عفة ودِين... وفوق هذا تربَّى بعيدًا عن حياة والده الماجنة...؟! أتبارك أنت هذا الاقتران؟!

— نعم... أنا سأكون سعيدًا لو تَزوَّجَتْ هذا الشاب الطموح... فلا نحمله أخطاء أبيه.

— كذلك الشيخ... هو يعلم شرْع الله... ولن يرُدَّ شابًّا للونه أو لأصله... هذا زمن مضى... ولن يردَّهُ لسُمعة أبيه... لو رده لكان لعيبٍ فيه... لا في أبيه...

— صدقتِ يا رقية...! أو... أناديك بـ»لالة رقية...؟!».

تقهقه عاليًا، تفطن نفسها إلى صخبها، فتقمع ضحكتها العالية بيدها، تنهال عليه ببراءة طفلة صغيرة بوسادتها ويرد عليها بوسادته التي تمزقت، فأخرجت ما في جوفها من قطن فتناثر، تمادت في نزقها، فارتمت فوقه تحاول خنقه مازحةً، فأحس بثقل جسدها فوق صدره، فتظاهر بالاختناق، فأفلتت عنقه وتمدَّدت إلى جانبه وهي تلهث، ثم مالت برأسها نحوه وهمست وعيناها حالمتان منتشيتان ببهجة اللحظة:

— لالة ومولاتي على الجميع.... وأنت سيدي ومولاي....

ينتشي صلاح حيران بغزلها، وتحفز كلماتها غاباته المتوارية وراء قلعة الحياء والتوجس، فيسري خدر قوي في جسده، وقد أشعلت توًّا فتيل الغياب، يجرها بعنف ناعم نحوه، تلين بين يديه وتنثني، تمتد يده المرتجفة نحو السراج، يطفئه عل عجل حتى كاد يسقطه بحركة طائشة.

مد وجزر، هدير وصهيل، جسدان يرشحان عرقًا، يختفي ما حولهما، وتصير الغرفة هي الكون كله بلا تفاصيل، وما عداها الفناء والعدم، يتوقف الزمن حائرًا كالعادة من هذا البهاء الذي يعطل وظيفته، ثم يهدأ الموج العاتي، وتتلاشى الغابات وراء سياج العقل، ولا تترك غير رجع أنفاس كقرع الطبول. يغفو صلاح حيران، بعد حين يعلو شخيره فجأة، فتُسوِّي له رقية الوسادة، فيخفت الشخير دون أن ينقطع، تشعل السراج وهي تبسمل وتتعوذ من الشيطان، في ركن من أركان الغرفة، أسدلت سترًا، بعيد حين لا يسمع غير صوت صب الماء الذي اختلط ونباح الكلاب، من حين لآخر يعلو بصخب النقيق المزعج والصرير الحاد للجنادل، وحفيف الرياح الدافئة، وتلفح غابات النخيل الحالمة بغيمة ممتلئة، تغسل غبارها وشوقها لأثداء السماء.

جاء عبد اللطيف إلى الزاوية، جلس لحصة الذكر المسائية بعد صلاة العشاء، وحين انفض المريدون والزوار، ظل جالسًا مترددًا بحيرة، فطن الشيخ إليه، وناداه:

— من معنا الليلة...؟ هذا سي عبد اللطيف... مرحبًا...! تعال...! اجلس قربي...!

ارتبك عبد اللطيف، وتسمَّرت نظراته الحائرة والقلقة في وجه الشيخ، ثم هربها حرجًا صوب صلاح حيران والعيساوي، اللذين حثَّاه على التحرك بدل الذهول، وهما يهزانِ رأسيهما، فانتصب واقفًا وهو يسوي عباءته، خطا نحو مجلس الشيخ، شعر أن الأرض تدور تحت قدميه، فارتجفت ساقاه وكاد يكبو، داهمه شعور بالغثيان، فقاوم حتى حين، وأخذ مكانًا

على يسار الشيخ، فدعاه مبتسمًا وعيناه تشعان رحمةً وسكينة أن يجلس إلى يمينه قائلًا:

— يا عبد اللطيف...! أنت مكانك يمين المجالس... خرجت من الواحة طلبًا للعلم هشًّا ضعيفًا، وعدت قويًّا... وعلوت علوًّا يجعلك ليس فقط في يمين المجالس بل قلبها، فالعلم يرفع صاحبه، والرفعة رفعتان لو تناغم العلم والتقوى، وأنت الآن مهندس كبير وقريبًا ستناقش الدكتوراه في الهندسة في أكبر جامعة من جامعات فرنسا، أيُّ شرف هذا أكبر للواحة من أن يتعلم أبناؤها ويصيروا أعلامًا مرموقة في الوطن...؟!

ابتسم فرحًا ورضا، وبرقت عيناه وميض حبور غامر، واطمأن قلبه، أطرق رأسه حياء، استجمع أنفاسه، قلَّب نظراته بين العيساوي وصلاح حيران الذي قال له وهو يربت على كتفه ويُحرِّضه على القول بالإشارة والتلميح:

— يا سي عبد اللطيف...! لقد سمعت سيدي الشيخ... وقد أجلسك يمين مجلسه وأثنى عليك حتى غبطتك... لا بد أنك جئت لتحدثه في أمر مهم... فلا تتردد...! أسمعت...؟! لا تتردد...!

رغم ذلك ظل الشاب صامتًا، كأن لسانه عُقد، وما إن هَمَّ بالكلام حتى أحس بمغص في معدته، وانعقد لسانه، فهزَّه العيساوي هزًّا وهو يقول له مغتاظًا:

— تحدَّث يا رجل...!

حينها قاطعهم الشيخ بهدوء قائلًا:

— ربما جاءنا فقط للزيارة والذِّكْر، فلمَ تضغطانِ عليه بهذه الشدة...؟ انهضوا...! لنعد إلى بيوتنا...! ما زال أمامنا الليل وقيامه...

حينها تأهب الشيخ لمغادرة الزاوية، فوقف منصبًّا، سلَّط نظراته معاتبًا على العيساوي وصلاح حيران، ثم خطا نحو العتبة بوقار وأصابعه مشغولة كالقلب بالتسبيح ودحرجة عقيق السبحة البراق، جرَّ صلاح حيران عبد اللطيف من ياقته بعيدًا عن أنظار الشيخ حتى كاد يخنقه وقال بغضب:

— هذه فرصتك. تكلَّم...!

انضم إليه العيساوي، فجبذه بقسوة من أذنه حتى أَنَّ وقال له مستاء وهو يعض شفته العليا غيظًا:

— اسمع...! سيدي الشيخ لا يحب الجبناء، لو كلمته في يوم آخر وعلم أنك جبنت اليوم... وا.. و..! يا للمصيبة...! سيغضب وربما... سيطردك شر طردة... فهو لا يحب أن يصاهر جبانًا رعديدًا...

ما إن سمع عبد اللطيف كلام العيساوي حتى نطَّ كالهرِّ قاطعًا الطريق على الشيخ الذي نظر إليه بذهول وقال بقلق:

— ما بك يا رجل...؟!

متلعثمًا يبحث عن الكلمات، يحيط به العيساوي وصلاح حيران... يشجعانه ويطمئنانه بإشارات وهما يهزانِ رأسيهما، يحثانه على الكلام، يزفر قويًّا ويقول كمن به عي:

— سيدي الشيخ...! سيدي الشيخ...!

— نعم...! ماذا بك...؟ تكلَّم!

— يشرفني.... يشرفني...

— أُف...! والله ما تأففت منذ زمن... يا رجل...! دفعتني إلى ما يغضب الله... يا رجل...!

يحدجه العيساوي بنظرة عتاب قاسية ويقول:

— ها أنت أغضبت سيدي الشيخ...!

يردف عبد اللطيف ويقول دفعة واحدة:

— يشرفني أن تقبل بي زوجًا لابنتك شامة..

ضحك الشيخ حتى بدت نواجذه، فانتاب الشك الجميع، أيضحك ساخرًا من الرجل أم مستكثرًا عليه الأمر محتقرًا...؟! وما كانت هذه خصال الشيخ، فشد الشيخ على يد عبد اللطيف وقال:

— يا رجل...! قد ترددت حتى خفت عليك... ما هذا...؟! أتبني القناطر والجسور والسدود ولا تجرؤ على خطبة فتاة...؟! اسمع...! أنا لا أرى مانعًا...

وأن تكون زوج ابنتي يشرفني... لكن عندي شرطان؛ نسأل الفتاة أولًا فإن قبلت عندي شرط آخر... سيكون صداقها أن تصل الرحم مع أبيك الذي قطعته منذ صِباك، وتبر به، وتأتي به خاطبًا كما هي عاداتنا... وطبعًا بحضور جديك وأمك...

— سيدي...! والله ما قطعتُ رحمًا.... بل هو على ما تعلم من فسوق ومجون واستهتار...

— وليكن...! الإحسان إلى الوالدين... لن أعلمك ما يقول الله تعالى في الأمر... بسم الله الرحمن الرحيم﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾... لن أعيد ما قلتُ، صداقها سيكون صلة الرحم مع والدك والبِرُّ به... أسمِعْتَ...؟

قبل أن ينسحب نحو داره، دنا الشيخ من صلاح حيران وقال: «إن بشرتك زوجتُك بالحمل، لا تحدِّثْها في أمْرٍ آخر، فليس كل حقيقة مفيدة، بعض الحقائق خيرلها أن تظل في الصدور حتى لا تنشر الشروخ، وتتصدع بها البيوت... أسمعتَ؟ لا تنسَ...!».

ذهل صلاح حيران حتى فغرفاه مما سمع، بقدرما فرح من بشارة الشيخ تملكه العجب وناجى نفسه: «عن أي حقيقة تحدث الشيخ التي أسرها ولا تعرفها رقية...؟ آه...! أقراص منع الحمل الذكورية، كيف علم...؟! أيأتيه الخبر من السماء...؟!».

اقترب منه العيساوي وقال له بقلق: «خيرًا... خيرًا يا سي صلاح حيران...! ما بكَ...؟ كأنك صعقك الرعد... وجهك شاحب!».

— خيرًا...! خيرًا...!

انتفض عبد اللطيف متحمسًا وصاح: «والله لن أنام الليلة حتى أرى أبي وأصالحه وأراضيه وأصل رحمه... علَّه يقبل المجيء معي لخطبة شامة...».

لكمه العيساوي على صدره بغيظ وقال: «يا أحمق...! انتظر حتى نعرف رأي الفتاة...!».

— أنا... أنا في الحقيقة... دون لفٍّ ولا دوران...أعرف رأيها...

نظر إليه صلاح حيران نظرةَ عجب وجرَّه من ياقته وقال:

— كيف...؟

— يا سي صلاح حيران...! أتظنني أتقدم للزواج من فتاة دون أن أعرف رأيها...؟! لقد كلَّمْتُها أكثر من مرة قرب عين المخزن... كان عليَّ أن أؤمن طريقي نحو الشيخ قبل القدوم، كان عليَّ أن أعرف رأيها...

حملق العيساوي في وجه عبد اللطيف، وسمر نظراته على وجه صلاح حيران الذي مرَّرَ يده على قفاه وهو ينظر في عيني الشاب بنظرات ثاقبة حادة، كأنه يريد أن يقرأ ما يجول في خاطره:

— يا ذئب...! نار من تحت رماد!! من رآك يظنك خجولًا... وأنت ماكر... وقد جالت في خاطري عدة أسئلة... قلت لنفسي: هذا الشاب المهندس الذي سيصبح دكتورًا في الهندسة، ويتقن أكثر من لغة، عقله مشغول بالقناطر والسدود، بإمكانه أن يقترن بأي فتاة بالرباط، كيف فكَّر في شامة...؟ والحقيقة، خشيت أن يكون الأمر ليس حبًّا، بل تحديًا... وتريد أن تثبت شيئًا لنفسك والناس وأهل الواحة، قلت: لم يرها.... وقد حفظت القرآن الكريم بأحكامه، وما زالت تحضر مجالس العلم، لتتعلم التفسير وتحفظ الحديث، وأنت ما شاء الله... لك منصب سامٍ في وزارة التجهيز، وكُلِّفتَ ببناء سد جديد...

تنفس عبد اللطيف الصعداء، وأطرق الجبين، ثم انحنى وأخذ عودًا وطفق يخطُّ أشكالًا على التراب ثم قال:

— يا سي صلاح حيران...! لا تظن بي الظنون...! والله أحببتُها منذ وقعت عيناي عليها، وإن لم أرَ منها غير العينين وراء النقاب، كان عليَّ أن أعبر لها عن مشاعري ونيتي الصادقة، حتى استوقفتني ذات يوم، وقالت وهي غاضبة: «يا هذا...! نعلم أنك درست في المدن... ربما نسيت أعراف وعادات أهلك، تتعقبني... فقل ما عندك.». بصراحة، وقع لي ما وقع مع سيدي الشيخ؛ تلعثمت وخذلني لساني وتعرَّقت، وكان الفصل شتاء، فضحكت حتى هزَّتني من أعماقي وقالت بثقة: «لا تتكلم...! أحيانًا يصل

المعنى بلا كلام، نتفهمك ونتفهم قصدك، إن كنت تريدني لباسًا لك ولباسًا لي بالمودة والسكينة، ادخل الدار من الباب، واذهب عند صاحب الشأن، فإن طلب رأينا صمتنا». وانصرفت وقد أخذت عقلي وقلبي، وقلَّبْت كلامها تقليبًا مُدَّة، حتى فهمت أنها تقبل بي زوجًا، فلم تسعني الدنيا فرحًا، خشيت فقط أن يردني سيدي الشيخ فأشقى برده كل عمري...

ضرب العيساوي الأرض بقدمه منتشيًا بما سمع من كلام شامة للشاب المتيم، وقال بزهو: «لا فُضَّ فوكِ يا شامة الواحة، علمك نفعك، وأدبك أدَّب هذا المهندس العاشق، تعلم منك يا ابنة سيدي كيف تُبنى جسور الوصل بلا طوب ولا حديد، وكيف تمد قناطر المودة والمحبة بلا أسمنت ولا حجارة... تلك هندسة أخرى يا مهندس...! هندسة الأرواح... وهي ورب الكعبة أصعب تحصيلًا من هندسة الأشياء».

شرد صلاح حيران لحظة حتى رده العيساوي إلى رشده بلِين وهو يربت على رأسه:

— بسم الله الرحمن الرحيم أرقيك... أين شرد ذهنك...؟!

— لا... فقط كنت أفكر في أمر أهمني... قلت في خاطري... إن الزناد الذي ولد مثل هذا الشاب الطيب لا بد أنه تاهَ وضلَّ وضاع فأضاع طيبوبته، ولم تكن الرفقة الحسنة المؤازرة في لحظة حاسمة في حياته، إننا ما نصير عليه، ولسنا كما ولدنا، لا بد أن بذرة الخير ما زالت فيه، وتحتاج لمن يسقيها لتنمو وتصير وارفة، تثمر طيبًا من جديد... لقد علمت من أمري ما علمت... لم أُولد كما كنت عليه، أنا نفسي فقدتُ نفسي... كأنني كنتُ في جب مظلمة، حتى جاء سيدي الشيخ ورمى لي الحبل وأخرجني للنور، الكل يحتاج إلى من يرسل إليه حبلًا يخرجه من التيه، لا أحد يُخلق شريرًا، الأصل هو الخير، نحن من نسقي شجرة الشر في نفوس الناس حتى نطعم فاكهتها المسمومة ما نظنهم خصومًا، وينتهي بنا الأمر أن نموت بسم آخر، سموم الندم والعزلة وكراهية الناس، بل تقتلنا ظلال الماضي خنقًا مليون مرة في أسِرَّتِنا..

يبدو على عبد اللطيف عدم فهم كلام صلاح حيران في تفاصيله، ولكنه يدرك المعنى إجمالًا، فيردف صلاح حيران:

— أردت أن أقول إن أباك يحتاج إلى من يمدُّه بحبل الرحمة ليخرجه من الجب المظلمة، يحتاج من يسمعه ويشعره بالثقة... فهو لم يولد هكذا...

— أدعو الله تعالى أن ينصلح أمره ولا يركبه الاستكبار، فما تحكي عنه أمي من قسوة طبع، وجلافة يصدانِ كل من فكر في وعظه ونصحه، لكني لن أتركه مهما فعل.... سأصاحبه معروفًا... لكني لا أستطيع وحدي... لا بد أن تعضِّداني وأعوِّل على دعمكما... رجاءً لا تتخليا عني... فالأمر صعب... وأنا لم أكلمه منذ طفولتي... والحقيقة أن أمي وجديَّ فعلوا المستحيل معي لأصل رحمه، لكني أبيتُ ورفضتُ، فقد كان في قلبي شيء منه، لم يصرف عليَّ ولا فلسًا، وهو الموسر، ولم يحاول رؤيتي ولم يطلب ذلك... غفر الله له...! وسامحني على حقدي...! فلا يجوز الحقد على الآباء مهما فعلوا...

يخطون جميعًا بصمت وقلق مطرقي الرؤوس نحو دار «الزناد» بعدما ألحَّ عليهما عبد اللطيف الذي أقسم عليهما بأغلظ الأيمان وأوشك أن يبكي، فلم يجدا بُدًّا من مرافقته، وما انفك العيساوي يعبر عن عدم رضاه واستيائه مغمغمًا: «والله لا نعرف عاقبة هذه الزيارة في هذه الليلة المظلمة... كان الله في عوننا...».

— انطفأ المصباح اليدوي، رجَّه العيساوي رجًّا بعصبية وتوتر علّه يضيء من جديد، فشل في الأمر فاغتاظ حتى عضَّ شفته السفلى مُردِّدًا: «حتى المصباح غير متفق على المغامرة، هذه إشارة ربانية... علينا أن نعود ومدبرها حكيم غدًا». حدجه صلاح حيران بنظرة قاسية حتى شعر بلومه الصامت، نزع منه المصباح بشدة، فتح نفق البطاريات، وأعاد تسويتها بعدما أصلح بأصبعه في العتمة السلك الداخلي الذي لم يعد يوصل الطاقة من البطاريات، ثم أغلق النفق، وضغط على الزر فأضاء المصباح، أحس العيساوي بالخجل وقال مرتبكًا: «ظننت البطاريات استنفدت».

فرد عليه بغضب صلاح حيران: «ربما بطارية عقلك هي التي نفدت... يا رجل...! نحن في مهمة إنسانية والشاب في حاجة إلينا، فلا تكن جبانًا وأنت صياد أفاعٍ وثعابين في الصحارى...!». يرد عليه العيساوي بقلق: «سمعت أن عنده بندقية صيد، وقد يظننا لصوصًا فيطلق النار علينا». ممتعضًا يقول صلاح حيران: «لا عليك... سنأخذ حذرنا...».

ما إن صاروا على بُعد أمتار من الدار حتى توقف العيساوي وقال بتوجس: «وكلابه الشرسة، ماذا لو أطلقها علينا...؟!». لم يرُدَّا عليه، وتابعا طريقهما وهما يهزانِ أكتافهما تذمُّرًا واستياءً، فلم يجد بُدًّا من السير وراءهما، وما انفك القلق والتوجس يعبثانِ بعقله.

(14)

من عادة «الزناد» ألا يغلق محلَّ تجارته إلا قريب الفجر، محاطًا بالندماء ورفاق الكأس، يعاقرون الكأس ويستمعون للموسيقى الشعبية المنبعثة من قارئ «الكاسيت»، الذي يفاخر به، كونه يؤدي وظيفتين فهو مذياع جيد، وقارئ شرائط بواجهة تلمع فيها أضواء تتراقص زرقاء، حمراء وخضراء، ويضيء شريط المحطات ضوءًا أخَّاذًا ورديًّا، وأكثر ما كان يقهر الناس إن اقتنوا هذا الجهاز هو ضرورة تغيير البطاريات مما يكلفهم غاليًا، فيضعونه على رفٍّ، ولا يشغلونه إلا لضيف أو مناسبة، أما هو فمُوسر وهو تاجر يبيع عشرات البطاريات كل يوم، وفي مخازنه ما يكفيه كل لياليه الحمراوات.

لكن هذه الليلة، كان الصمت يعُمُّ محيط الدار، والمحل التجاري مغلق، والدار غارقة في الظلام، حين اقتربوا من البوابة، نبحت الكلاب بشراسة، حتى ظنوا أنها ستفك قيودها، واقترح عليهم بقلق وتوجس العيساوي العودة إلى من حيث أتوا مهمهمًا: «لنعد أدراجنا...! حتمًا هو مسافر... ليس من عادته أن يغلق المحل باكرًا...». لكن ما إن هموا بالانصراف، حتى سمعوا أنينًا آتيًا من الدار، تعالى الصوت كأنه لإنسان جريح وعليل، لم يتمالك عبد اللطيف نفسه، وغدا يدق الباب بقوة وهو مضطرب، وحين يئس من فتحه، غدا يذرع المكان جيئة وذهابًا وهو يفرك رأسه بتوتر، فحاول القفز على الجدار، فمنعه صلاح حيران مرددًا: «دعِ الأمر لي...!».

بعد لحظات سمعا صوت خطو صلاح حيران يصدر من وراء السور، فازداد نباح الكلاب شدة وشراسة، حتى صار عويلًا فهريرًا، فتح لهم البوابة الكبيرة المطلة على باحة كبُستانٍ تنوعت فيه الأشجار المثمرة، ومختلف النباتات العطرية الفواحة، مشوا عبر ممر يخترق ملتويًا الباحة، وكان مرصوصًا بالحجارة الصلدة بعناية ومهارة وجمال، يؤدي إلى الباب الحديدي للدار، وكان مغلقًا بإحْكام من الداخل، لكن صلاح حيران بحث بين الأحراج حتى اهتدى إلى سلك وفتح الباب أمام دهشتهما وذهولهما، فهما لا يعرفان لحد الساعة كيف تسلق الجدار العالي وقفز بمهارة تتطلب رشاقة بدنية وقوة بدنية. ارتقوا السلم الإسمنتي، وأصاخ صلاح حيران السمع متعقبًا صوت الأنين حتى وصلوا للمطبخ، حيث وجدوا الزناد مستلقيًا على الأرض، ينزف من جرح غائر في جبهته، ارتمى في حضنه عبد اللطيف، وغدا يضمه ويُقبِّله بحرارة وحزن وهو ينتحب: «والدي...! والدي...! ماذا بك...؟! من فعل هذا بك...؟». وجد الزناد صعوبة كبيرة في فتح عينيه، حمله ابنه كالطفل، وكان قد بلل ملابسه بولًا، ووضعه على سريريه بغرفة النوم، وساعده العيساوي في تغيير ملابسه وتنظيفه وتضميد جرحه، تفقدا صلاح حيران فلم يجداه.

عاد بعد لحظة صلاح حيران، وفتَّش الغرفة، وقال بيقين: «يبدو أنها لم تكن عملية سرقة، والنوافذ لم تكسر، ولا آثار لأحذية غير أخذيتنا إلا إذا كانت الرياح دارت الأثر، وهو على هذه الحال منذ أمس، فالكلاب جائعة وعطشى، لا أثر لأقدام في محيط الكلاب، دعوني أرَ جسده». لم يجد أثر أي جراح أخرى، لكنه لاحظ انتفاخًا وزرقة جهة الكبد، وانتشار طفح جلدي على جسده، فقال: «أظن أن أباك يا عبد اللطيف، أُصيب بغيبوبة وهو يعد طعامه وسقط، وجرحه ناجم عن ارتطام جبهته بلوحة المطبخ الرخامية...». لم يصبر كثيرًا عبد اللطيف وقال: «سآخذه توًّا إلى المستشفى... حالًا....». نظر إليه بحسرة وأسى وأردف: «يا عبد اللطيف، أبوك عنده استسقاء كبدي، وهي مرحلة متأخرة من تشمع الكبد جراء

إفراطه في احتساء الكحول، وعنده داء السكري غير المراقب، وهو الذي سبب له الإغماء...».

فتح الزناد عينيه، وتمعن طويلًا في الوجوه حتى إذا ما رأى ابنه عبد اللطيف، حاول أن ينهض وهو يمدُّ يديه لضمه، فارتمى عليه عبد اللطيف وضمه بقوة وهو يبكي بكاء حارًّا حتى أبكى العيساوي، وصاح الابن: «لا عليك يا والدي...! سأقلك حالًا إلى المستشفى...». لوَّح الزناد بيده متعبًا والبصر زائغ وقال بصوت متعب باكيًا: «لا... لا يا ولدي... فات الأوان... عندي سرطان الكبد، فقط ناولني علبة المورفين لتخفيف الألم... سامحني يا بني... سامحني... وقل لأمك أن تسامحني... وادعُ لي بالمغفرة..».

حين فطن الزناد إلى وجود العيساوي وصلاح حيران، أجهش بالبكاء، وتوسل إليهما أن يُبلِّغا الشيخ ندمه وأسفه، ويطلبا صفْحَه وعفْوَه، وطلب ماءً، فشرب حتى شرق وأُغشِي عليه. أطرق صلاح حيران الجبين مليًّا، وقد أدرك أن الرجل يحتضر، وأن الشمس لن تشرق عليه، فاستأذن وانطلق خارجًا كالسهم، وهما لا يعرفانِ على ماذا ينوي ولا وجهته.

لم يتأخر طويلًا حتى عاد ومعه الشيخ مهرولين، سلَّمَ الشيخ سريعًا، وواسى عبد اللطيف بكلمات طيبة تبث بها قلبه، ثم جلس على طرف السرير، وتفرَّس في وجه «الزناد» فاغرورقت عيناه دمعًا، وخيَّم حزن على تقاسيم وجهه، وضع يده على رأسه ودعا له، ثم طفق يقرأ في سِرِّه، فصحا العليل وحملق في وجه الشيخ غير مصدق أهو في حلم أم في يقظة، أراد النهوض لتقبيل يده وضمه، فأعفاه الشيخ بلين ولطف وقال له مبتسمًا: «كيف تشعر الآن يا أخي...؟ كنا ننتظرك تأتينا خاطبًا ابنتا شامة لابنك عبد اللطيف، وقد طلبنا صداقها أن يصلك، لكن يبدو أن حكمة الله ومشيئته أن نأتيك نحن... ونخطب ابنك لابنتنا وقد قبضنا صداقها مسبقًا...!».

أشاح الزناد بوجهه خجلًا وانتحب كطفل صغير وقال بأسى: «آه...! كم رددتم أذيتي خيرًا، وصبرتم عليَّ... وها أنتم تُزوِّجون ابني من لالة شامة ابنة سيدي الشيخ المرابطي، بنت الشريفة الإدريسية... كأنني في حلم...

أيعقل هذا أن أصير صهركم...؟». ابتسم الشيخ وقال: «سي عبد اللطيف تشرف بمصاهرته أي أسرة، لعلمه وورعه وأدبه». يشير الزناد بيده إليهم أن يخرجوا ويتركوه على انفراد مع الشيخ، بنظرةٍ من الشيخ يستجيبون ويخرجون للباحة طلبًا للهواء وقد اعتصرت القلوب.

مال «الزناد» برأسه نحو الشيخ وقال بأنفاس متقطعة: «يا سيدي... يا مولاي... لقد فتحت عيني في كوخ من قش وطين وسعف النخيل، كان والدي من «الحراطين»؛ أي يحرث أراضي المرابطين والشرفاء، وله الخُمس مما حصد، ويُلقِّح النخيل، ويسقي البساتين والمروج، حتى سقط يومًا من أعلى نخلة، وحين رحل عِشنا شظف العيش، ولم تجد أمي غير الخدمة في بيوت الشرفاء، وكنت أُعَيَّر بلوني، وكانت الأمهات يُبعدن بناتهن خوفًا مني، ويعاتبن أبناءهم إن لعبوا معي، وكان أكثر يوم حزنًا في حياتي يوم رحل اليهود وتركوا قصرهم، كنت صغيرًا، لم أعرف لِمَ رحلوا، فقط كنت أبكي صديقي يعقوب الذي لوَّحَ لي من الحافلة حتى اختفى، ثم عُدت لوحدتي... ماتت أمي ولم يشتدَّ عودي بعد، فعدت لصنعة أبي... لقَّاح نخيل، وأحرث أراضي غيري، ثم جاء النصراني «موغا»، يريد عمالًا لمناجم فرنسا، وكنت كالبغل قويًّا، فرحلتُ وهناك بفرنسا.... ظننت أنها بلد غير بلدي لكني ظللت أُعيَّر بلوني من الفرنسيين أنفسهم ومن أبناء وطني... والمُخزي أن يصير لقب عربي شتيمة، وعنصرية بعضهم لا تفرق بين «شلح» وعروبي... كلهم عندها «العربي الوسخ....» وحين عدت تخلصت من نظرات الفرنسيين واحتقارهم، لكني كرهتكم جميعًا... فكل مكان في الواحة يذكرني بجرح أو شتيمة أو خِزي، كنا بينكم منذ قرون ولسنا منكم... أُضْرب صغيرًا من لدن أطفالكم، وأنا المخطئ دومًا، أُعاقَب مرتين، وأقْسَمت أن أكون أغناكم وأُشَوِّه سُمعتكم، وأصل إلى ما لم تصلوا إليه، وأجعلكم تمُدُّون يدكم إليَّ، فأفسدت الشباب بالخمر والمال، واستعبدت الأشراف المفلسين... لم يكونوا يفوقونا ذكاءً... بل فيهم الأبله والأخرق الذليل.... فلِمَ قدموهم كل هذا الزمن علينا وحسبونا أحرارًا من الدرجة الثانية؟! وكنت أنوي أن أنشر

الفاحشة، لكني... كنت ألمس يومًا عن يوم هذا التغير في الواحة... من كان يظن أن رجلًا مثلك من المرابطين سيتزوج ابنة الشريف الإدريسي وشيخ الزاوية؟! ومن كان يظن حتى في الخيال أن ابني الحرطاني سيتزوج أجمل فتاة الواحة وابنة الشيخ...؟! فعلًا.... وقع تغيير كثير وأنا كنت منشغلًا عنه بالحقد والفتن... فهلَّا صفحتم عني ودعوتم لي بالرحمة والمغفرة....».

ابتسم الشيخ وبرق وميض جميل في عينيه، وقال بحنوٍّ وهو يشُدُّ على يده: أما نحن فقد سامحناك قبل أن نعرف، والمؤمن لا يحقد، ولا ينام على غِلٍّ في قلبه لأخيه، فقط اطلب المغفرة من الله تعالى ولا تقنط من رحمته التي وسعت كل شيء يا صهري وجدَّ أسباطي... ما عانيتَهُ صار من الماضي... ولم يكن كل الناس في الواحة كما قلتَ... كان الأخيار والأشرار... والخير والشر لا علاقة لهما بنسب ولا لون... الحقد صناعة بشرية... والله يميزنا بالتقوى لا باللون ولا اللسان ولا الأصل...».

قبل الفجر بقليل أسلم «الزناد» الروح، وغسَّله الشيخ بنفسه، وبكاه بحرارة، وصلوا عليه بعد صلاة الفجر، بعدما أفشى النعي العيساوي، فصلى عددٌ كبير عليه وهم لا يدرون ماذا وقع، وحين فتَّش عبد اللطيف في أوراق أبيه وجد حوالات بريدية باسم مُحسن كانت ترسل كصدقة لأهل الزاوية منذ سنين، ووجد صورًا له وهو صغير ثم صبي يعدو بين النخيل، وعلم أن أباه كان يتابعه من بعيد، ويلتقط له صورًا، وكانت أمه تتوصل من حين لآخر بملابس وقوت وزاد، يقال لها: من رجل مُحْسِن امتنع عن ذكر اسمه لتظل الصدقة لله لا رياءً، ووجد وصية يوصي فيها حسب الشرع بثلث ماله وعقاره لزوجته، والباقي طبقًا للشرع لولده الوحيد عبد اللطيف.

موت «الزناد» فرَّق الندماء وأداروا ظهورهم لبعضهم البعض، فأكثرهم مملق عاطل في عوز، أو مفلس بارت تجارته، أو تعطلت زراعته، فباع النخيل والأرض من أجل متعه حتى استنفد ما يملك، فاستعبده «الزناد» وقد أدمن مجلسه وخمره وحشيشه المومسات القادمات في جنح

الظلام، وقد يجد متعة في تحويل رجال تابعين له ماليًّا ومتعًا من الشرفاء والمرابطين، ويمعن في إذلالهم والسخرية منهم في مجالسه.

برحيل «الزناد» انفضَّتْ مجالس السهر والصخب، وجفَّت منابع تمويل المجالس الفاحشة الماجنة، فبماله كانوا يسكرون ويتقلبون في المُتع، وبداره كانوا يلوذون بعيدًا عن الأعين، وبعلاقاته التي نسجها مع السلطة ورجالها وأعوانها كانوا يحتمون، ومن كانوا يلتمون حول قدح خمر وليلة غناء، صاروا يتامى بلا معيل لحياتهم الرتيبة، بلا عمل ولا صنعة، فضاقت الواحة ببعضهم ممن لم يطق شظف العيش والعمل بعرق جبينه، فهاجر إلى مدن مراكش وأكادير والدار البيضاء بسبب الجفاف والجدب ساعيًا وراء حلم كالسراب، وقلة لزموا الزاوية يخدمون المريدين والزوار، ومنهم من ما زال على ديْدَنِه من مجون وتهتك، لكن بعيدًا عن الأعين دون مجاهرة مكشوفة.

(15)

تعالى الغبار عاليًا كزوبعة محدودة، وضجَّ مُنبه سيارة رباعية الدفع بقوة قادمة بجنون، فركض الأطفال في صخب وراءها، حتى غشاهم النقع، ولجت بالسرعة الطائشة نفسها من بوابة الواحة الشرقية، كان هذا بعد أسبوع من وفاة «الزناد»، ضغط السائق بقوة على الفرامل فانزلقت بعض الأمتار، أطلق قهقهة عالية وهو يهتز على مقعده، ويضرب بيده بقوة المقود بسخرية وهو يلتفت وراءه، بينما بدا راكبان في المقاعد الخلفية غاضبين، ينفضانِ عنهما الغبار بقبعتيهما باستياء وغضب، فترجل شاب في الثلاثين من عمره، يكاد الدم ينفجر من خديه، يضع نظارات شمسية، ويرتدي قميصًا مكشوف الذراعين، وقد فك أزراره العليا فظهر صدره العريض الأشعر تتأرجح عليه سلسلة ذهبية كبيرة الحلقات، وسروالًا قصيرًا ينحسر عند فخديه، كان قصيرًا وسمينًا، أزهر البشرة، وسيمًا كثيفَ الشعر الناعم الذي أسدله على كتفيه، خطا بخيلاء تكاد قدماه لا تلمس الأرض، ثم كنس الواحة بنظرات سريعة كأنه يستجلي مظاهرها وبنيانها ودروبها وغابات النخيل، كان من حين لآخر يهش الذباب الذي يطن أمام عينيه، يكاد يحط على أشفاره متذمرًا، ويجفف العرق الغزير الذي رشح به صدره وعنقه بمنديل تشبع عرقًا وغبارًا، ينزع نظارتيه بطريقة استعراضية، وحين يقهر عينيه ضوء الشمس يعيدهما متأففًا، يبدو أن يد الجفاف القاسية، قستْ على الطبيعة النفوس، امرأة كانت تشرئب بعنقها من نافذة السيارة، بدتْ قلقة وحزينة وهي ترى الموت يزحف نحو الواحة، وأيادٍ كانت أمس تسقي الشجر والنخيل، صارت

تقطع الأشجار الميتة، والنخيل الذي صمد للعطش لكن أصابه داء فطري يسمونه في الواحة «بيوض»، فاغتالها وهي باسقة مرفوعة الرأس، النخلة تنحني للريح ولا تموت، تعطش وتروي نفسها من صبرها وصمودها، تواجه الجفاف والقحط، وتظل معطاء كريمة، لكنها ابتليت بهذا المرض الفطري الذي نخرها وأكلها من الداخل، فكان موتها هادئًا، فيه كبرياء وسموق، النخلة التي لا تموت إلا بجز رأسها، خذلتها الطبيعة بوباء لم تستعدَّ له، لا هي ولا أهل الواحة، أشارت المرأة بيدها نحو غابات النخيل التي بدت كخراب عقب تفجير من الجو، وكانت تكلم السائق الذي لا يرى منه غير العينين من لثام غطى رأسه ووجهه، ويبدو أنها تسأله عن هذا الموت المتجلي في الواحة، وهو يشرح لها بأسى وحسرة.

ينابيع الماء تكاد لا تكفي حتى للشرب، والمجاري إما اغبرَّت أو اختلط الماء القليل بالطين، وغدتْ ممرات للدواب والراجلين، هذا المشهد الأليم لم يُحرِّك في الشاب ساكنًا، عكس مرافقته التي لم تغادر السيارة، وظلت تحاور السائق بلسان إنجليزي ولَكْنَةٍ أمريكية، عاد الشاب إلى السيارة «الجيب»، وانحنى مستندًا إلى إطار النافذة، وطفق يُحدِّث المرأة بالإنجليزية متمردة وهو مُتذمِّر من الغبار والصهد والذباب والناموس، بينما هي هادئة لا يؤلمها غير هذا الموت الزاحف في صمت.

يحث الشاب مرافِقته على النزول وهو يفتح لها باب السيارة ويشُدُّ يدها في مشهد شبه فروسي، استفز أنوثتها، فترجلت بغنج متهالكة الخطو، بدتْ من أقرانه، فائضة السمنة حتى اختلطت لديها معالم الأنوثة، يكاد عنقها لا يميز من كثرة لحمه، وذات كرش ظاهرة، ترتدي قميصًا رياضيًّا وسروالًا قصيرًا، وتنتعل حذاءً رياضيًّا، أشعلت سيجارة وطفقت تمتع النظر في جمال الواحة وقد أحاط بها الأطفال وهم يُهلِّلون بفرح صاخب، وتثير أقدامهم النقع كأنهم في عُرس غير عابئين بالصهد والحرِّ الخانقين: «نصارى...! نصارى...! سياح...! سياح... مسيو...! مدام...! شوكولاتة...! شوكولاتة...!». فانتفض الشاب غاضبًا، ونَهَرَ الأطفال بقسوة وفظاظة،

مردِّدًا: «تفرقوا يا أبناء الكلب...! تظنونني سائحًا...! تطلبون الصدقة من الغرباء يا أشقياء...! مرَّغْتم وجهنا في التراب...!». تحدجه الشابة الأجنبية بنظرة حادة معاتبة إياه وقد ظهر عليه الغضب والامتعاض مما فعل، تقترب من الأطفال الذين تحلَّقوا حولها، فتوزع عليهم الشكولاتة، وتخرج من إحدى حقائبها لعبًا مختلفة، فيصخب عليها الصغار، كل يُريد لعبته، فتضيع وسطهم وهي تحضهم على الصمت والنظام، يتفرقون بعدها مسرورين وهم يركضون في كل اتجاه، يُلوِّحون للشابة بأياديهم امتنانًا وشكرًا، ويدلقون ألسنتهم نِكايةً في الشاب الذي اغتاظ كثيرًا فأشعل سيجارة وجعل يلتهمها التهامًا.

احْتَمَيَا بظل نخلة من صهد الظهيرة الذي لم تنفع معه قُبعة المرأة، ولا قُبَّعته هو الرياضية، سقته امرأة ماءً من خابية على الطريق بين ظلال النخيل، فنهرها بقسوة وهو يُردِّد: «يا حمقاء ...! أتريدين قتلنا...؟ من أدراني أنه ماء صالح للشرب وهو في هذه الخابية منذ الصبح على الأقل... اغرُبي عن وجهي...». أحسَّت المرأة بالعار، فانزوت تحت سقيفة على الطريق تبكي، خرج الشيخ من الزاوية وقد وصله صخب الأطفال وبكاء المرأة، فاقترب منها بحنُوٍّ وقال: «ما يُبكيكِ يا امرأة...؟». أشارت بيدها إلى جهة السيارة الجيب وقالت وهي تنتحب: «عطش الرجال والمرأة... سقيتهما ماء من الخابية... فشتمني ونهرني، وقال: ماؤنا غير صالح للشرب، وقد ملأت الخابية توًّا، صدقة جارية تطفئ عطش الصغار والعابرين والرحل...». بدا الغضب على مُحيَّا الشيخ إبراهيم أبي شامة، وقصد الوافدين، وقد تعقبه صلاح حيران، وكان قد سمع حديثه مع المرأة، وحين غدا على خطوات منه تعرف إليه وامتعض من لباسه ولباس مرافقته غير المحتشمين لكنه قمع غيظه، وبش في وجهه: «السلام عليكم يا سي عتيق...! حمدًا لله على السلامة... ادخلا لتستريحا...». بنظرة متعالية ردَّ عليه عتيق: «لستَ أنتَ من سيدلني على دار أبي رحمه الله، ربما صدَّقْتَ فعلًا أنك صرتَ شيخ الزاوية...!».

ابتسم الشيخ ولم يُبدِ أدنى ردة فعل غاضبة، حلمه غالب على طيش عتيق، بل خطا نحو الفتاة، ورحَّب بها بلغة إنجليزية راقية، وبدا عليها الذهول والدهشة، وهي تسمع من هذا الرجل الذي يضع برنسًا بُنِّيًّا، ويطلق لحية خالطها بياض مهذبة ومشذبة بعناية، ويضع لثامًا أزرق اللون كلثام الطوارق، وينتعل خفين من جلد، أجسر العينين الكحيلتين، قد اختلط بياضهما بحمرة، وآثار السواك بادية على شفتيه، ومال نحو عتيق، وسحبه نحوه بقوة وضمه مُجدِّدًا العزاء له في رحيل الشيخ سيدي محمد الإدريسي؛ لأن عتيق، وقد فطن أن مرافقته مستاءة من سلوكه، فسحبها برفق وقال وهو مطرق الجبين: «سي إبراهيم... هذه زوجتي الأمريكية جوزفين..». ثم مال بنظره صوب زوجته وقدَّم الشيخ: «هذا زوج أختي... إبراهيم...». فقاطعه صوت قوي ينضح شدة وحِدَّة: «يا عتيق...! قم بتقديم سيدك وفق الأعراف...! فهو سيدي الشيخ إبراهيم أبو شامة المرابطي أعزَّهُ الله، أو أنه علينا أن نذكرك يا ابن سيدنا محمد الإدريسي تغمده الله برحمته بأصول مخاطبة الشيوخ؟!». أشار الشيخ إلى صلاح حيران بإشارة من يده قائلًا: «ما العمل يا سيد صلاح حيران، ربما أمريكا تُغَيِّر طباع أبنائنا... وعليهم أن يعودوا من حينٍ لآخر كي لا ينسوا أصولهم...».

ما هي إلا لحظات، حتى ظهرت أم سعد وهي مهرولة بجنون نحو عتيق وهي تبكي: «سي عتيق عاد... أين أنت يا بني...؟ أين أنت يا بني...؟». لم تتعرف إليه في البداية من شكله الغريب، وقد ألفته بعباءة الواحة ولثامها، وحين تمعنت فيه طويلًا، رقَّ قلبه ولانَ، كان قلبه رغمًا عنه دقَّ بقوة لرؤيتها، وعقله أتى بكل الصورة القديمة، فهي المرأة التي شبَّ في حضنها بعد موت أمه، وهي المرأة التي حمته ودثرته وأدفأته شتاءً، وروَّحت عنه صيفًا، وسقته ماءً قبل أن تسقي نفسها، وأطعمته بيدها قبل أن تطعم هي، وسهرت الليالي تُمرِّضه كلما اعتلَّ، وهي التي كانت لا تنام حتى يضجع وتُوقن أنه في سريره مرتاح.

ارتمى في حضنها وغلبته الدموع، فرقَّ قلب جوزفين فاغرورقت عيناها، ثم تراعت أم سعد خطوة وقالت بعجب: «يا بُنيَّ...! ماذا فعل بك الأغراب...؟! تعالَ لتُغيِّر ملابسك». ابتسم الشيخ من الموقف، وغدا يمشي جنبًا إلى جنب رفقة جوزفين ويشرح لها، ما وقع ومن المرأة العجوز التي أبكت زوجها، بينما صلاح حيران يتابع المشهد من بعيد، حتى اختفى الجميع داخل الدار.

عند العصر امتلأت الدار بالمعزين والمعزيات، وكسر هدوءها المعتاد صخب الصغار وحديث النساء كأنهم في شِجار، وفيهم من جاء ليجدد العزاء لابن الشيخ الراحل، وفيهم من وجدها حُجَّة لرؤية العجب الذي تحدث عنه أهل الواحة، فقائل ردَّد إن سي عتيق غيَّر دينَه وصار نصرانيًّا ولبس لباسهم، وآخر أفشى أن سي عتيق يأكل لحم الخنزير حتى أفسد دمه وبدنه وصار كالفيل، وبعض النساء ردَّدن أن الشاب الوسيم تزوج غريبة سمينة سافرة، مترجلة تلبس لباسهم، وقد عملت له عملًا أعماه فلم يرَ أنه تزوج غولة، واستغرب الشباب كيف لعتيق ذي النخوة والشهامة والغيرة أن يقبل بأن تكشف زوجته شعرها وساقيها، وكادوا يُجْمعون أنه جُنَّ كما النساء اللواتي أوعزن هذا التغير للسحر.

تفرق الناس في المقبرة بعدما رافقوا عتيقًا لزيارة قبر أبيه، فجدَّد الشيخ إبراهيم أبو شامة العهد مع شيخه، وبكى حتى انتحب، وخارت قواه فأسنده صلاح حيران حتى أوصله إلى الزاوية، أُقيمت جلسة للذِّكْر، لم يحضرها عتيق الذي غيَّر ملابسه بإلحاح من أم سعد، ورأت جوزفين ما رأت فطلبت أن تُغيِّر ملابسها، فألبسوها جلبابًا فضفاضًا، وشدوا شعر رأسها بمنديل، لكنها أصرَّت على وضع اللثام، ولبس الخفين، ووضع حلي أهل الواحة من قلادة كفٍّ من فضة، وعقيق من لبان، وتزينت بالكحل والسواك، وخضبت يديها بالحناء، وتعطرت بماء الورد والخزامى.

لم يفطن أحد إلى عتيق وجوزفين وهما يتجولان في الواحة قبل الغروب بين غابات النخيل، و أشجار البساتين الفواحة، ما صمد منها لاحتباس

المطر، وكان عليه أن يقدم لها هدية العمر، فأخذها إلى الصحراء دون أن يبتعدا كثيرًا، وجعلها ترى الغروب كما لو لم تره أبدًا في حياتها، ها هي الشمس تنزف دمها القرنفلي، تقدم نفسها قربانًا لدورة الحياة دون ضجر، وهي تحتضر، ترسل أصابعها الذهبية للرمال فتداعبها مُودِّعة تعصر آخر دفق من ضوئها، فيختلط الشحوب والنزيف، وتنهض الصحراء بزيها الذهبي، وحدها الصحراء تقيم حدادًا لرحيل الشمس بحلة من حرير ذهبي، وحين يعلن الليل زمنه ظلالًا وعتمة، تسخر منه الشمس وهي تخرج دفء الشمس الذي خزنته للذكرى... ليس هناك أبهى من الدفء ذكرى، ولا أحزن من الظلال ليلًا...

وهما يخطوانِ عائدينِ، كانت جوزفين ما زالت غارقةً في سحر المشهد، كأنها ثملت من كأس الغروب، وتخدرت بجرعة قوية من خليط الشفق والألق، كأنها اكتشفت كينونتها المفقودة، وشعرت به بهذا الامتلاء؛ يغسل عقلها ووجدانها من أوهامها ويعيدها لأمها الطبيعة، ويصالح الروح والفطرة... قالت له هامسة: «يا عتيق... لم أعد كما كنت... شيء ما تسلل إلى روحي... أشعر بالسعادة... أشعر بالأمن...».

تبدلت أحوال عتيق مع الوقت، فشرب ماء الواحة، وأكل تمرها وبلحها، واعتاد على الذباب والناموس، فلم يعد يرهقه الحَرُّ، ولا الرياح الساخنة التي تلفح وجهه، كأن للجسد ذاكرة تحن للأصل والنبع، فطفق البدن يتخلص من السموم والسمنة، وظهرت معالم الصحة الجيدة عليه وجوزفين، التي طعمت طعامهم من خبز شعير وزيت زيتون، ولبن نوق وخض، ولحم الأنعام طريًّا أو قديدًا مملحًا يطبخ بلا توابل، ورغم الجفاف، لم تخلُ الموائد من فاكهة إما طرية، أو خوخًا، أو تينًا، أو برقوقًا مجففين.

استأنس عتيق بزي الواحة من جديد، ونسي الناس دخلته الأولى الغريبة، وأوشكوا أن ينسوا أن زوجته أمريكية، فقد لبست لباسهم ولم تعف طعامهم ولا احتضانهم ولا فراشهم، فألفت الأكل أرضًا وافتراش

الحصير، والشرب من القدور الخزفية، ومشاركة النساء أشغالهم من نسيج وصناعة للقفف والحبال والحصائر من سعف النخيل وخيوطه، حتى عجب من الأمر عتيق نفسه، وقد كانت معتادة على التلفاز، تظل ملتصقة به حتى تنام، واستغرب أكثر أنها لم تطلب لا خمرة ولا نبيذًا وقد كان في نيته المبيت ليلة وتصفية التركة والعودة للفندق، لكن ها هو في أسبوعه الثاني، وكلما فاتح جوزفين في السفر، تلكأت وطلبت التأجيل.

عاد لمجالس الذِّكر ولكنه لم يتخلص من التدخين، ولم يلمه أحدٌ ولا عاتبه، وعاد يصلي وراء العيساوي، وحين رأى من صهره الشيخ ما رأى قبَّل يده وكتفه واعتذر قائلًا: «لم يُوصِ لكَ والدي الشيخ رحمه الله بالمشيخة عبثًا، فأنتَ أهلٌ لها، وها هو ينقلها بسلم إلى مرابطي، لو فعلها أجدادي لاندلعت الحرب، وقتل الناس بعضهم بعضًا، فعلًا الواحة تتغير، وما أثارني أنها لم تكتفِ بالعبادة والذِّكر وجلسات الذكر، بل أصبحت دارًا لكل محتاج وفقير، وها هي قِبلة الناس في زمن القحط، وهذا صهري صلاح حيران يشرف على مخازنها وغلالها ومالها، بدقة وأمانة، وقد جالسني وفصَّل لي تركة أبي، والغريب أنه حسب في السجلات كل حقوقي من تمر وبروفاكهة وغيرها، وسعَّرها بثمنها، وعرض عليَّ المال، وطلب مني أن نكون بمجلسك ونحضر الشهود، ليعطيني مالي وتقتطع حقوقي من التركة، عدا الدار وما حولها من إسطبلات وزرائب وبساتين فهي وقْف على الزاوية والمريدين، يتكفل الشيخ بتدبيرها.... وأنا على عهد أمي، تصرفوا في حقي وقفًا على الزاوية والفقراء...».

بكت كل الواحة وهي تودع جوزفين التي أحبوها حتى صارت منهم، انطلقت السيارة كأنها سيارة موتى، لم تتوقف عن البكاء وهي تُلوِّح للنساء والأطفال، كان الجو ما زال حارًّا، والواحة ظهيرة تئزُّ تحت وطأة شمس غشت الحارقة، لم تعر انتباهًا للعرق ولا للذباب، ونسيت تلك الحركة التي كانت معتادة عليها، وهي رش نفسها كل ساعة بمعطر، ووضع مزيل العرق،

أما عتيق فقد داهمه الحزن حتى أسكته، وتمنى لو كانت له الجرأة أن يبقى في الواحة، لكن ما العمل وجوزفين حُبلى، وله بيت وعمل قار في ميامي، فكر لحظة أن يوقف السيارة ويُخيِّرها بين حياة الواحة أو أمريكا، لكنه تذكر أيامه الأولى بأرض الأحلام، فلولا هذه النادلة ذات الأصول الجنوبية، لأمضى شهورًا يبيت في الشارع ويطعم من المطارح ومن المؤسسات الاجتماعية، وفي أحسن تقدير ينام في المباهج العمومية مع المدمنين والمتشردين واللصوص والحمقى، هي من آواه واحتضنه بزواجهما، حصل على البطاقة الخضراء، وقدَّم طلبًا للجنسية، كان عاطلًا فكانت هي المعيل، تقضي ساعات طويلة في العمل، حتى وجد عملًا ثم آخر...

ساد صمت رهيب في السيارة الجيب وهي تلتهم الطريق الرملية التهامًا، وخيم حزن ثقيل تدفق من العيون دمعًا حارًّا، وتسرب الشجن كالعدوى من الشهيق والزفرات، يكسر فجأة الأجواء الحزينة صخب مذياع شغله السائق، فعلت موسيقى غربية ضاجة، اختلطت مع صوت هبوب الريح التي بدأت تشتد في شكل عواصف رملية بعيدة لكن قصيرة النفس والعلو، نظرت جوزفين إليه حين اختفت الواحة ولم تعُد ترى غير سحابة الغبار بألم، ولم تتمالك نفسها منتحبة، فارتمت في أحضانه تعصرها اعتصار لواعج الفراق.

(16)

استأذن صلاح حيران شيخه في سفر إلى الدار البيضاء مصحوبًا بزوجته رقية، لتسوية بعض الأمور، وفسخ عقد كراء الشقة، ونقل متاعه، وتمكين رقية من تقديم استقالتها لتتحرر من كل ارتباطات قانونية وإدارية، مما يسمح لها بمباشرة العمل في تدبير وتسيير مشروع المدرسة بالواحة، خصوصًا وأن الشيخ يريد مدرسة تجمع بين الأصالة والمعاصرة؛ يُحفظ فيها القرآن الكريم وعلومه، ويُدرس الحديث والسيرة النبوية والتاريخ، واللغات والعلوم الحقة.

أذن الشيخ له ورافقه حتى محطة النقل الطرقي، وقبل أن تنطلق الحافلة صوب الدار البيضاء، انفرد به بعيدًا وقال له: «يا سيد صلاح حيران...! إياك أن تظن أنني أتلقى الغيب من السماء أو تأتيني به الملائكة، أو تكشف لي الحجب، فمن ادعى علم غيب فهو كاذب، إلا من حدث وقع، ولم يعد غيبًا، ويستعين السحرة لعنهم الله بالشياطين التي تتفرق لجمع الأخبار ما وقع ولم يعد غيبًا، ومدهم بها مقابل خدمات فيها كفر وشرك، وأنا لست ساحرًا معاذ الله حتى أبادل الشياطين آخرتي بدنياي، وبضاعة كفر وشرك بخدمات تنشر الشرك، واعلم أن إبليس يستعين بجهل الناس وتقديسهم لشيوخهم الذين إن لم يحصنوا مسلكهم بعلم العقيدة، ضلوا وغلبتهم شهوة الزعامة على شهوة العبادة، وهكذا أيضًا يخرج للدنيا الطغاة، وقد علمت مني أني قلت: كنت أرفض زواج شامة، متعذرًا بأن زواجها لم يحن موعده بعد، وحين يحين أوانه سيهدي الله ضالًّا أو أكثر، وتُوصَل به أرحام، وكنت أقصد سي عبد اللطيف، وأنتظر

أن يأتينا خاطبًا، فلا تنسَ أن في الواحة لا شيئًا يُكتم، وهي كدار من زجاج شفاف، وقد رأوا الشاب متعلقًا بشامة، يتعقبها عند العين، وسمع من أثق فيه ما دار بينه وبينها من حديث، وأُبلغت لما وقع، وتكتمت لأني أحسنت الظن بالشاب، فعلمت أنها موافقة حين قالت: «سنصمت»، ولم يطل الانتظار، فحدست وتوقعت، ولم يخب ظني في حسن نيته وبياض طويته ونبل مطلبه ومسعاه، فاشترطت مهرها أن يصل رحم والده ويُحسن إليه برًّا وطاعة في غير حرام ولا منهي عنه، وكنت أعلم أن بذرة الخير موجودة في كل نفس مهما ضلت الطريق، وتاهت تعبث بها ريح الأهواء والشهوات والضغائن، وبذرة الخير هذه، أردت سقيها بماء الاعتراف وبلسم المحبة والمودة، والرفع من شأن الزناد، ومنحه شعور الانتماء للواحة الذي فقده بقوة العزلة والتمييز، فمن يفقد شعور الانتماء، تطرف واختار الانتماء المتاح، وليس أيسر من الانتماء إلى الشر المدلس بشعارات العدل والحق، وإني أعلم أنه جريح في كبريائه وقد عانى القهر والتمييز حتى نَمَتْ في صدره شجرة الكراهية والحقد، فأردت قطعها بفأس لا تنكسر، بالأبوة الكامنة في صدره، وقطع الماء عن طحالب كرهه وزرع الأمان في نفسه، وقد صار صهرًا لنا، بزواج لن يتم إلا بمباركته، ومباركته مجدٌ له، ودواء يصيب داء الضغينة فيبرأ توًّا، ولأن الرجل جريح في كبريائه استرددنا له ما توهم أنه أخذ منه، عزة نفسه وحريته، فعوضنا قهر الماضي بسمو الحاضر، وذوبنا الضغينة بالفضيلة، فكان ما كان، زواج شامة وصل الأرحام، وبدَّد الأحقاد، وهدى «الزناد» وطائفة من ندمائه، وحرر «الحراطين» من عقد الماضي، فقد كانوا أحرارًا دائمًا، لكنهم عُوملوا معاملة العبيد، يُعيَّرون بلونهم، ولا يتزوجون منهم ولا بهم، فماذا كنتَ تنتظر من تاريخ مثل هذا أن ينتج غير الحقد...؟! غير أن شبابهم اختار العلم بدل الضغينة، فارتقى بهم العلم رقيًّا وسموًّا، فصاروا مفخرة لكل حي وقبيلة وعشيرة، وصاروا بحق وحقيقة سادة، ومن يسود بعلمه خير ممن يسود وهمًا بنسبه... أرأيت...؟ لا خبر يأتيني من هتك حجب الغيب، الأمر كله فقط حسن تدبير

وحدس وتوقع وتخطيط، قد تسأل نفسك كيف علمت بموضوع الأقراص الذكورية المضعفة للحيوانات المنوية...؟ فقط الصدفة جعلتني أعلم، فحين تخلصتَ منها رميتَ بها في حفرة قريبة، ورآك أحد معارفنا وظنك تقضي حاجتك، وقد وجد العلبة، وظن أنك أضعتها، فجاء بها للزاوية وأعلمني بالواقعة، وأنا أعلم أن في الدار أكثر من دورة للمياه، ولست من يخرج للخلاء، وعلمت لما تصلح أقراص العلبة، واستنتجت أنك ترغب في الذرية، فتخلصت من المانع، وجاءتني البُشرى قبلك من لدن زوجتي أن أختها يداهمها قيء وغثيان هذه الأيام، فأدركت قبلك أن أمر الحمل قد حصل، وزوجتك من خوفها وعدم يقينها أجَّلت الخبر حتى يتبدد في عقلها كل شك، وأنا خِفتُ أن تجهض فرحتها باعترافك أنك استعملت ما استعملت لسنين، وخشيتُ ألا تغفر لك زوجتك، وهذا محتمل، فقد تحسبها خيانة وخذلانًا، أو عشرة مشوبة بالغش، وفعلًا فقد غششت، وإنْ التسمتُ لك الأعذار في أوجاع الطفولة وعيشة الميتم المؤلمة، فهي امرأة أعطتك كل شيء، وتَحَدَّتْ الكل لتتزوجك، وأنت لم تُعطِ كل شيء، بل أخفيت ودلَّسْت، قد تصبح في عينها مُدانًا بعدم الوفاء والإخلاص، وقد ينقلب حبها الكبير كرهًا مريرًا... من يدري...؟ وبوحك لها بما وقع مغامرة لا نتحكم في عواقبها، فرجَّحت الصمت على قول حقيقة تهدم البيوت وتفرق الأزواج، واعلم أن الحقيقة إن كانت مؤلمة هدامة لا بانية ضُحِّي بها، ما لم تتعلق بهدم باطل ورد حقوق وتقويم وضع نتج عن ظلم وجور... أرأيت...؟ الأمر لا يعدو كونه حدسًا وتدبرًا في العلل والأسباب، وفيه من الصدف العجيبة، ما أنعم الله علينا بها، وهي عند العامَّة صدف، وعندنا يد الله تعالى الرحيمة وحكمته في ترتيب الأسباب؛ فالأسباب توالت واتسقت، لكنها وحدها لا تكفي، فلا بد من عقل مدبر يُلاحظ ويركب ويستنتج، ولا بد من التوقع والثقة في الحدس والترجيح والقياس، وتتبع الأسباب بالعقل والنظر، ولا بد من الشجاعة في القرار والاختيار، وإجادة علم الصمت وعلم القول، فكلاهما يقتضيان المقام الأنسب، والتصويب السديد».

الزمن الذي قضاه صلاح حيران في أحضان واحة «أغمانا» قساوة الطبيعة، غيَّرته تغييرًا جذريًّا، فما إن حط الرحال بمدينة الدار البيضاء حتى أحس بالغربة، وضاقت أنفاسه، هذه المرة ليس من نوبة الذعر التي تخلص منها، ولكن من شعوره بالضيق وعيناه تصطدم بالجدران والعيون الغائرة والوجوه الشاحبة المنهكة، والنظرات الغاضبة للنفوس المتوترة، أَلف غابات النخيل الندية، وألفته حتى غدا كأنه يسمع همسها ليلًا، ويفك شفرات رقصتها والريح تداعب سعفها، وهذه المدينة مهما منحته واحتضنته في صباه وعنفوانه، غدت مخيفةً، كأنها بتحولها السريع، قطار مجنون يحول القديم البهي أشلاء، كأنها وهي تتعرى للمضاربين والأغنياء الجدد، تتنكر لأبنائها وبناتها، ها هي مسختْ وتبدَّلتْ بسرعة البرق أحوالها وأحوال أهلها، وما زالت البادية تلفظ جيوش الفلاحين والمزارعين يومًا عن يوم، والجفاف أفرغ كل «مطمورة» قمح، وكل مدخر عزيز، وكل مخزون للأيام الصعبة التي طالت سنواتها وتوالت، فلم تجد المواشي ما يسد رمقها في المراعي التي اغبرَّت واكتست ثوب القحط، وارتفاع ثمن العلف، دفع مربي الماشية إلى عرض مواشيهم بأبخس الأثمان، وتخلوا عن مطاياهم حتى يأكل أبناؤهم، أما الدار البيضاء فتكاد لا تجد فيها فراغًا إلا طاله غول الإسمنت الذي كأخطبوط تفتحت شهيته حتى للحدائق والمساحات الخضراء، حي الشوافين أم حي الضفادع، كما أصبحت شهرته، امتدت الأكواخ القصديرية حتى لامست رمال الساحل، واكتظَّ بالقاطنين، وظهرت فيه محلات تجارية عشوائية، حرف متنوعة، وتناسلت المقاهي العفنة التي تقدم وجبات رخيصة في فضاءات متسخة تعبر قرب عتباتها مجاري مياه الصرف الصحية، وارتفعت الجريمة والعنف، حتى إن الحي يعرف كل يوم شجارات دامية، تنتهي بعضها بجرائم القتل الشنيعة، وطفت على السطح ظاهرة غريبة، عند الغروب تتحول الشوارع القريبة إلى فضاءات تتهادى فيها الفتيات بملابس مكشوفة مثيرة، لاقتناص طالبي المتعة، وفي زقاق مظلم قريب يقام سوق ليلي تحت جنح الظلام يعرض

فيه اللصوص وقطاع الطرق والنشالين بضائعهم المسروقة، من ملابس مسروقة من حبال الغسيل على السطوح، إلى أجهزة إلكترونية مختلفة، وأثاثٍ منزلي، وأوانٍ.

كان على صلاح حيران أن يظل قريبًا من رقية وهما يعبرانِ الحيَّ نحو العمارة، فصخب المعربدين يهز القلوب، وحلقات للشجار تتشكل في أكثر من نقطة.. حين صارا في جوف الشقة، ارتفع أذان الفجر، قبل أن يرميا بدنيهما المنهكين على السرير، صلَّيا وذكرا الله كثيرًا، فعمَّ الصمت الأرجاء من جديد.

حدثٌ مؤلم وقع في غيابهما، فحين علم الروبيو بعودتهما، جاءهما ظهرًا، وأخبرهما وهو ينتحب أن السايح مات وتركه وحده، لطمت رقية صدرها وبكت حتى اختنقت أنفاسها، وحين سأله صلاح حيران عن تفاصيل الحدث قال وهو ما زال على العتبة:

— هل يمكنني أن أجلس...؟

تبادل صلاح حيران ورقية نظرات سريعة، فقالت له بحزن:

— تفضل... ادخل... اجلس على الأريكة... سأحضر الشاي...

— لا... جزاكِ الله خيرًا، ارتشفت من كؤوس الشاي الكثير هذا اليوم....

تجلس رقية إلى جانب زوجها على أريكة مقابلة وهما يصغيانِ للحارس الروبيو الذي قال ولم يكُفَّ عن البكاء:

— الرجل الذي احتقرته لم يكن رجلًا «كأيها الناس».... لا... لا... حين جاء التجار فجرًا للمركب التجاري، لم يصح على عادته، قالوا: ربما متعب وغارق في النوم، وأنا لغبائي لم أفطن للكلب الذي تمرد على ندائي، ولازمه قرب فراشه الليل بطوله وهو يعوي عواء الذئاب... ثم أرادوا إيقاظ الرجل... فوجدوا «صاحب الأمانة أخذ أمانته»... وجدوه ميتًا... ميتًا... رحمه الله...

وقف على حين غرة صلاح حيران وذرع الصالة وهو مطرق الجبين وقال بأسى:

— هل قتله أحد...؟

— لا... لا... معاذ الله! السايح لم يكن له أعداء... وهذا ما قلته للشرطة، وما كان يملك شيئًا ثمينًا ليقتله لص، وأنا كنت ليلتها بالمركب التجاري، لا أحد دخل أو خرج... غير القطط وكلبي الذي دخل وما خرج... الشرطة... قالوا بعد أيام إنه مات بسكتة قلبية... وبكاه أهل الحي كلهم.

تضع رقية رأسها بين يديها وتترحم عليه، وما انفكت تنحط حتى نهَرَها صلاح حيران الذي وجه سؤاله للحارس الروبيو:

— قلت: إن الرجل ليس كأيها الناس... ماذا تقصد...؟

— علمت من الشرطة أنه كان أستاذًا جامعيًّا، سافر في مهمة لفرنسا مُدَّة أسبوع منذ أكثر من عشرين عامًا، وحين عاد أخبرهم أحدهم أن زوجته استقبلت شابًّا في بيته وكان يأتي متخفيًا ويبيت عندها، وليلة عودته من الخارج اختفى، فقتلها خنقًا وهي نائمة لكن المصيبة... أن الشاب... لم يكن غير شقيقها، وكان مطاردًا من الشرطة؛ لأنه كان سياسيًّا معارضًا... وشارك في إضراب 1965 وكان مُحرِّضًا.. وقيل: كان شقيق زوجته من الجماعة التي تآمرت ضد الملك، وكانت تُخطِّط لاغتيال ولي العهد ...

رد عليه صلاح حيران:

— لا داعي للتفاصيل...! أعرف هذه القضية...

— سيدي صلاح...! السايح الرجل الطيب تعذَّب كثيرًا... المسكين... رحمه الله قضى سنوات طويلة في السجن... وحين أُفرِج عنه قبل أن يكمل المدة بعفو ملكي.. لم يجد غير الشارع ملاذًا.. والبقية تعرفها... إيه...! رحل وتركني وحدي...

— يا رجل...! ألم تكن تكرهه وتُنغِّص عليه حياته...؟

— نعم... سيدي صلاح... كنت أفعل ذلك حتى لا أشعر بالملل... ولكني في الحقيقة... واللهِ أُحِبُّه... برحيله صرتُ وحيدًا... كان وجوده يؤنس وحدتي...

يقف الروبيو بمشقة، يبدو أن موت السايح قصم فعلًا ظهره، فقد بدا ضعيفًا مُتعبًا وهو يجُرُّ قدميه مغادرًا الشقة أمام ذهول صلاح حيران،

بينما غرقت رقية في حزن عميق، ولاذت بغرفة النوم مهرولةً، لتبكي رجلًا كان أعظم صديق لها في زمن عَزَّ فيه الأصدقاء.

في اليوم التالي، قصدت رقية نيابة التعليم لتقدم استقالتها، وتوجه صلاح حيران لمركز البريد ليرسل إشعارًا لمالك العمارة بفسخ عقد الكراء، وحين انتهى من العملية، جلس بمقهى يتابع العالم الذي سينقطع عنه قريبًا، فرمق فجأة «العميد الممتاز» بوشعيب على طاولة في عمق المقهى يحتسي الشاي، ويعد حبات سبحة بأصابع مرتعشة وقد هزل كثيرًا وامتقع لونه، تردَّد لحظة ثم قرر تحيَّته، قصده وسلَّم عليه، رفع بوشعيب نظارته وهو يردُّ السلام وشفتاه ترتعشان، تفرس في وجه صلاح حيران طويلًا ثم حاول الوقوف لعناقه فخذلته ساقاه، تهالك على كرسيه، ضمه صلاح والرجل ينتحب كطفل صغير، وهو القوي الذي لا ينهار، ذهل صلاح مما رأى من ضعف وانهيار، ولم يستطعْ فهم حالة رئيسه السابق، فجلس قُربه وقال بحزن:

— ما بكَ يا سيدي...؟

كفكف العميد الممتاز دمعه بطرف كمه وقال وما انفكت شفتاه ترتعشان:

— حينما رحلت يا صلاح حيران تغيرت عدة أمور في الجهاز، فالجهات العليا لم تكن راضيةً عما وقع في الدار البيضاء، وخصوصًا دفن القتلى في حفر جماعية، وفُتِح تحقيق في الأمر لترتيب المسؤوليات، فضحوا بكَ أنتَ أولًا حتى لا تستمع إليك لجنة التحقيق، ثم بدأت تغييرات شاملة في الجهاز، وأنا حوَّلوني إلى عمل مكتبي، كاد يقتلني الفراغ، حتى تقدمت بطلب للتقاعد المبكر، ثم بدون سابق إنذار تكالبت عليَّ الأمراض؛ من قلبٍ، وخلل في الجهاز العصبي غير معروف، وضعف سريع في البصر والسمع.

— لا بأس عليكَ سيدي... طهورا إن شاء الله...

— صلاح يا بني...! أمْرٌ ما تغيَّر فيكَ... ابيضَّ وجهك وأزهر محياك...

— فقط غيرت نمط عيشي.

— أتعلم يا بني أن ما يقتلنا قبل الأوان هو الندم... والله إنه سم يسري حتى يقتل.

— الندم...يا عميد...! لا دواء له غير الصفح... والإقرار بالخطأ وتقديم الاعتذار.

— أتظن أننا كنا لم نكن حق...؟ قل...! هل ما فعلناه صواب...؟ ألم نكن نحمي الوطن من الخراب والفوضى والفتن...؟

— سأكون معك صريحًا.... كان ممكنا حماية الوطن دون قتل الناس ودفنهم في حفر جماعية... كان ممكنا حماية الوطن دون التفنن في تعذيبهم وتلفيق التهم لهم ليصمتوا أو يجنوا... في الواقع... لم يكن الذين عذبناهم خصومًا... بل كانوا يحلمون بمغرب جديد... كانوا يحلمون بالعدالة والحرية والكرامة... لنعترف أننا لم نكن على حق... فحُبُّ الوطن والدفاع عنه ممكنان بدون إراقة ولو قطرة دم، بلا جراح ولا معتقلات خفية... أخطأنا أيها الرئيس... اخطأنا... كنا نرى الحق من زاوية واحدة...

— الحق واحد يا صلاح...

— إذن كنا على باطل... وتلك خيبتنا الكبرى....

صعِدَت تنهيدةٌ عميقة من صدر العميد الممتاز بوشعيب، وشد بقوة غريبة على يد صلاح حيران وقال بلهفة:

— أيغفر الله لنا يا صلاح...؟

— نعم... يوم نتصالح ويغفر لنا الضحايا، ونضع كل شهيد في قبر معروف بشاهد يدل عليه...

في الحقيقة لم يكن صلاح يملك جوابا شافيا لما علق في نفسه من حسرة وأسى، وإن رمى بطوق نجاة مزيف لبوشعيب شفقة ورحمة، ففي داخله تناسلت وتعاظمت كالموج العاتي هديرا وصخبا، أسئلة حارقة، كادت أن تعصف بشجرة السكينة التي غرس الشيخ أبو شامة في روحه وسقاه بسقيا الذكر والرجاء، فظل رجع السؤال القاتل يعلو ويعلو «هل

توبته كافية...؟»

كان كلما أراد أن يطمئن إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويستعيد نسيم الواحة ويتعمد بنورها، تحضره صورة الصبي الذي تعلقت أصابعه بكريات بلورية، وظلت عيناه مفتوحتين وجثته شبه العارية الضعيفة تحشر بين عشرات الجثث في الحفرة الجماعية، فيعتصر قلبه، وتضيق به الأرض بما رحبت، تغلبه الدموع، ويضطرب اضطرابا من ذعر جارف وكمد جامح، يستغفر ربه، ويستغفر... يشغل عقله بالذكر والذكر عله يطرد صورة الصبي القتيل وقد شقت رصاصة طائشة جمجمته... يغيب في ذاته ذاكرا خانعا باكيا، عله لا يرى تلك النظرة الطفولية لصبي كان فقط يلعب في زقاق بكريات حالمة في زمن مجنون.

يعود إليه هدوء مؤقت، يفتقد الواحة، يصوب نظره جهة العميد الذي شاخ على حين غرة وقد بدا من نظراته القلقة غارقا في لجة اضطراب مرير وخوف عميق، وهو يهمهم: «متى...؟ متى يا رب...؟! متى يا رب.... ؟!»، أشاح صلاح بوجهه عنه لحظة، كأنه شعر باختناق من جديد، فعلا أنين العميد، تتفرس صلاح في وجهه بنظرة عطف، والعميد منشغل بعد حبات السبحة، وشفتاه ترتعشان وفمه يزبد، مجموعة من الزبائن قريبة منه يحدجونه بنظرات قاسية، ويبتسمون ابتسامات ساخرة وهم يلوون شفاههم، كأنهم سمعوا الحديث كله، كأنهم يهزؤون منه ويتهامسون « لن تنقذك السبحة يا قاتل...»

أحس صلاح بتعب مفاجئ، لم يعهده وهو القوي الصامد الذي ظل ما انهار جسده يوما رغم انهيار نفسيته، ورغم الانكسارات والخيبات، خارت قواه، وخذلته ساقاه، تضببت رؤيته، فطفق يمسح عينيه عله يتخلص مما ظن أنه علق بالرموش فحجب عنه الرؤية الواضحة، جلس على الرصيف ليلتقط أنفاسه، تحلق حوله العابرون والسابلة والفضوليون، ظهرت له وجوه كثيرة حزينة قلقة، تنهض كغابات من وراء الأفق، وتختلط بوجوه الناس، وبين الوجوه تسلل وجه الطفل القتيل منتحبا، يبحث عن

أمه، فصاح صيحة مضطربة من ذعر شديد حتى نشر الرعب في قلوب من تحلقوا حوله فتراجعوا خطوات بذهول ودهشة، ثم غاب عن الوعي.

صحا بعد مدة وجد نفسه في شقته ممددا على أريكة وبعض أهل الحي محيطون به، فتح عينيه بمشقة وهو مرتبك، على حافة السرير جلس أمام مسجد الحي مبتسما وما انفك يتلو آيات من القرآن الكريم ويده على رأسه، ونساء الحي تفرقن في الشقة يتجاذبن أطراف الحديث بصخب، وهن يحاولن طمأنة رقية «لا تخافي...! ورب الكعبة...! هو التعب... فقط... لا غير... وسيدي صلاح ولد الناس... لن يخيبه الله...»

نقل نظراته في الشقة، فرأى أطفال صغارا يركضن بصخب في كل مكان، ولمح ذاك الشاب العربيد الذي كلما سكر ملأ الحي صخبا وضجيجا، يقف عند رأسه حزينا يردد» والله...! كم تحملتنا يا سي صلاح...! الحمد لله... كنت مارا قرب المقهى.... فوجدتك مغمى عليك على الرصيف...والحمقى فقط ينظرون إليك ويضربون أخماسا في أسداسا، وتلهوا عن حالك بمناقشة الأسباب، أكثرهم أجمعوا أنك سكران... والله... الحمقى... فحملتك على ظهري حتى المستشفى.... الأغبياء الفضوليون اعترضوا في البداية... قال لا تفعل...؟ ماذا لو مات...؟ ستذهب إلى السجن... أغبياء...لا يفعلون الخير ولا يتركون غيرهم يفعله... الجبناء. ثم أسرعت لأخبر الأستاذة بعدما تركتك بالمستشفى... قال لي أحد الحراس هل أنت سيارة إسعاف...؟ قلت له بغضب أنا زوج أمك... فصمت الوقح... أعرف أمثال هذا لا ينفع معهم غير لغة الشارع... حقنوك حقنة ... ربما حقنتين.... فنمت كطفل صغير... سمعت الطبيب يقول.... لا شيء يدعو للقلق... التوتر والإجهاد هما السبب... لم أفهم... كلنا متوترون ومتعبون ولا يغمى علينا.... هذه عين أصابتك والله... انهض يا رجل...! نحن في حاجة إليك.»

ورأى تلك الفتيات اللواتي انقطعن عن المجيء لمساعدة زوجته وهن منهمكات في تنظيف الشقة وإعداد الطعام، إحداهن توجهت لرقية

بالكلام « يا لالة رقية، كنا ننوي في كل يوم المجيء لساعدتك، حتى أخبرنا «السايح «رحمه الله بعدم الحضور مرة ثانية، قال إنك لا لم تعودي ترغبين في ذلك وزجك مريض لا يطيق «خيطي بيطي»... لم تستوعب رقية لمَ السايح قال ذلك، فقط نظرت صوب صلاح وكان قد سمع ما قالت الفتاة، فابتسم لها، وهو رأسه معبرا عن استغرابه من الأمر. وظهر بين الحاضرين كهل غطت ملابسه زيوت المحركات، دنا من صلاح وهمس في أذنه « لقد حاولت أن أتخلص من سيارتك المركونة منذ مدة، كما قال لي السايح... جاءني ذات يوم ... وقال لي إنك تريد أن تتخلص من السيارة، في الحقيقة، لم تكن معي أوراقها ولا وثائقها، فتخلصت منها قطعة قطعة... لم يبق غير الإطار... لا تهتم سأجد له حلا... وحينما تستعيد صحتك مر علي لنتحاسب...!»

كعاصفة ولجت الشقة شابة يبدو عليها التعب، توجهت نحو صلاح، سلمت عليه ودعت له بالشفاء، تذكر أنها من فتيات الليل اللواتي يملأن الشارع المتاخم للحي، رغم أنها اردت جلبابها وشدت شعرها بمشد، بحث بين النساء حتى اهتدت إلى امرأة متعبة شاحبة الوجه، لا تكف عن السعال الحاد والتجشؤ المتتابع، فقبلت رأسها وقالت معاتبة» يا أمي...! أنت متعبة، وأخذت حصة «الكيمياوي» للعلاج من السرطان فقط بالأمس، كان عليك ألا تخرجي... وتركت والدي وحده، وهو شيخ مقعد... « ردت عليها الأم وهي متذمرة تهش بيدها « وماذا أفعل...؟ خرجت النساء... قلنا زوج لالة رقية مريض... أتريدينني أن أتخلف عن هذا... وهي المرأة التي يصلنا خيرها دون انقطاع...وتساعدنا كلما قصدناه ... بل دون أن نسأل...» علا رد جماعي مزكيا قول الأم تعضده الحركات وهزات الرؤوس، فصمتت الفتاة، واقتربت من صلاح وأخرجت علبة شوكولاتة ومدتها إليه « خذ يا رجل...! إنها مستوردة...» ابتسم صلاح ونقل بصره صوب زوجته رقية التي ابتسمت له.

حفظك الله وحماك وزوجك من كل شر ما ظهر منه وما بطن.

الشيخ إبراهيم أبو شامة

(17)

فتح الشيخ «سيدي إبراهيم أبو شامة» الظرف الذي أرسله صلاح قبل أسبوع، طفق يقرأ الخطاب بشوق ولهفة، وحده لا غير، وقد اختلط ظله وظلال يصنعها خيال جامح لسراج حالم بصبح قريب، وضوؤه يداعب الأشياء الزاهدة المتفرقة في «الزاوية» عند منتصف الليل، قد تفرق الناس والأتباع والمريدون، ولاذوا بمضاجعهم وبيوتهم، وغلقوا الأبواب، عدا من لزم بستانا أو قصد حقلا أو بات بغابة نخيل يطلب ريا فيما فضل في الجداول الأسنة، أو المجاري النزيفة، وفشا الصمت الرهيب إلا من نقيق أو نعيق أو نباح أو صرير.

كان كلما قرأ سطرا أو أقل تهلل وجهه نورا سرورا وسط الفضاء الذي لا يكسر عتمته غير ضحكة لسان السراج المتراقص على هب ريح طائشة خفيفة، وقد كان على منضدة قصيرة تليدة يحبر عليها الشيخ أوراقه ويسود أفكاره ومناجاته. من حين لآخر، يتوقف ويسرح ببصره بعيدا، كأن ما تحمله الرسالة كان متوقعا أو على الأقل لم يكن خارج الاحتمال، ويبدو من تعابير وجهه أن ما جاء فيها لا يدعو للحزن ولا للغضب، يتوقف كثيرا متأملا ليبتسم فيهل وجهه، وتفرج أساريره، وتومض عيناه وميض حبور خفي، وشفتاه تغردان همسا دعاء وحمدا وشكرا، شعر برغبة قوية في إعادة القراءة، فوضعها جانبا حينا وهو في تأمل عميق منقطعا عما حوله، دخل عليه العيساوي ،وكان الوقت متأخرا، ودنا من مجلس الشيخ في عمق الزاوية، مستعجلا كطريد، حتى أن فردة من خفيه ظلت ملتصقة بقدمه وهو يتقدم بقلق نحو الشيخ، فكبا وانتصب واقفا على

عجل، وهو يردد:» خير...يل شيخ... ما عهدتك تظل هنا إلى هذه الساعة من الليل... خير...» بش الشيخ فتهلل وجهه ضياء وأشار له بيده أن يجلس عن يمينه وهو يقول بصوت خافت هادئ:» كل الخير... وصلتني رسالة من سي صلاح...» انفرجت أسارير العيساوي وبرقت عيناه فرحا وقال مستفهما مستعجلا الجواب كمن به عي» إيه... متى يعود...؟ والله اشتقت إليه... ماذا في الرسالة سيدي..» ابتسم الشيخ ونظر إليه طويلا وقال» يا صاحبي...نحن نريد.... والله يريد... ربما صلاح جاء إلينا جريحا خائفا ضائعا، لكن ليس ليقيم بيننا... بل نجبر جناحه المنكسر ليحلق كالصقر بعيدا يتتبع الأسباب الربانية... لقد بصر أخيرا... سأقرأ لك رسالة رجل كان يظن نفيه بصيرا يرى... حتى كشف الله له أنه كان أعمى بغشاوة الخوف والحقد... فرأى... وحين رأى أحب... وحين أحب... لان ما اشتد عليه، ورق ما قسا فيه وحوله، وزان ما حسبه يوما بشعا، ورأى النور حيث ظن أنه العتمة، ولمس المحبة حيث خال يوما أنها الحطمة.. اسمع:

«سيدي الشيخ أطال الله عمرك.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله وحده، أتمنى أن تصلك رسالتي وأنتم في صحة جيدة، ترددت قبل كثيرا قبل أن أكتب إليكم، سامحني

لقد عدت للدار البيضاء ورقية، لنفسخ عقد الشقة، وتقدم استقالتها، وتقطع كل علاقة بهذه المدينة، ونبدأ حياة جديدة بالواحة، بعدما رممتم ما انكسر في روحي، وشربت من نبعهم الصافي ماء القناعة والسكينة والمحبة.

قد كنت أحسب نفسي في الحي حيث أقطن محاط بالخصوم والأعداء، وأنني منبوذ بينهم مكروه لا يطاق، حتى سقطت يوما في الشارع مغمى علي، فكشف الله لي الحقيقة، إنهم والله من أطيب خلق الله، وما ليس العالم كما نراه فنؤله، علينا أن نتحقق قبل أن نصدر أحكاما ونرفع الأسوار بيننا

وبين الناس، كل ما ظننته مبررا لحقدي عليهم لم يكن غيروهم، اكتشفت أنهم فقط ضحايا من نوع آخر، نصنفهم حسب ما نرى، ليس حسب ما يجب أن نعرف عن قرب، إنهم في صراع مرير مع الفقر والمرض والمخدرات والجهل والقهر، والحقيقية أنهم في أمس الحاجة إلي هنا وبينهم، ربما لا يليق بي أن ألعب دور المصلح وأنا الخارج من جحيم السلطة العمياء، لكنني لا أريد أن ألعب هذا الدور، فقط أريد أن أكون بينهم... فهم أهلي ورهطي...

ربما أربكت مخططكم، لكن سامحني، فالنوم الذي كنت أبحث عنه في الواحة، كان قريبا مني جدا، كان مع هؤلاء وبينهم، ليسوا كما يبدون... صدقني...! ليس العالم كما نراه... تعلمت أن التحقق سابق على الحكم، والخير أصل، والشر عارض. لقد تراجعت رقية عن استقالتها، وأنا وجدت عملا في شركة أمن خاصة... دعواتك سيدي. حفظكم الله.»

في أواخر أكتوبر توصل صلاح برسالة من الشيخ أبي شامة، تردد طويلا في فتحها، وفتحتها أخيرا رقية وقرأتها له بصوت عال وهو يدرع بهو الشقة جيئة وذهابا متوترا.

السيد صلاح حيران.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله الذي بحمده يفتح المغلق، وبشكره يهتدي الضال، وبطاعته يجلو المقال، وبمحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، نرتقي مقاما، ونعلو في القول سناما، وتتم علينا نعمة الله تماما.

أما بعد، قد علمت منكم رغبتكم وقراركم البقاء في الحاضرة الكبيرة، بعدما كشف الله الحقيقة، ورأب الصدوع، وبدد الأوهام، وألف القلوب، وقرب الاقوام، بعدما لبس عليكم الشيطان، فأظهر لكم كل عابر عدوا، وكل هامس ظنينا، وكل صامت متآمرا، وكل منقطع خصما. ولقد صدقتم القول، فلا حكم لنا على الناس مما يظهر منهم، فنظلمهم بسوء الظن والتأويل، وها أنت ترى أنك حكمت وخاصمت من لا يستحق محاكمة

ولا خصومة، فقط لأنك رأيت الأمر من حيث لا يجب أن يرى، رأيته بعين الخوف والحقد، فصنعت لنفسك عزلة المشكك المتردد.

أصبت في القرار، ولأنهم في أمس الحاجة إليكما هنا أكثر من الواحة، فتلك حاضرة كبيرة، ولابد أن تعجن عجينتها بخميرة طيبة، وتبذر فيها بذور الخير وهنا وهناك لتثمر ظلالا يستظل بها كل تائه ضليل.

أما نحن في الواحة، فقد خرج علينا من حيث لا ندري، قوم كانوا منا وفينا، غيروا لباسهم، قصروا وتعمموا وأطلقوا اللحى، ولبسوا الأخفاف، لا يتورعون عن الخروج زمرا لضرب النساء وفض كل اجتماع، يصفعون المنتخبات المكلومات، وعينهم على القبب، في قولهم من السلف ما نرتضيهم، لكن منهجهم منحرف لا يؤخذ بالمقاصد ودفع الضرر الأكبر، و التربية على منهاج النبوة قبل الدعوة إلى مجتمع الدعوة، لم يأخذوا بأحوال عصرنا، و ظنوا أن الصلاح مطلق، وهو والله نقيد بما يراه الناس ويعصمه من الشطط عروة العقيدة و هيبة السلطان، كبيرة هي عندنا أن نكفر أحدا، تخسف بنا الأرض ولا ننتعت أحدا بالكفر، وهي عندهم يسيرة تطلق بلا عنان ولا تدبر، وأكثروا من مداخل الحرام حتى تضيقوا، والأصل التحليل وما الحرام إلا بنص، وسلكوا في ذلك الشدة والقسوة، والفظاظة في القول، لا يجيدون حرجا في ضرب الناس، كأنهم أولياء على الملة والدين، اعتزلوا مسجدنا، كفر إمامنا، بحجة أنه حليق، و ترك السنن لا يخرج من الملة، ولا يأثم فاعله، يعدوننا كفارا صرحاء، ويقسمون إنهم يوما ما سيهدمون ما ينعتون زاوية الكفر والضلالة، يكفرون الأب والأم والأخ، ويهجرون أسرهم تكفيرا للعادات والأعراف، وما يحز في القلب أنهم قلة جهلة، لا علم عقيدة يعصمهم ولا علم حقيقة يطهرهم، ولا شيخ لهم، ومن لا شيخ لا علم له، والعلم عندنا تواتر لا رأي، إلا قياسا أو استنباطا أو استحسانا أو عرضه على ميزان مراتب الضرر، وقياسه بميزان المقاصد، إن لم نجد في كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله عليه الصلاة ولا صحابته والتابعين وتابعي

التابعين من الأئمة الكبار، وهم يفتون بالرأي لا بالعلم ولا بالسند، وقد خلطوا الصحيح من الحديث بالسقيم والموضوع، والضعيف بالمرفوع، أدعوهم لمناظرة نتقارع الحجة بالحجة، والدليل بالبرهان، لنفتح أعينهم على أن أمة المغرب سلفية منذ أكثر من 14 قرنا، مذهبهم مذهب السلف.. أهل السنة والجماعة، فيرفضون بحجج واهية، ويفرون من كل جدال وحوار، إنهم لو شاء الوصف كالخوارج، وأخشى أن يعظم شأنهم، فللباطل عبر الزمن أتباع من تلبيس إبليس، فتتفرق كلمة الأمة، ويضل كثيرون جهلا وترهيبا وترغيبا.

ما العمل مع جماعة إن حاورت كفرت، وإن جادلت تمنت سحلك، وإن استشهدت خلطت الصحيح بالضعيف، والموضوع بالمرفوع، والمطلق بالمرسل، والخبر بالحديث، و هجرت القرآن الكريم إلا قليلا وحين تطلبه فدون علم بمفصله ومطلقه و وناسخه بمنسوخه وتنجيمه ومقاصده وسبب النزول، يقطعون الآيات عما لحق وسبق وعما تأخر وعلق، ويقدمونها دليلا مبتورا عن المقام والمقصد العام والمقيد، معطلين تأول الفقهاء والشراح، فكل شديد متشابه في الدين سلكوه، وكل محكم يصنع السعادة ويحتفل بالحياة ويكرم الجماعة والفرد والمرأة والطفل تركوه، جماعة إن دُعِيتْ إلى الحجة والبرهان خونت وشطت، وصخبت عليك صخب الدهماء ممن أحرقوا كتبا كثيرة في التاريخ، وصلبوا وقتلوا الأبرياء باسم الدعوة والموالاة، ريحهم حلت من حيث لا ندري، وهُمْ منا....هي ريح هادئة بالحواضر، تتأهب خريفا تقلع فيه الشجر، لكنها تصلنا عمياء حارقة، لأن الجهل حطب نارها، والأنانية تربة عشبتها السامة، ولا أظنك تجهل طباع أهل البادية، جلاقة مع استكبار، وقد يعلمون أنه الحق لكن يصرون على الباطل نصرة للغرور والكبرياء، لذلك ما وصلنا غير هبوب خفيف من ريح هذا الفكر الضليل ولكنه أكثر عدوى هنا لوهن في العقول وضعف مناعة الفكر... والله ... ما خشيت على الدين والوطن أكثر ما خشيت اليوم.

أظن والله أعلم أن الغد سيكون أصعب، فليس أشق على أمة من الفرقة والتفرقة، فالفقر والجوع والمرض مقدور عليهم بالتلاحم والتعاضد، والصبر والصلاة، والبر والزكاة، والصيام والصدقات، لكني أرى في عيون هؤلاء شرا كبيرا لا تنفع معها حجة عالم، ولا محاورة عارف، ولا دعوة صالح، ولا مناظرة فقيه، فما بني على التعصب والجهل أقوى من أن يواجه بالعلم وحده، والحجة لنا لا لهم، وعليهم لا علينا، لكن عمت القلوب وغارت الصدور، وتلوثت النفوس، ولا أرى في داع متوعدا مهددا مكفرا ولو بطرف عصا غير جاهل بأصل الدين، فلا إكراه فيه، ولا تسلط على الناس والرقاب، فلو أراد ربك لجعل الناس أمة واحدة، وقد فشلنا حيث فشلت الحجة والدليل، وإن الغوغاء أضعف من أن ترد الضلالة بالتدبر، وهي أيسر تأثيرا على الجهلاء، وألين بين يدي دعاة الباطل، وإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.»